حنا عبود

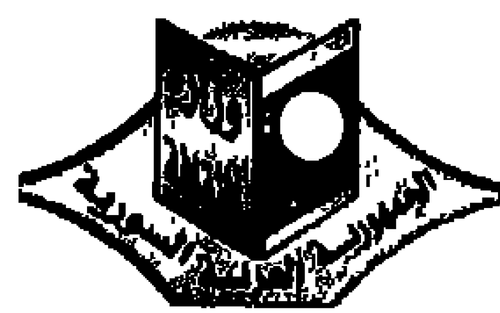


ليليت

والحركة النسوية الحديثة

حنا عبود

ليليت
والحركة النسوية الحديثة



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٧

ليليت والحركة النسوية الحديثة / حنا عبود . - دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٦ .- ٢١٦ ص ؛ ٢٥ سم . -
(قضايا نسوية ؛ ٢)

١- ٢٩١,١ ع ب و ل ٢- العنوان ٣- عبود
٤- السلسلة

مكتبة الأسد

قضايا نسوية
« ٢ »

الفصل الأول

ليليت تنهض من خرائب سومر
أمازونة ما بين النهرين

ليليت والحركة النسوية

يجهد النساء أنفسهن في كتابة تاريخ نضالهن، ويعرضن هذا التاريخ صفحة فصفحة معززا بالشواهد والصور والأرقام. ويطفن في تاريخهن على كل البلدان، لاعتقادهن أنه لا وجود لبقعة في الأرض لا تشكو فيها المرأة من الظلم. مئات المجلدات كتبت عن الحركة النسوية في معظم أرجاء العالم إن لم نقل في كل بلد من بلدانه. ولو أنهن عرضن تاريخ الأمازونية الفراتية "ليليت" منذ أكثر من ستة آلاف سنة لأرحن أنفسهن من الطواف على بلدان العالم وإحصاء نسبة الأمية في الإناث، ونسبة العاطلات عن العمل، والمضطهدات في الفراش والمطبخ والليوان والشارع والمدرسة والحجاب والبرقع وممارسة المهن الصعبة وغير ذلك مما تفننت في عرضه الحركة النسوية.

إن قصة ليليت، أمازونة ما بين النهرين، هي قصة المرأة مع القطب الآخر، منذ آلاف السنين وحتى اليوم. ظلت منذ تلك الأيام السحيقة تناضل من أجل الاحتفاظ بحقوقها والإبقاء على ملكية الأولاد والإشراف على تربيتهم... إن كل ما يطرح اليوم من قضايا كان مطروحا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

ومثلما يكتظ تاريخ الحركة النسوية بالانتصارات والخيبات، تتراكم المآسي والأفراح في تاريخ ليليت منذ قديم الزمن، بيد أن الجانب المأساوي هو الغالب على سجلها. وكما أن نضال الحركة النسوية، من مجتمع أمازونات البحر الأسود حتى مجتمع أمازونات البرازيل لم يتوقف لحظة، كذلك نضال ليليت لم ينقطع لحظة. كانت تنهزم ثم تعود وتهاجم. كانت هذه الأمازونة تدفن ويخمد ذكرها، ولكنها تعود وتنهض من بين الأموات وتعود إلى سيرتها ونضالها. هاجرت إلى بلاد كثيرة. وكل بلاد تدخلها كان سكانها ينقسمون إلى مؤيد وإلى معارض. والمؤيد طبعا هو مجتمع بنات جنسها، والمعارض عموما هو الجنس الآخر. ومع ذلك وقف قسم من الذكور إلى جانبها، مثلما وقف قسم من الإناث إلى جانب المعسكر المعادي.

قد نظن بادئ الأمر أن الخلاف مزاجي، وأنه غيرة الجنس من الجنس. إن الأمر أعمق من هذا بكثير، فالصراع يدور حول مصالح حقيقية. كان يدور حول «من يملك» و«من يتبع ويخضع». كان يدور بين معسكرين تفاوتت موازين القوى بينهما، فكان لا بد من إعادة تقسيم العمل وتوزيع الأدوار حتى يأخذ كل طرف بمقدار ما يسيطر.

إن ليليت نمط أنثوي من الأنماط الكبرى. وكما في النمط الأنثوي شيء من الذكورة، كذلك كانت ليليت تبدي شيئا من الذكورة. لكن الحنان والشفقة والرقص والغناء والصلاة والتراتيل... تظل من أعمق الصفات في الأنثى... في ليليت.

إننا نجد لدى أمازونة ما بين النهرين تاريخا دقيقا وكاملا (حتى اليوم تقريبا) لنضال أمازونة أراد الذكَر أن ينتزع منها ما كانت تتمتع به، حتى الأولاد الذين كانوا بطبيعة الحال ينتمون إليها، صاروا ينتمون للرجل، بعد أن صار للذكور دور فعال في عملية الإنتاج. وصار الوأد من حظ البنات بعد أن كان من حظ البنين. إن المجتمع يتخلص بلا رحمة من الأفواه المستهلكة

التي لا تقدم إنتاجا. كان الذكور لا يعملون شيئا مثل ذكور النحل، فكان المجتمع يقوم بالتخلص منهم. ولما انقلبت الآية صار الوأد من حظ الإناث. وهكذا تحول المقدس إلى مدنس وجرى التخلص منه تحت هذه الذريعة.

يقال إن ليليت أسطورة. وهم لا يقصدون بذلك معناها الأصلي، أي القصة الكاملة لحدث أو شخصية، بل يقصدون أنها من نسج الخيال. وسوف نوافق على ذلك، لنرى كيف أن هذا الخيال بالذات يقدم لنا الواقع بأصدق مما قدمه المؤرخون الذين كتبوا عن الإناث، وأن الحقيقة، وهي حبيسة الأسطورة، لا تحتاج إلا إلى تحرير edit حتى تتجلى بكامل أبعادها.

إن ما قام به كثير من الباحثين والعلماء أمثال فريزر وتايلور ومالينوفسكي ويونغ وفرويد وإدلر ولاكان وكلود ليفي شتراوس وديريدا وتودوروف... الخ يبين أن كل دراسة للمجتمعات القديمة (ويبدو الحديثة أيضا) لا بد أن تبدأ بتحرير الحقيقة (بالمعنى الذي أشرنا إليه تواً) التي تراكمت فوقها طبقات كثيرة من الرغائب والنزعات البشرية فسجنتها في إطار معقد. إن تحرير الأسطورة هو بداية البحث.

إن أسطورة ليليت ليست أسطورة الحفاظ على حقوق المرأة فقط، بل أيضا على حقوق الرجل، إنها أنشودة الحرية للبشرية بجنسيها. إنها ليست دعوة للمساواة السياسية والاجتماعية والثقافية، بمقدار ما هي دعوة إلى الحرية. فالمطالبة بالحقوق مطالبة بالحرية، فلا حرية وثمة حق مغيّب. والحرية حياة للمرأة والرجل، وليس لأحدهما. يبدو هذا الكلام سهلا، ولكنه المشكلة الكبرى منذ القديم، ولا نظن أن من السهولة أن تحل، ولا تعود فتطرح من جديد. لقد طرحت ليليت كل القضايا الأساسية، وهي القضايا المطروحة اليوم. لم تتغير هذه القضايا، بعد كل هذا التاريخ السحيق. إنها «التهابات» مزمنة، على ما يبدو.

ميلاد ليليت وحقيقة اسمها

ولدت ليليت في الألف الثالث قبل الميلاد. ولدت في البانثيون السومري، إنها وليدة الأم العظمى (التي هي في النهاية الأرض) فهي ليست منسوبة لأب ذكر ولا لأم أنثى، بل للأم الكبرى. وقد ظلت متمسكة بهذا النسب العظيم.

كانت البانثيونات القديمة كلها من النساء. لم يكن الآلهة الذكور قد دخلوا البانثيون بعد. والبانثيون هو الذي يوزع المهمات على الربات، وكان من نصيب ليليت أن تكون ربة المهد. تشرف على تربية الأطفال. التربية قديما لا تكون في النهار. تكون في الليل عن طريق الحكايات والأحلام. وحتى ينشأ الولد كما تريد ربات البانثيون، توجب على ليليت ذات الشعر الفاحم الطويل، أن تهدهد للطفل وتجلب له الأحلام السعيدة، ليستقبل نهاره رضي النفس، يقبل على الخير ويتقبل الحق ويتمتع بالجمال.

اسمها يعني الهواء أو الريح أو النفس أو الروح... ولكن بما أنها تعمل في المساء، صار اسمها يعني الليل أيضاً، أو ربما صار اسمها يعني الليل بعدما جعلوا منها جنية ليلية. وليست معالم ليليت Lilith (ليلات أو ليليتو بالسومرية) سوى معالم ليلية: شعرها أسود منسدل تلعب به يد الطفل، وعيناها واسعتان سوداوان وبشرتها سمراء، وعنقها طويل وقامتها هيفاء وخصرها نحيل. نظرتها ساجية وأهدابها طويلة وأنفها صغير. إنها شحرورة بلاد الرافدين. إن الأسماء التي كانت تطلق على الربات والأبطال الحضاريين، في تلك الأيام، تحمل دلالة على الوظيفة التي تقوم بها الربة، قبل أن يتغير المجتمع وتتقلب الأسماء وتتداخل، وأحيانا تصبح لها مدلولات مغايرة، مثل اسم ليليت نفسه، حيث تغيرت دلالته عبر العصور.

كان اسم ليليت يطلق على الليل، أو الوظيفة التي في الليل. وكانت ليليت مسؤولة ليس فقط عن أغنية المهد، بل أيضا عن الأحلام التي تربي

الأطفال وتجعلهم أنقياء لا يفكرون بالحرب والعدوان. هذه هي حقيقة اسمها. وسوف نرى كيف تغير المدلول بتغير المجتمع.

إينانا سيدة مطلقة

اخترنا من بين البانثيون ربة أخرى هي إينانا التي توحدت فيما بعد – أي بعد انحلال المجتمع الأمومي – بعشتار التي عاشرت الرجال وخضعت لسلطتهم وقامت بالمهمات التي أوكلوها إليها.

وصلت إينانا درجة عالية من السلطة. صارت حاكمة السماء والأرض، والمتسلطة على مصائر البشر. فهي التي تدير المجموعات البشرية الكبيرة، وهي التي تعاقب وتكافئ وهي التي تميت وتدمر.

لم يكن هناك أي خلاف بين إينانا وليليت. بل قيل إن ليليت كانت تعمل بإمرة إينانا. وكانت إينانا في قمة شجرة الحياة، بينما كانت ليليت في وسطها. كانت إينانا حامية لعابديها (والحقيقة لعابداتها) تبعد عنهم الأذى والضرر، وترسل الصواعق والعاصفة والنار والطوفان... إذا غضبت على الناس (والحقيقة على الرجال) الذين لا يحترمون قوانين الآلهة.

حتى الألف الثالث كانت السيطرة للمرأة في المجتمع. وفي نشيد ترفعه ابنة الملك سرغون الأول، وهي الكاهنة الكبرى، واسمها انهيدوانا Enheduana نلمس القدرات الكبرى التي تتمتع بها إينانا:

مثل التنين

تسممين البلاد

عندما تصرخين بالأرض

برعدك وبروقك،

فلا شيء أخضر يمكن أن يحيا.

تدفعين الطوفان ينداح من الجبل:

أنت يا إينانا،

السيدة المتقدمة في السماء والأرض

تمتطين ظهر وحش،

وأنت التي تمطر النار على رؤوس الرجال.

هكذا كانت إينانا سيدة مطلقة تتحكم بالسماء والأرض ومصائر البشر، تماما مثلما كانت ليليت سيدة مطلقة في تربية الأطفال وإعدادهم للمجتمع الأمومي، فتوحي لهم بالرقة والدماثة والمحبة والتعاون...

والملاحظة التي نشير إليها هنا أن إينانا كانت حامية الأنثى. كان الذكر لا يعمل إلا الشر. لذلك جاء في نهاية النشيد أنها «تمطر النار على رؤوس الرجال» فالانحياز إلى جانب الأنثى واضح، وطبيعة توزيع العمل في المجتمع الأمومي، يهيئ الظروف ليكون الذكر، مثل ذكر النحل، عديم الفائدة، بل ليكون مؤذيا مفسدا. طبعا سيكون كذلك ما دام بلا عمل.

وحارت ربات البانثيون بهذا الرجل المتعب العاطل المفسد المدمر، ماذا يفعلن به؟ وقد سمحت إينانا بالوأد حتى يتخلص المجتمع مما يرهقه.

هكذا كانت إينانا، قبل أن تتحول وتهاجر (انتشرت في كل بلدان الشرق الأقصى) ربة العنف الذي يبيد الرجال حتى لا يفسد المجتمع. أما ليليت فكانت ربة المهد الحنونة الناعمة الهادئة التي تبتكر الأغاني الشجية الهادئة حتى تأتي بالأحلام المريحة والسلام إلى داخل النفس فيشيع الحب في أرجاء البلاد. . . هكذا كانت قبل التحول والهجرة.

الخلاف بين إينانا وليليت

إينانا وليليت نموذجان لسياستين أو تصرفين مختلفين تجاه التطورات التي أدت إلى سيادة الذكر على إدارة المجتمع. من أهم هذه التطورات ظهور

بطلين حضاريين وهما الثور والحصان. وقد عرف الذكر كيف يستفيد منهما، بل إن الحصان لم يجلب له السيادة على الأنثى فقط، وإنما أنشأ له الإمبراطوريات الواسعة، فجلب له السيادة على البقر والأرض والمرعى والماء والبشر. بعد ظهور الحصان كأداة للغزو بمئات السنين فقط ظهرت الإمبراطوريات، وتراجعت ظاهرة المدينة / الدولة، بل اختفت.

سارت إينانا مع التطورات الجديدة وتعاونت مع الرجل، وراحت تمارس الزواج الجديد الذي أخذ يحل محل الزواج المقدس. فتزوجت من عدة آلهة (رجال). بل إن بستانيا اسمه شوكال إتوادا يضاجعها وهي نائمة. وبدلا من أن تنتقم من الرجال أرسلت ثلاث مصائب على البلاد: تفيض الآبار بالدم، والسيول تجرف سومر، والعواصف تقتلع الشجر. وتستخدم الحصان أيضا، فهناك نقش حجري تظهر فيه عشتار (وهي الربة التي توحدت فيها) وهي عارية، إذ لم تكن تعرية الجسد قد أدينت في التقاليد الذكورية بعد.

هناك محاولة تدل على نزعتها النسوية وهي أنها أرادت أن تعيد السلطة إلى يد المرأة. كانت ألواح القدر (السلطة المطلقة) بيد إنكي وهو إله ذكر كبير جدا. حلت إينانا ضيفا فاستقبلها واشتهاها، فسقته خمرا. وتطلب منه ألواح القدر فيمنحها هذه الألواح، فتحملها وتغادر المدينة (إريدو). وبعد أن يصحو إنكي يبحث عن الألواح فيطلعه وزيره إسيمو على ما فعله مع إينانا بعد أن فعلت الخمرة فعلها، فيرسل العفاريت إلى المحطات السبع وتنجح إينانا في سرقة الألواح وتصل بها إلى أوروك. ولكن ماذا في أوروك؟ أيضا سلطة الرجل فقد كان جلجامش قد وطد حكمه وفرض سيطرة شبه مطلقة، وعادت الألواح إلى يد الرجل. لم يكن حاكم أوروك قد وصل إلى مرحلة الألوهية الذكورية الكاملة مثل إنكي حاكم إريدو، ولكن نقل الألواح إليه يعني أن المدينة بدأت تنافس بقية المدن، وأن السلطة الذكورية قد سادت فيها. إن إينانا التي كانت سيدة مطلقة في البانثيون السومري صارت

مجرد شريكة، فصارت ربة للحرب والفتن والتدمير وربة للجنس حتى بعد أن بدأ تخلى المجتمع عن الزواج المقدس.

تختلف سياسة ليليت اختلافا كبيرا عن سياسة إينانا. ليليت لم تساوم ولم تخضع. أصرت أن تكون تربية الأولاد من نصيبها (نصيب المرأة، وهذا ما أخذت به اليونان فيما بعد) وليس من نصيب الرجل. كانت ليليت تدرك أن السلام الذي يعم الأرض هو نتيجة لتربيتها، فتخشى أن ينتزع الرجل من المرأة ملكية الأولاد فيربيهم على الحرب والفساد، فيزول السلام وتبدأ البشرية عصر القلق والخوف.

تمسكت ليليت بحقها، ولكن السلطة كانت قد تحولت بالتدريج إلى الرجل. وكان أمثال إينانا الراضخات أكثر بكثير من أمثال ليليت المتمردات. ودار الصراع بينها وبين إينانا التي أرادت أن تغير وظيفتها، فرفضت ليليت أن تترك المهد للرجل. وكان جلجامش يريد مزيدا من السلطة، أي مزيدا من الذكور المقاتلين، فغضب من ليليت التي تربي الطفل على الحنان والحب والسلام. إنه يريد مقاتلين، ويريد أن تقوم بتلقين الصبي أناشيد القتال لا ترنيمة المهد المحبطة ولا أغاني الحب البليدة. إنه يريد «رجالا».

انسحبت ليليت من «المدينة» وأدركت أن الهيمنة باتت في يد الرجل. واتخذت ضفاف الفرات مسكنا وراحت تصنع المهود المريحة للأطفال من شجر الصفصاف الحزين، فسلطت عليها إينانا الوحوش وطلبت من جلجامش أن يطردها. ودار صراع مرير بينهما إلى أن أفلح في طردها. وعندما سألته إينانا عن مصيرها أجابها بأنها هربت إلى الأماكن المهجورة والخرائب في الصحراء.

إن تربية ليليت حسب المفهوم الجديد للرجل تعني «قتل الطفل» وليس «إعداده» حتى يكون رجلا أي مقاتلا. ومنذ ذلك الوقت صار لقبها قاتلة

الرجال وخانقة الأطفال. وبالطبع سوف نرى كيف أن ملامحها ورموزها تغيرت بعد أن غيّر المجتمع موقفه من تربية الأطفال. صارت لها رموز في منتهى القبح والبشاعة. وأشيع عنها ما أشيع.

بيد أن هذه الأشياء سوف تأتي فيما بعد. لنبحث الآن عن الأسباب.

أسباب الخلاف

يقال إن الغيرة بين المرأة والمرأة هي أشد أنواع الغيرة. إنها غيرة قاتلة. وقد كانت إينانا تغار من ليليت إلى آخر حدود الغيرة. فكانت تطاردها أينما سمعت بوجودها. والأماكن التي سكنتها ليليت كثيرة: الأدغال والغابات وضفاف الأنهار والكهوف والمغاور والخرائب والأماكن المهجورة ومفارق الطرق. قيل إنها لا تظهر إلا ليلا ولكنها صارت تظهر ليلا ونهارا حسب كثير من الروايات. وكل مسافر لا بد أن يحمل تعويذة تقيه خطر ليليت وإغوائها.

سلطت إينانا عليها كل الرجال أصحاب السلطة ولاحقتها لا لشيء إلا لأنها تغار منها. وسبب الغيرة أن ليليت، رغم كل هذه التحولات ظلت معبودة الأمهات اللواتي رحن يرسمنها على شكل يد في راحتها عين برموش طويلة، ويعلقنها على المهد وفي الأعناق وفوق الأعتاب لتحميهن وتحمي أولادهن.

في رأي نصيرات ليليت تعتبر إينانا خائنة جنسها، ويتهمنها بالكذب، فقد رضيت بمضاجعة البستاني، ثم غضبت عليه وانتقمت من البشر. والوظيفة الجديدة المتعددة الجوانب التي زجت بها إينانا نفسها هي التي دفعتها إلى اتخاذ هذا الموقف من ليليت المخلصة لبنات جنسها، والتي لم تتنازل عن حقوقها. كانت وظيفة إينانا متعددة ولكن أوجه هذه التعدد كان متضاربا، فأحيانا تحن إلى نسويتها فتثور ضد الرجال وأحيانا ترضخ للرجال وتنفذ أوامرهم، وأحيانا تتنازل عن الزواج المقدس وتصبح عاهرة طريق،

وتترك نفسها على سجيتها كأنها لا تعرف ماذا تصنع، فأحيانا تضاجع الآلهة وأحيانا تضاجع البستاني. ولكن تظل رغم كل هذا التعدد ربة للحب والحرب والجمال. وكما هاجرت ليليت هاجرت إينانا وربما كانت أفروديت خير من يمثلها عند اليونان كما أن فينوس عند الرومان لا تختلف عنها أبدا فقد كان برفقتها ربان كبيران: مارس رب الحرب وكيوبيد رب الحب. فحين يكون الجمال يقع الحب وتنشب الحرب.

عندما يغير المخلوق موقفه تتغير عواطفه. وهذا ما حدث لإينانا. وقد اتخذت هذه الربة أوجها أخرى وقامت بوظائف أكثر بكثير من ليليت. كانت أقدر على المساومة وملاينة الذكور والتنازل لهم عن بعض أو كثير من حقوق الأنثى.

ليليت وإينانا نمطان من الأنماط الأنثوية المتعددة أو الكثيرة. وسوف نرى أنهما بعد أن هاجرا من سومر إلى أكاد فبقية البلدان، يقومان بما قامتا به في سومر القديمة، فظلت ليليت على ما هي فترة طويلة وبقيت إينانا المساومة الكبرى والسياسية التي تحاول التوفيق بين مصالح الأنثى ومصالح الذكر. ولكن ليليت هي التي بقيت حتى العصر الحديث متمسكة بحقوقها، فظلت خالدة عند بنات جنسها، بينما سياسة إينانا الانتهازية أودت بها.

ولكن من يدري؟ فقد تكون سياسة إينانا هي التي ضمنت استمرار المجتمعات.

الموقف الجديد من ليليت

لا يمكن أن يدع أهل أوروك ليليت تقتل «الرجولة» بتربيتها المسالمة. وإلا فإن أوروك لن تنافس إريدو وبقية المدن في القوة وحيازة الملكية والهيمنة على الأقنية والزراعة. لقد تحولت الملكية من ملكية شخصية إلى ملكية خاصة، من ملكية تسد الحاجة والضرورة إلى ملكية همها المزيد من الاستيلاء والغزو إلى ما لا نهاية له. إنها ملكية جديدة لا تعرف الشبع ولا

تقف عند حد. صار الحصول على «جيش» ضرورة أهم بكثير من بقية الضرورات.

أطلق اسم ليليت على الليل أو الليلة. ولكن بعد التطورات الطارئة وقيام السلطة الذكورية صار الاسم يدل على العكس مما كان يدل عليه. فهي ليست مربية الأطفال الليلية بل خانقتهم الليلية، وليست محبة للرجال بل قاتلة لهم. كان مردوخ الإله الجديد القوي قد تخلص من تيامات الأم الكبرى، وشوه اسمها، فبعد أن كانت تعني مياه المحيط التي منها يخرج كل حي صارت تعني التنين الذي يخرج من المياه ويفترس الرجال. إن الربات هوين عن عروشهن، ومن بقي منهن على العروش فعلن ما فعلته إينانا وليس ما فعلته ليليت وتيامات من التمرد والتمسك بالحقوق الأنثوية.

وكما صارت تيامات وحشا مخيفا يجب قتله، صارت ليليت تعني العفريتة التي تخنق الأطفال وتقتل الرجال تجب مطاردتها. وكان لا بد من ذكر لها فظهر اسم ليلو Lilu ليدل على العفريت الذي يساعد ليليت في خنق الأطفال وقتل الرجال. وقيل إن ليليت وليلو لم ينجبا أطفالا كزوجين فطفقا ينتقمان من أطفال البشر، وقيل غير ذلك، بأنهما رزقا جنا وعفاريت.

وظيفتان متناقضتان

بعد أن تمت السيادة للرجل لم تعد ليليت ربة مهد. ولم تعد تهبط من البانثيون كل ليلة لتهتم بالمهود والأطفال، حسب رأي الرجال. تربيتها لينة أنثوية تقتل الأطفال ولا تناسب الأوضاع الجديدة. ولكن ليليت ظلت موجودة على الرغم من طردها. ما تزال في أذهان بعض الرجال ومعظم النساء، فماذا عسى يفعلون بها؟ لا بد من تشويه سمعتها، فزعموا أنها «هربت» إلى الصحراء تستوطن الخرائب وتكمن في مفارق الطرق المظلمة. وهي تكمن منتظرة مرور رجل فتتعرى وتغني بصوتها الرخيم الساحر الذي كان ينقل الطفل إلى ديار الأحلام السعيدة، فصار ينقل الرجل إلى حتفه. فما إن يراها

حتى يذوب عشقا بها (ومن هنا أطلقوا عليها اسم عاهرة الطريق بعد أن قضى الذكر على الزواج المقدس، وصارت الراهبات ينتشرن على الطرقات. فكلمة عاهرة الطريق تدل على الذم والاحتقار) فيلحقها إلى الأماكن الخربة، وهناك، بعد موقف غرامي تلف شعرها الأسود الطويل، الناعم جدا والقوي جدا على عنقه وتقضي عليه. إن ربة النعومة والأنوثة ظلت في أذهانهم مخلوقا جميلا جدا ولكنه خطير جدا، فلا هم لها إلا القضاء على الذكور انتقاما. فمهمة ليليت انحصرت بالأذى فقط، من دون أن يذكروا كيف كانت تعمل قبل ممارسة هذا الفعل الشنيع مع الرجال.

أما طريقة قتلها الأطفال (الذكور طبعا) فتكون بإغراء الطفل بلعبة جميلة والصداح له بأغنية المهد الناعمة. وكل طفل ذكر يمر قرب تلك الأماكن المهجورة لا بد أن يقع في حبائلها. يكفي أن يصغي لصوتها الناعم الساحر، حتى ينقاد ويغفو بين ذراعيها، فتلف على عنقه شعرها وتخنقه. وإذا استطاعت التسلل إلى المنزل (غير المحفوظ بحرز) فإنها تخنقه في المهد...

قيلت شائعات كثيرة. منها أنها تقتل الأطفال بأظفارها الطويلة تغرزها في عنقه، وقيل في سرته. وقيل إنها لا تقتل الرجل إلا بعد أن تفحش معه. أقاويل كثيرة كانت تسير مع ليليت حيثما تسير.

وإمعانا في محاربة ليليت اخترعوا تعاويذ خاصة تمنعها من الاقتراب من أبواب البيوت مساء (لأنها مرتبطة بالليل والمهد) أو من الأولاد، فكانت هذه التعاويذ تعلق في عنق الولد أو فوق عتبة الدار.

كان هذا عند الرجال الذين هيمنوا على المجتمع. ولكن النساء بقين، في معظمهن، على عهدهن في الإخلاص لليليت. كن يسمينها ليليت العين الساهرة على الطفل. وما العين التي ترسم وسط راحة الكف سوى رمز للرعاية (العين) والعناية (اليد) أي ما كانت تقوم به ليليت. وما نزال نرسم هذين الرمزين حتى اليوم. وبعد أن طردت من هذه الوظيفة فمن هن أيضا

بتعاويذ ولكنها تعاويذ مضادة لتعاويذ الرجال. إنها تعاويذ خير ومحبة. إنها تعاويذ لإرشاد ليليت إلى مكان الطفل حتى تكون عينا ساهرة عليه، ويدا راعية له، وحتى تأتيه بأحلام المحبة والسلام.

كانت تعاويذ الرجل فنية مزخرفة، فقد كانت الزخرفة والطبخ والتطريز أهم أعماله في المجتمع الأمومي. كانت ملونة ومرسومة بدقة. أما تعاويذ النساء فكانت بسيطة وبدائية جدا، لجهلها بهذا الفن، بل الفنون. بعضها كان عبارة عن كلمتين فقط: يا ليل يا عين. أي هنا يرقد الطفل فتعالي إليه يا ليليت وكوني عينا ساهرة واحفظيه من أحلام الرجال الشريرة. وبعضها كان عبارة عن عين برموش طويلة جدا، وهي الرموش التي اشتهرت بها ليليت. العين مفتوحة تماما وحدقتها متسعة (من ضرورات الرؤية الليليـــــة) وقد بدا القلق على الخطين اللذين يرسمان الجفنين. وقد انتشرت هذه العين في كل آداب العالم تقريبا، وربما شاعت في مصر (عين حورس) أكثر من غيرها. إنها عين ليليت التي لا تنام، لترعى طفل المهد.

حول العين يكون سواد دامس، بحيث تظهر العين كأنها الوحيدة الساهرة في الليل. وأحيانا يرسم هؤلاء النسوة، أو الماهرات منهن بالرسم (إن كان منهن ماهرات في تلك الأيام بهذا الفن الذي كان حكرا على الرجل يتسلى به ليلا نهارا، فلا هم ولا عمل ولا أحد يطالبه بشيء)، العين في وسط اليد. والرمزان: العين لرعاية ليليت واليد لعنايتها. وما زلنا حتى اليوم نرى في وسائط النقل العربية والإفريقية رسما لليد والعين في راحتها معلقة فوق رأس السائق. يبدو أن الحماسة جعلت نصيرات ليليت لا يستدعينها في الليل وحده، بل أيضا في النهار وفي كل الأوقات، والأرجح أن يكون هذا الرسم شائعا ليس في أكاد وحدها، بل في سومر القديمة أيضا، أو في أواخر العهد السومري، أي في الألف الثالث قبل الميلاد. ولم يشع هذا الرسم/التعويذة وحده بل شاعت الأغاني النسوية التي تناشد ليليت أن تكون العين الساهرة على الطفل (يا ليل يا عين) فقد شعر النساء أن أبناءهن يتخلقون بعادات

الرجال من عدوان وغزو واستيلاء على الملاك البعيدة عن المعبد وعن قنوات الري. صرن يتشككن في نية الرجل، وفي هذه المغامرة التي يقوم بها بعد أن حوّل الحصان من حيوان للجر إلى حيوان للحرب، فقد أسس الإمبراطوريات فيما بعد بواسطة هذا الحصان. وكلما ازداد الرجل انتصارا واجتياحا تعلقت النساء بليليت، بالعين الحارسة التي تربي الأطفال تربية مغايرة.

كيف توحدت ليليت مع لاماشتو

كانت لاماشتو شيطانة فيها روح نجسة، تنتظر الولادات الحديثة فتنقض على الطفل قبل يومه الأربعين وتذبحه، ثم ترحل مع الريح. قيل إنها تذهب مع الريح الشمالية، كأن أصلها من الشمال، تأوي إليه لتحمي نفسها من بقية الأرواح. وكانت تهوى الأطفال الذكور فتعمل على خنقهم. ومن وظيفتها الشيطانية نعرف أنه لا علاقة لليليت بها. ربما كان تشابه الاسمين: Lilith و Lamashtu سببا في التوحيد. ولكن الأرجح أن المجتمع الذكوري المتنامي والمتعاظم لا يترك شيئا من دون أن يستفيد منه ويوجهه لصالحه.

لاماشتو هي نقيض ليليت في وظيفتها الأساسية. والمعروف أن مدة الأربعين يوما تكون المرحلة الخطيرة بالنسبة للوالدة والمولود معا. وبما أن ليليت لا يمكن أن تكون – وهي ربة مهد بالأساس – مقترفة هذا الذنب، في خطف الولد والقضاء عليه، أو القضاء على الأم، فإن النقيض المقابل هو من كان يقوم بذلك. وهذا النقيض هو لاماشتو، حتى تقف في وجه ليليت وتنتزع منها الأطفال المولودين حديثا، أو المرأة التي ولدته، خلال أربعين يوما. ومن هنا كانت الصلوات لليليت لا تنقطع من المجتمع الأمومي طيلة هذه المدة حتى تحفظ النسل وتربي الأطفال. ولكن بعد تحول المجتمع وخضوعه لسيطرة الذكر زعموا أن ليليت هي لاماشتو. فهي التي تخنق الأطفال، ولا فرق بينها وبين لاماشتو سوى أن ليليت مغاوية للرجل تستدرجه إلى الأماكن المهجورة وتقضي عليه.

ليليت بأجنحة الملائكة

الكلمة السومرية Lilitu مؤنث Lil أو Lilu ومعناها الريح. وقد صارت تطلق على الليل. والكائنات الروحية هي التي تخلق من الريح، أي من الهواء، حيث يتم التلقيح مثل غبار الطلع. وقد ظلت هذه العقيدة تظهر في معتقدات الشعوب. ففي العصور الوسطى، وفي حكايات الملك آرثر نجد شيئا من هذا. فالفارس ميرلن مخلوق هوائي، ولذلك ظهرت منه المعجزات والأفعال العجائبية والتنبؤ بالمستقبل (عدا التنبؤ بمصيره) وكان واحدا من فرسان المائدة المستديرة.

لم تكن ليليت روحا شيطانية، لأنها جميلة جمالا أخاذا، تلك السمراء بشعر فاحم طويل. كانت روحا ملائكية تدل على ذلك تلك النقوش التي تجعل لها جناحي ملاك. ولم تظهر لها صورة قبيحة الوجه إلا في العهد الفارسي المتأخر.

لكن السومريين الذين راحوا ينتقلون إلى المجتمع الأبوي أرادوا الخلاص منها وتشويه سمعتها فنسبوا إلها كثيرا من التهم. ظلت تظهر بأجنحة ولكن صارت تظهر بومتان إلى يمينها وشمالها ويقعى خلفها وحشان ضاريان، وأحيانا غير ضاريين. بقيت معالم وجهها وجسدها في أبهى مظهر وأجمل خلقة عرفها السومريون. لم تشوه هذه المعالم إلا في العهود المتأخرة. كانت جميلة جمالا باهرا.

التشويه الذي أصاب ليليت جسدا وروحا وأفعالا يرجع إلى المفاهيم الجديدة التي تنحاز إلى جانب الرجل. وقد كانت الربة إينانا متأرجحة بين الإخلاص لأنوثتها وبين الرضوخ لمطالب الموجة الجديدة العاتية التي تريد أن تنتزع الحقوق من المرأة. وبالأخص حق ملكية الأولاد. وبدأت بالفعل كلمة "ابن فلان" تحل محل «ابن فلانة» في الآداب السومرية المتأخرة، وعلى الأخص في الثيوغونيا.

وقد يكون أمثال إينانا عددا لا بأس به في المجتمع السومري، ولكن المرأة السومرية ظلت حريصة على صورة ليليت الملائكية، وعلى تقاليدها في تربية الطفل على السلم والمحبة. وحتى اليوم نطلق تعبير «تربية نساء» على الفتى المهذب الأنيق اللطيف الميال إلى الأسلوب الهادئ السلمي. نطلق عليه هذا التعبير ذما لا مدحا، كأننا نتخذ موقف السومريين المحاربين الذين ألحوا على إنتاج شبان مقاتلين لا مهادنين ومحاربين لا مسالمين. حتى اليوم نريد الشاب أن يكون مقتحما «غير هياب» مع بقية الصفات التي رسمها المجتمع البطريركي للشاب السومري. آلاف السنين مرت وما زلنا نحمل الإرث السومري الذكوري.

ولكن إلى جانب مفهومنا الذكوري ظلت حفيدات ليليت مخلصات للتقليد الليليتي، فلا يربين الطفل إلا على السلام والمحبة. هل هي مورثات في التكوين الجسدي؟

ومن هنا ظلت ليليت في مخيلة المرأة السومرية، امرأة ربة هيولية ناعمة رقيقة تأتي في الظلام لتشرف على تربية الطفل. وقد أطلقن اسمها على الليل وليس العكس. والمدهش أن الأسماء التي تستخدمها المرأة اليوم من أمثال ليال وليلى وليلي ولولا ولوليتا ولوليت... ترجع إلى الأيام السحيقة قبل آلاف السنين وكلها تشير إلى ليليت التي أطلقن اسمها على الليل أو الليلة.

ظلت الأجنحة ترافق صورة ليليت حتى العصور المتأخرة. وقد لعبت المانوية دورا كبيرا في الحفاظ على الصورة الجميلة لليليت. كان ماني رساما ماهرا فجعلها ممثلة للخير وجعل حواء ممثلة للشر، كما سوف يأتي في مكان آخر.

ليليت والشجرة والأفعى والأنهار

لا توجد قصة للخلق إلا كان فيها شجرة. والشجرة تجسيد للأنثى. إنها شجرة الحياة. وقد عبدت باعتبارها أنثى. وعندما ظهرت الأديان الذكورية جعلت كل دأبها القضاء على عبادة الشجرة. حاربت اليهودية عبادة «عشيرة» وكانت عشيرة عبارة عن شجرة أو عمود من شجرة تقدم له القرابين. وكان الفلسطينيون يتمسكون بعبادة عشيرة إلى أبعد حد. وكانت النسوة اليهوديات يشتركن في أعياد «عشيرة» بل في أعياد تموز، ابن الربة الذي قتل وذهب إلى العالم الآخر، ويلطمن خدودهن مع الفلسطينيات، على موت ابن الربة الوحيد. وعلى الرغم من محاربة الذكور لهذه العادة، استمرت النساء يمارسنها خلسة، فيذهبن متخفيات بحجة أو بـأخرى ويشاركن فـي الاحتفال بـ «عشيرة» أي الشجرة، مهما كان نوعها: تينة، جميزة، تفاحة، سروة، صفصافة...

عبادة الربة ترافقت مع الشجرة والأفعى، الشجرة لاستمرار الحياة والأفعى للشفاء. وقد كانت إينانا نفسها، قبل أن تخضع للمفاهيم الذكورية، ربة أفعى وربة شجرة. وكانت وقتها رمزا للأمن والمحبة والشفاء، وليس العنف والغزو والحرب. كانوا يرفعون لها الصلاة، وقد توحدت بعشتار، ضارعين أن تشملهم برعايتها:

إلى تلك التي بيدها الحسم،
ربة كل الأشياء، إلى سيدة السماء والأرض
التي تتلقى الضراعة، التي تستمع إلى الشكوى،
التي تبتهج للصلاة، إلى الإلهة الشفوقة،
التي تحب الحق، عشتار
الملكة التي تزيل كل اضطراب.

إلى ملكة السماء، ملكة الكون،

الملكة التي سارت في العماء المخيف فخلقت الحياة

بقانون المحبة، ومن العماء،

خلقت الانسجام،

ومن العماء أمسكت بيدنا وأرشدتنا.

وبما أنه لا حياة بلا أنهار، فلا بد أن يكون ثمة نهر أو أكثر. إن كل الربات الإناث ولدن من مياه المحيط أو من الهواء السديمي الكوني المشبع بالماء. فلا بد أن تهتم الربة بهذه الأمور الثلاثة. وبالفعل ظلت هذه الأمور مرافقة لكل جنة وفردوس في المخيلة البشرية.

لا يهم نوع الشجرة أو نوع النهر أو الأفعى، وإنما المهم توافر هذه الأشياء من أجل الطعام (الشجرة) والشراب (النهر) والشفاء (الأفعى والأصح أن يقال الحية) وقد كانت الربات القديمات يظهرن دائما بذنب أفعى قرب شجرة بجانب محيط أو نهر.

لكن خضوع الربة إينانا لمفاهيم الرجل أدى إلى الاضطراب في تصرفاتها، وإلى غيرتها غيرة قاتلة تجاه ليليت، التي بعد أن طردها المجتمع من وظيفتها كربة مهد، ذهبت بأفاعيها إلى ضفاف الفرات. وهناك بين أشجار الصفصاف ربت الأفاعي ولقحت بسمها الأشجار لتكون مفيدة شافية، وكان مستخرج الصفصاف مستخدما ضد الحمى وأشياء أخرى. وسعت إلى صنع المهود للأطفال من هذه الأشجار، لكن الغيرة دفعت إينانا إلى طردها من هذه المنطقة. استعانت بجلجاميش حسب اللوح السومري الذي يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، فتحت عنوان «جلجامش وشجرة الصفصاف» نسمع قصة طريفة وهي أن ليليت استولت على شجرة صفصاف إينانا ودنستها بأفاعيها (كانت الأفاعي قد غدت رمزا للشر) فلم تعد هذه الأشجار تثمر. ولا بد أن يهرع جلجامش لتلبية نداء إينانا بعد أن رضخت للمفاهيم الذكورية

الجديدة، ويطرد هذه «الشيطانة» الليلية إلى البراري والقفار، وينقذ شجرة الصفصاف على ضفاف الفرات من دنسها وسم أفاعيها، بعد أن صار للأفاعي مفهوما جديدا. فلم تستطع أن تقاومه والرجال الذين معه. وتمكن جلجامش مع جنده من طردها بعد أن استمر طويلا في محاربتها. وعندما سألته إينانا عنها قال إن مسكنها صار في الخرائب والأراضي المهجورة تعيش مع البوم ووحوش الليل. وطول المعركة دلالة على أن ليليت تتمتع بمكانة رفيعة في أفئدة النسوة الحزانى على ما أصابها وأصابهن من تبدلات.

منذ ذلك الوقت بدأت صورة ليليت تتشوه عن طريق الشائعات التي يطلقها الرجال، فقيل إنها تحتفظ بالأفاعي، وقيل إن ساقيها مغطيان بالشعر الطويل، حتى أن الملك سليمان، عندما استقبل ملكة سبأ التي كان الشعر يغطي ساقيها، ظن أنها ليليت ذاتها. وقد سعت الشائعات ليس إلى تغيير صفات ليليت وحدها، بل أيضا بقية الحيوانات. فالأفعى رمز الشفاء صارت رمز الفناء والعقم والبومة رمز الحكمة صارت رمز الخراب والدمار. وصارت المسكينة ليليت تظهر دائما مع بومتين إلى جانبيها رمزا للخراب، وكذلك مع وحوش مفترسة لتخويف النسوة والأطفال منها.

كل ما كان مقدسا صار مدنسا بحسب المفاهيم الجديدة للرجل، فالشجرة رمز الخطيئة وليليت قاتلة الجنس البشري (الذكري خاصة) والأفعى ليست سوى شيطان أو إبليس يغوي ويحض على الخطيئة، والبومة شؤم ونذير دمار... وهكذا.

لم تستطع كل هذه المحاولات أن تقضي على المعالم النبيلة والقديمة لليليت. حاولوا كثيرا أن يجعلوا الأفعى رمزا للقضيب. وقد انساق وراء ذلك علماء وباحثون عدة. ولكن وجه الأفعى القديم ظل رمزا للحياة والشفاء، نراه في واجهات الصيدليات وفي شعار الأطباء، وعلى إعلانات شركات الأدوية ومغلفات الأدوية. آلاف السنين من الحملة الشديدة لم تستطع أن تقضي نهائيا على المدلولات الأساسية لهذه الرموز.

ليليت: أمازونة أم سيرينة؟

تعرضت ليليت لحملة تشويه كبيرة. فقد جعلوها جنية ليلية مخيفة، وجعلوا في ساقيها شعرا شعرا مثل شعر الماعز، وجعلوا شعرها الطويل أداة لخنق الرجال بعد أن كان تسلية بيد الطفل وهو يغفو في المهد.

ولكنهم في حملتهم هذه اقترفوا كثيرا من الأخطاء. فمن جهة يشوهون صورتها ومن جهة أخرى يزعمون أنها تغاوي الرجال للمضاجعة فيهفون إليها، ولا يمكن لقوة أن تردعهم أو تمنعهم عن التهافت عليها. يسمعون صوتها الرخيم فيذوبون شوقا ويرون جمالها الساحر فينجذبون عشقا. وهيهات أن يتغلب أحدهم على أي من هاتين الغوايتين.

إن هذا الموقف الذكوري المتناقض ما يزال قائما حتى هذه الأيام، فدائما يهفو الرجل إلى المرأة مجذوبا بقوة سحرية، ودائما يضع اللوم في كل شيء على المرأة، من المطبخ حتى ميدان الحرب. وهو موقف لم يتغير على الرغم من كل تلك التغيرات التي تراكمت عبر العصور الطويلة.

إن جعل ليليت قاتلة الرجال يذكرنا بالأمازونات اللواتي كن ينعزلن في مجتمع خاص بعيدا عن مفاسد المجتمعات الذكورية، وكن يقتلن الأطفال الذكور تخفيفا للعبء وتقليلا من المفاسد التي تصدر عن الذكر. كان المجتمع الأمازوني أشبه بمجتمع النحل حيث لا عمل للذكر سوى التلقيح، يقتل بعد ذلك أو يطرد.

وجعل ليليت قاتلة للرجال يذكرنا أيضا بالسيرينات اللواتي كن في جزيرة نائية في البحر، كلما مر البحارة من جوارهن رحن يغنين بالصوت الشجي الساحر فلا يستطيع بحار أن يقاوم هذا الصوت الملائكي النوراني، فينزل في الجزيرة وتغاويه السيرينة وتقتله بعد المضاجعة.«أوليس» وحده لم يضع في أذنيه شمعا. كان يريد أن يسمع صوتهن، فأمر بحارته بتكبيله إلى السارية وبوضع شمع مضاعف في آذانهم، فلا يسمعون صوتهن ولا يسمعون

أيضا أوامره. وحسنا فعل فلو لم يكن الشمع مضاعفا في آذان البحارة لكانوا سمعوا أمره بفك الحبال عنه، ولكان ركض نحو جزيرة السيرينات، وربما صحبه بحارته، وهناك تكون نهاية رحلته الطويلة، وليس في إيثاكا.

لم تحمل ليليت سيفا ولا رمحا ولم تمتط صهوة حصان، ولم تفعل شيئا مما فعلته الأمازونات. فثمة فروق عديدة:

١ – ليليت تمثل مرحلة والأمازونات يمثلن مرحلة مختلفة. ليليت قديمة، بل ربما أقدم «أمازونة» في العالم. أما أمازونات البحر الأسود فإنهن يمثلن مرحلة حديثة. والأحدث منهن أمازونات البرازيل اللواتي حاربن غزاتهن حربا ضارية، بالقوس والنبال وبالسيف والرماح، فأبادهن الغزاة بالنار والبارود. وكل مرحلة لها ما لها وعليها ما عليها.

٢ – أسلوب ليليت في النضال لاسترجاع حقوقها في ملكية الأبناء وتربيتهم هو الأسلوب الخفي، فهي دائما متخفية تسعى إلى تحقيق أهدافها بما لها من سلطة أنثوية. إنها صاحبة فنون وجمال. صوت ولحن ووجه جميل وقوام مثلما يحلم الشعراء وشعر طويل مازال مضرب الأمثال.

أسلوب الأمازونات مختلف. إنه يعتمد على المواجهة. هاجمن المدن بعد أن طردهن الذكر منها وبسط سلطته، وأوقع هذه الأسلوب فيهن مجازر كن في غنى عنها. إن كل ما بقي من الأمازونات هو الإخلاص لجنسهن والتمسك بحقوقهن. أما أسلوبهن فقد أثبت التاريخ أنه لم يكن أسلوبا مجديا. أما ليليت فإنها تعيش في رواياتنا ومسرحياتنا وموسيقانا ورسومنا الحالية.

٣ – تجتمع القدسية مع الدنيوية في ليليت، ولكنهما لا يجتمعان في الأمازونات. ومن هنا كثرت العجائبية والغرائبية في الأساطير المروية عنها. أما الأمازونات فإنهن أقرب إلى الواقع، أقرب إلى التراب والحياة المألوفة.. ليس فيهن من وصلت إلى مرتبة ليليت ولذلك قلّت جدا الأساطير المروية عنهن. ولولا بيلروفون لما وقعنا على مشهد عجائبي. إن الحصان المجنح بيغاسوس هو الوحيد الذي يقدم لنا العجائبية.

قد تكون سلالة الأمازونات متحدرة من السلالة الإلهية، من أمثال الأمازونات الليبيات، ولكن على الرغم من ذلك لم يصلن مرتبة ليليت. إنهن لم يدخلن عالم السر والخفاء، فبقين على أرض الواقع بينما دخلت ليليت ديار الجن وطافت أركان السماء، مثلما عاشت في الأرض على ضفاف الفرات وقرب المهود وفي الأماكن المنسية. عاشت كل العوالم، ولم تنحصر في الأرض وحدها. سوف نرى فيما بعد كيف كانت واحدة من ثلاث ربات عرفن اسم الإله.

على الرغم من هذه الفروق تظل ليليت شبيهة بالأمازونات من حيث النضال حفاظا على حقوق المرأة وعدم التفريط بها. أما بقية صفاتها فهي أقرب إلى السيرينات: الصوت الشجي والوجه الجميل والشعر الطويل ومغاواة الرجال وقتلهم، بعد الاستمتاع معهم... إن هذه الأنواع الثلاثة من النضال كانت متفاوتة في الجدوى. فنضال الأمازونات كان عنيفا وعنيدا وغير متأن. كان عنفا غاضبا أكثر مما كان عنفا «ثوريا» كما يقال في هذه الأيام، أي لم يكن يضع في اعتباره طريقة الوصول إلى الهدف البعيد بالخطوات القريبة البطيئة. أما نضال ليليت والسيرينات فكان يتسم بالهدوء وفيه خبث ودهاء. وهذان أسلوبان ما زالا متبعين حتى اليوم في النظريات والممارسات السياسية.

ليليت والفن القديم

في بداية تحول المجتمع من سلطة المرأة إلى سلطة الرجل ظهرت ليليت وهي تجمع بين الصفات القديمة الخيرة والصفات التي فرضها الذكر وهي صفات شريرة مدمرة، في مقدمتها قتل الذكور. فكانت تظهر بأجنحة ملائكية. وكان وجهها جميلا مشرقا رائعا يبدو عليه التفاؤل، فكانت تبسط ذراعيها كأنها توشك أن تضم طفل المهد الذي حرمت منه إلى صدرها. ولكن إلى جانب ذلك بدأت البومة تظهر إلى جانبها في محاولة للإيحاء بأن ليليت لا تختلف عن صديقتها البومة، فكلتاهما رمز الدمار والخراب. كانت اليمامة رمزا للمرأة وبحلول السلطة الذكورية حلت البومة محلها.

بعد ذلك بدأت الوحوش تظهر إلى جانب ليليت. وهي طريقة لجأ إليها الفنان لوقف الشعبية التي تتمتع بها هذه الربة، وبالأخص عند النساء. وفي تلك الأيام كانت فكرة «العدوى بالجوار» أو المعاشرة أو الملامسة هي الشائعة نظرا لاعتقادهم بالسحر. إن الفنان لم يمس جمال ليليت ولم يشوهها، لا في الوجه ولا في الجسد، ولكنه اكتفى بجعلها بين البوم والوحوش، وفي اعتقاده أن ذلك يجعل الناس تنفر منها، مقتنعين أن ليليت ليس سوى ساحرة شريرة (جميلة أيضا، فلم يكن الساحر في تلك الأيام قبيحا بالضرورة كما يصور اليوم) تبسط سلطتها على طيور الشؤم وسباع البرية. فيكفي أن ترسل بومتها إلى أي دار حتى تجلب لهـا الدمار، وإلى أي مخلوق حتى تجلب له التعاسة. ويكفي أن تطلق سباعها حتى تبيد أعداءها.

رغم ذلك ظلت ليليت تحمل معالم الربة: وجه جميل وقد ممشوق وحوض منبسط (رمز الأنوثة المثمرة) ونظرة حنان كأنها أمام طفل تحنو عليه. كل ما فيها كان يدل على أنها ربة. تركها الفنان كما هي، ولكنه جعل حولها ما يشوه سمعتها. كان يظن أن الجمال لا يقدم ولا يؤخر، وإنما الرموز هي التي تتكفل بالإيحاء. واعتقد أنه بهذه الطريقة يؤدي الغرض.

لكن مع الأيام لوحظ أن الناس يتعلقون بها. فهناك نوع من النفاق الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم. لا يمارسه الحاكم وحده، بل أيضا يمارسه المحكوم. كان الخاضعون للسلطة لا يعلنون عن موقفهم من ليليت ولكن في الممارسة المنزلية كانت النسوة كلما هم طفل أن ينام تهدهد له بأغنية تستنجد فيها بليليت: يا ليل يا عين. فهي تنادي ليليت أن تكون للطفل ملاكه الحارس.

لكن مثل هذا النفاق الاجتماعي في الممارسة الخفية أو السرية لا يمكن أن يظل سريا. فكان لا بد – والحالة هذه – من أن يقوم الفنان بخطوة أخرى تطال جمال ليليت ذاتها، فصارت الرسوم القبيحة لليليت تظهر. وبالتدريج اختفى الوجه الجميل وصار وجه بومة. ونمت لها أظافر بعد أن تفننت الشائعات في تشويه سمعتها. فقد قيل إن لها طريقة أخرى في قتل الرجال

عدا عن لف الشعر حول العنق، وهي أن تغرز أظافرها الطويلة أثناء المضاجعة في الأماكن الدموية (العنق) حيث يفسد الدم ويموت الرجل. وبدلا من الأجنحة الملائكية انسدل كمّان عريضان جدا من معصميها وحتى عرقوبها وهو لباس كانوا يعتقدون أن السحرة الأشرار يرتدونه، فيحيطون به الضحية ويحجبون عنها الهواء فتموت. وعندما تشرع ليليت ذراعيها فإنها تفعل ذلك لا لتهب الحنان للطفل بل لتجلب له الموت، تماما كما يموت الإنسان في ضمة ساحرة. ثم صارت الحشرات تظهر في الصورة من عناكب وعقارب وما شابه ذلك، بل نجدها في إحدى الرسومات أشبه بعنكبوت تنتظر وقوع فريسة في حبائلها.

جرت هذه التحولات في الفن القديم ولكن في العصر الحديث يختلف الأمر اختلافا كبيرا فقد ظهرت ليليت مشرقة كربة مهد ما تزال أغنيتها أو موسيقاها تتردد في كثير من بلدان العالم تحمل اسمها lullaby (أنشودة المهد أو موسيقى المهد) مثلما ظهرت السيرينة في السيرنادة serenade ومثلما ظهرت الأمازونة في السينما. إن ليليت في العصر الحديث تظهر في الصحف والمجلات والروايات والمعارض وعلى شبكة الإنترنت (أكثر من ١١٧ موقعا) وعلى خشبة المسرح ربة حاكمة مسيطرة، ولكن بالمحبة والكرامة.

إن ليليت السومرية التي أقالوها من وظيفتها قرب المهد، وطردوها من ضفاف الفرات وحشروها في المقابر والوديان والغابات ومفترق الطرق والأطلال والديار الدارسة والكهوف... استطاعت بمهابة الربة المقدسة أن تنهض من خرائب سومر سليمة معافاة بوجهها المألوف وشعرها المعروف وزنديها الناعمين وإشراقها النوراني النابع من أعماقها، فلم يؤثر فيها شيء لسبب بسيط وهو أنها كانت مؤمنة بنفسها، لم تساوم ولم تتنازل ولم تتقلب ولم تخن ولم تمالئ.

الفصل الثاني

ملحمة الهرب من الجنة

الأوجه الجديدة لليليت

إن التحولات التي أصابت ليليت في سومر وأكاد أصابتها أيضا في الأقوام والأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية والمانوية، وعند اليهود والعرب والإغريق. والتحولات في خطوطها العامة واحدة. دائما تتحول الصفات إلى نقيضها فيغدو الجمال قبحا والخير شرا والتضحية أنانية... ولكن في التضاريس الخاصة لهذه التحولات تكون ثمة تعديلات لتكييف القصة وفق المقاصد الجديدة.

لقد ارتحلت ليليت من بلاد الرافدين، حتى قبل أن تصبح أمازونة تقبع في الأماكن الخربة والديار المهجورة وأعماق الوديان. ارتحلت بوجهها النقي الجميل وشعرها الطويل، قبل أن تتحول إلى بومة أو ما يشبه البومة من طيور الشؤم، وقبل أن يجعلوا الشعر ينبت على ساقيها بغرض تحويلها إلى وحش. لكن يبدو أن تعلق النساء بربة المهد كان جارفا وشديدا ولذلك ظلت صورتها جميلة عند بنات جنسها.

ليليت اليهودية

ما جرى من تجاذب، أو حتى صراع، بين النساء والرجال، بين الزوجات والأزواج في الفرات حول ليليت، جرى عند العرب والإغريق. فهناك دائما حزب إلى جانب ليليت معظمه من النساء، وحزب يعاديها أشد

العداء، معظمه من الرجال. لكن الواضح أن النساء اليهوديات، وإن رضخن فـي بعض المراحل لرجالهن، كـن مـن أخلص نصيرات ليليت في العالم الـذي طافـت فـيـه. ليس هـذا وحسب بل كانت تستعيد صورتها السابقة، صورة ربة المهد المتمردة على الذل. وقد كان للنساء اليهوديات سطوة كبيرة على رجالهن فيما يعبدن وفيما يقدسن، وكان رجالهن يعترفون بهذه العبادة، إن لم نقل أنهم كانوا يشاركون فيها. ونجد ذلك واضحا في سفر أرميا ١٤: ١٥-١٩:

«فأجاب أرميا كل الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يبخرن لآلهة أخرى وكل النساء الواقفات بحفل كبير وكل الشعب الساكن في أرض مصر، في فتروس، قائلين إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم الرب. بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزا وكنا بخير ولم نر شرا. ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب السكائب لها احتجنا إلى كل (شيء) وفنينا بالسيف والجوع. وإذا كنا نبخر لملكة السموات ونسكب لها السكائب فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكا لنعبدها ونسكب لها السكائب؟»

وهناك الكثير من النصوص أمثال هذا النص الذي يدل على الشخصية النسوية اليهودية المتمسكة بذاتيتها والمؤثرة في زوجها. لكن النص ينفرد تقريبا في المقارنة بين عهدين: عهد النظام الأمومي وعهد النظام الأبوي. فالأول كان عهد خير وبركة ومحبة وسلام. لا فتن ولا حروب ولا جوع ولا مرض. والثاني نقيض الأول فقد صار الناس يحتاجون إلى «كل» أي إلى كل شيء ضروري، أو إلى كل شيء كان متوافرا في عهد النظام الأمومي الذي كان يقدس ملكة السموات. وقد لخص الكاتب صورة هذا العهد بشيئين: السيف والجوع، أي الحرب والفقر. معنى ذلك أن عهد الأمومة لم يعرف لا سيفا ولا جوعا. فالتحول كان خطيرا جدا في الحياة اليومية. كان أخطر من

تحول ليليت، أو انحدارها من ملكة السموات إلى شيطانة ليليت تخنق الأطفال وتقتل الرجال، بل إن انحدار ليليت من مكانتها كان تعبيرا واحدا من جملة تعابير كثيرة وردت في الأدب العبري.

وعندما يقول النص «فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكا» يبين لنا أن جماهير الناس – كالعادة – كانت في واد، وكان أولو الأمر في واد آخر، وأن الديانة الذكورية، ديانة السيف والجوع، فرضت فرضا ولم تنبت في النفوس البريئة المتفاعلة مع الطبيعة. صارت هناك علاقات اجتماعية بعيدة عن التفاعل مع الطبيعة. صارت تلعب دورا من دون النظر إلى الانسجام مع الطبيعة والحياة البعيدة عن الفروض والتعقيدات الاجتماعية.

ومما يسترعي انتباهنا في هذا النص "فنبخر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم» فالشعب كله كان يعبد ليليت ويسكب لها السكائب باستثناء السلك الكهنوتي الذي كان يناصبها العداء بعد أن استولى على إدارة الكهانة التي كانت كلها بيد النساء قبل المجتمع الذكوري. ولا نظن أن المقصود بالآباء أو الرؤساء أولئك الكهنة المعادين لليليت وإنما زعماء العشائر.

ليس هذا وحسب، بل نلاحظ أن النساء يعلن صراحة إدانة السلطة الذكورية الجديدة التي تراجعت عن عبادة ربة السماء، ويصف هذا العهد بالسيف والجوع.

وأخيرا يبين هذا النص الشخصية المتماسكة للمرأة اليهودية، بجرأتها وصراحتها وتمسكها بما تعتقد. وقد كانت تشارك المرأة الفلسطينية في النواح على تموز ابن الربة القتيل. وقد سعى الرجال بكل ما استطاعوا لمنع النساء من النواح على تموز وعشيرة (ليليت). وكان للمرأة اليهودية دور كبير في بعث صورة ليليت في العصر الحديث فأصدرت باسمها الصحف والمجلات والمتاحف والمعارض والفرق الموسيقية... بل عادت في القرن السابع عبادة ليليت بكل معنى الكلمة.

بين هذين الفريقين كانت تظهر صورتان مختلفتان لليليت. فكلما جاء أنصارها بصورة جميلة أضاف الفريق الخصم إضافة جديدة تشوهها وتجعل الصفات الشريرة تعوم.

ليليت زوجة آدم

كما كان لليليت في الفرات صورتان: مشرقة وقاتمة، ربة وشيطانة، كذلك نجد لها صورتين في النصوص العبرية، وبالأخص في التلمود وفي الترجوم. ولكن صورتها وردت مرة في التوراة، كما ورد اسم أبنائها أيضا.

أما صورتها فلا تختلف عن الصورة الفراتية التي رسمها المجتمع الذكوري، ففي الإصحاح ١٤: ٣٤ من سفر إشعيا، وهو من أعظم أنبياء اليهود، إشارة إلى ليليت بالبومة. وهي الصورة القديمة التي أفرزها المجتمع الذكوري السومري في مرحلة متأخرة، فصارت كل بومة على هيئة امرأة تشير إلى ليليت. ففي النسخة الإنكليزية جاء «وكذلك تستقر البومة الصارخة هناك وتجد لنفسها مكانا للراحة». وفي النسخة العربية ورد «وهناك يستقر الليل ويجد لنفسه محلا» والليل والبومة رمزان لليليت عند الذكور.

وفي سفر العدد ٦:٢٦ جاء: «يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاما» أما في النسخة الكهنوتية فقد جاء «يباركك الرب في كل أعمالك ويحميك من الليليم Lilim» والليليم حسب المفهوم الكهنوتي هم الجن والأبالسة الذين من نسل ليليت.

لم يدع المجتمع الذكوري شيئا من قباحة الأفعال والأشكال إلا ألصقه بليليت، وكل همه أن يبعد الناس عن عبادتها. ولكن كل هذه الأوصاف لا تقنع من قرأ، وبقلم الذكور المعادين لليليت أنفسهم، قصة زواجها من آدم. فقصتها مع آدم تتناقض مع الصفات المشينة التي نسبت إليها. وقد وردت هذه القصة في المدراش التلمودي، وأوسع مرجع شرحها هو «"ألفبائية ابن سيراخ» Alphapet of ben Sira وهو كاتب لم يعرف أصله وفصله بالتأكيد.

ولكن الأرجح أن تكون هذه الشروحات والتفسيرات قد وضعت بين القرنين السابع والحادي عشر.

في النسخة السومرية ولدت ليليت من الأم الكبرى، من الهواء والنور. أما في النسخة أو النسخ العبرية فقد خلقها يهوه من غبار صاف غير مخلوط بالشوائب، إذ لم يضف إلى الغبار شيئا. بعض الروايات تقول من التراب، ولكن الأرجح من الغبار لأنها في النسخة السومرية «ريح» أو «روح» مفرطة في النعومة. فالغبار يحافظ على أصلها الهوائي. أما آدم فمن طين، أي من تراب مخلوط بمواد أخرى.

هناك روايتان في التوراة، في سفر التكوين عن الخلق، ففي الأولى لا يوجد ذكر لزوجة آدم، وفي الثانية يصنع الله حواء من ضلع منحن في صدر آدم لتكون خاضعة له. ويرى التقليد الكهنوتي أن ليليت هي الزوجة الأولى.

تزعم الرواية الكهنوتية أن آدم وليليت خلقا في آن واحد. لم تتأخر ليليت في الخلق عن آدم. ترى هل خلق بيد آدم وبيد أخرى حواء؟

ليس لخلق ليليت كزوجة لآدم من سبب سوى «مبدأ الخلق» ذاته. فلا يعقل أن يكون هناك ذكر وأنثى من كل شيء إلا آدم. إنها الثنائية الطبيعية التي تتمتع بها الأجناس كلها، أو معظمها. بل حتى خنثى المخلوقات لا بد من أن تحمل هذه الثنائية. وهذا ما جعل إحدى الروايات تقول إن آدم وليليت كانا جسدا واحدا. وقد ظل صدى ذلك في المسيحية على لسان بولس «وتصيران جسدا واحدا»" ويتلى هذا القول أمام العروسين.

وهنا بدأت التساؤلات عند الكهنوتيين والدارسين. كيف كان الجسد الواحد؟ هل كانت ليليت ملتصقة بآدم التصاقا؟ وفي أي ناحية يكون الالتصاق: من الخلف أم من أحد الجانبين على اعتبار أنه لا يمكن أن يكون من الأمام؟ وهل الحاجات الجسدية واحدة؟ وإذا حدث تضارب فكيف تتم الأمور؟ إن كل هذه الأسئلة ما تزال تطرح في حالة التوائم السيامية حتى هذه الأيام.

نحن أمام روايتين: الأولى تقول إن ليليت خلقت من الغبار أما آدم فمن الطين. والأخرى تقول إن آدم وليليت خلقا من مادة واحدة. أما حواء فلها روايتها الخاصة التي تقول إنها أخذت من ضلع منحن حتى تنحني لسيدها، وليست واردة مورد بحث.

أما الجنة فصورتها واحدة في الروايتين: لا حروب ولا خلاف ولا هموم ولا أتراح ولا أخطار والحيوانات تخضع للإنسان خضوعا كاملا، بل كانت ناطقة مثله. والجنة الأرضية ورود ورياحين وأشجار وأثمار وأنهار وشمس لطيفة وبرودة خفيفة تجعل الجسد متماسكا. ولكن لا يوجد ذكر للحاجات البشرية وكيف كانت تقضى وتتحقق. والعمل؟ هل كان هناك عمل أم أن الجنة فيها كل ما يعن على الخاطر؟ ثم هل كان ثمة إمكانية للتناسل في هذه الجنة؟

لماذا رفضت ليليت الجنة؟

في رواية «ألفبائية ابن سيراخ» شرح مفصل لسبب رفض ليليت الجنة. طلب منها آدم أن تضطجع فرفضت. حاول إقناعها بشتى الوسائل وضرب لها الأمثلة من الحيوانات، فلم تقتنع بكلمة مما قال بل أجابت: أنا أرقى منك وأصفى، ولي ما لك فلا يفرض علي شيء فرضا. واستمرت الأمور فترة من الزمن في شجار ومشاحنة، مما أدى إلى تعقيدات في العلاقة بين الاثنين.

كان «الاضطجاع» بداية الأسباب وليس نهايتها. فقد كانت المشاحنات تدور حول الحقوق المتساوية التي يجب أن يتمتع بها الاثنان، باعتبارهما كائنين متساويين في الخلق، إن لم نقل إن آدم أدنى مادة في الخلق من ليليت. وبالطبع رفض آدم أن يتساوى في الحقوق مع ليليت. إن الاضطجاع هو السبب الأكبر فمنه تفتقت أمور كثيرة حول العمل وتربية الأبناء وملكيتهم وكيف تكون حقوق الملكة متساوية وغير ذلك. ولكن من باب آخر كانت

ليليت تنظر إلى آدم نظرة دونية وتعتبره أسير الشهوة الطينية وليس ابن الهواء النقي الصافي. كان يلاحقها باستمرار، وكانت تهرب منه باستمرار. وكانت في الليل تبيت وحدها مضطجعة بعيدا عنه في زاوية لا تخطر في باله. وبما أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو، فقد قررت ليليت أن تترك الجنة.

بعد آلاف السنين تأتي شاعرة رهيفة من روسيا هي ماريا تزفتيفا لتصف حياة ليليت مع آدم أو حياة آدم مع ليليت، وترى أنها حياة بائسة تلك التي تقضيها المرأة مع رجل واحد، وكذلك تلك التي يقضيها الرجل مع امرأة واحدة. وتكون بذلك قد فسرت سبب رفض ليليت أن تعيش العمر كله مع آدم:

أي حياة تلك التي تنقضي
مع واحد من مئات الآلاف –
أنتم يا من تعرفون ليليت
هل شبعتم من بضائع السوق الجديدة؟
الآن هناك شيء بارد ينمو نموا سحرا خفيا
من دون حاسة سادسة.
فأي حياة هذه التي تقضيها مع امرأة واحدة في العالم؟

بغض النظر عن تمرد ليليت بسبب الحقوق غير المتساوية التي يريد آدم فرضها، هناك شيء مخيف وهو أن يمضي العمر وليس سوى اثنين يواجه كل الآخر. إن السأم سوف يتسرب، ناهيك عن أسباب الخصام الكثيرة. إن الألفة تولد الملل والملل يصنع السخط في الأعماق. إن تزفتيفا تدع الأسباب الظاهرة وتغوص في الأعماق، لتبين أن مثل هذه الحياة لا تطاق، فهي مرعبة للاثنين.

مهما كانت الأمور فإن النسخة اللاهوتية تركز على الحقوق: هل تكون متساوية أم أن لكل جنس حقوقه الخاصة التي تتناسب مع جنسه؟ وفي إحدى المرات حميت المناقشة وعلا صوتهما في الجدال حول موضوعات مختلفة، فغيّر الموضوع وغازلها وطلب منها أن تضطجع حسما للنقاش العقيم، فجن جنونها ولفظت اسم الله (لم يذكر الراوي هذا الاسم) فعادت المخلوقة الهوائية كما كانت في قديم سومر وآكاد.

إن الله لم يقدم اسمه لأحد ولا لموسى فلماذا قدمه لليليت؟ سيأتي هذا فيما بعد. نتابع الآن الرواية التلمودية.

يبدو أن الجنة كانت أرضا مغلقة، لا يعرف لها مدخل ولا مخرج. وحتى تخرج ليليت من هذه الجنة كان لا بد من أن تستعيد طبيعتها الهوائية وتنزع عنها ما علق بها من عادات آدم وطبيعته المتدنية، مع أنها لم تنسجم معه لا جسدا ولا روحا.

في كل الشخصيات الأدبية لم نجد من رفض السماء أو رفض الجنة. نجد من طرد طردا. فإبليس طرد من السماء، بعد قتال مرير بين جيشه وجيش ميخائيل كبير الملائكة وقائد الأجناد السماوية، فحلت عليه اللعنة وصار روحا شريرا. وآدم طرد من الجنة مع زوجته وحمل بنو جنسه، أو جنسهما، الخطيئة الأولى في دمهم. وهذا ما يجعل البشر في حالة من النزاع والقتال والتشويش والاضطراب.

ليليت وحدها قلبت المفهوم تماما، فرأت حريتها خارج الجنة وليس داخلها. وحتى تستعيد حريتها تخلت عن طبيعتها "الآدمية" وعادت إلى طبيعتها النورانية اللطيفة، فتخلصت من خطيئة آدم النابعة من طبيعته المتدنية. كانت ليليت تطالب بنظام يوفر الحرية ويحقق الذاتية، وكان آدم يصر على نظام الخضوع والمراتب الجنسية. ولمست في موقفه الذل الذي ستعانيه إن بقيت معه. فما كان منها إلا أن استعادت طبيعتها وفرت من الجنة.

في كل آداب العالم لا توجد شخصية تشبه ليليت في نزوعها، وفي تمسكها بالنظام الذي يوفر الكرامة لها ولبنات جنسها. لم تهن ولم تفتر ولم تساوم. ظلت تطالب بنظام المساواة والحق والحرية. وما طرحته ليليت من شعارات، راحت البشرية طيلة تاريخها حتى هذه الساعة تحاول تحقيقه.

لجنة المصالحة ورفض العودة

بعد أن غادرت ليليت الجنة بمحض إرادتها واختيارها، مستخدمة اسم الله، جعل آدم يبكي وينتحب ويشكو أمره لله، وأنه لا يستطيع أن يعيش وحده، فها هي حيوانات الجنة تعيش ذكرا وأنثى في تفاهم وألفة. وحده يمضي يومه في أرجاء الجنة وهو يرى الحيوانات تلعب وتمرح وتمارس الحب. وهو متعلق بليليت. طلب من الله أن يعيدها إليه. وصفها بأنها «ظالمة» ولكنها جميلة و«نظيفة» وذكية. وشكا من كبريائها ولكنه أعلن استعداده لتقبل هذه الكبرياء. كان يحبها إلى درجة الهيام، ولم يعد يتصرف بما يليق به. يبكي ويضرب صدره ويلطم خديه وهو ينظر إلى الله في السماء.

يبدو أن الله ضجر من هذا الصراخ والبكاء فأمر بتشكيل لجنة من ملائكة أذكياء ومرنين حتى يعيدوا ليليت إلى آدم. فاختار رئيس الملائكة ثلاثة من ملائكته هم: سينوي Senoy وسانسينوي Sensenoy وسيمانغيوف Semangeoph . بعض النسخ رسمت هذه الأسماء على النحو التالي: Snwy Smnglf - Snsnwy-. وبالفعل كانوا مرنين وأذكياء وأصحاب منطق تصالحي، بالإضافة إلى اللطف الذي يتمتعون به.

نزلوا إلى الأرض وطفقوا يتعقبون آثار ليليت معتمدين على قوتهم الملائكية ورؤيتهم المتميزة التي تختصر الزمن والطريق. وأخذوا يتقصون آثار الزوجة الهاربة فساروا نحو الجنوب، وهناك شاهدوها. إنها هي. شعرت أنهم يتعقبونها ففرت إلى البحر الأحمر، وفي نيتها الوصول إلى مصر حيث كانت المرأة تتمتع بأعظم حقوق في العالم. ولما شعرت بدنوهم منها طارت

بجسدها النوراني فوق البحر الأحمر. رفضت أن تجتمع بهم. ولكن سانسينوي بتهديده الجاد وأسلوبه اللطيف وبمنطق متزن أقنعها أن تكلمهم. وبعد المداولة وبعد جدل استمر طويلا عرضت ليليت حجتها:

- هذا مخلوق غير مؤهل للسعادة والحرية، فلن أرجع إليه.
- ولكنه يحبك. وأنت تعرفين يا ليليت أن المحبة تزيل الصعوبات.
- ولكنها قد تؤدي إلى الاستعباد. إني أشك فيما تقول.
- وأين موطن الشك؟
- أشك في كل محبة لا تقوم على الحرية. المحبة لا تلد السعادة إذا غابت الحرية.
- ولكن الحرية تنفي الإخلاص، أما المحبة فتثبته وتديمه.
- أناقة كلامك لا تخفي الحقيقة. فالفرق شاسع بين إخلاص الحرية وإخلاص العبودية.
- عودي وسيكون التواصل بالطريقة التي تريدين.
- ليست مسألة طريقة في التواصل، بل طريقة في تعاطي الحياة.
- وكيف يتعاطى آدم الحياة؟
- مخلوق بائس في أعماقه، يريد أن يسخر كل ما في الوجود لخدمته.
- إنه يتمتع. وهذه أوامر الله.
- ليس متعة بل أنانية. يريد الهيمنة والهيمنة تقتل السعادة.
- أنت لا تكرهينه بل تحقدين عليه، لذلك لم تقربيه.
- لم أقربه لأني لا أريد أن يكون له نسل يفسد الأرض ويلوث الهواء.

- ولكن بإمكانه أن يتزوج وينجب.

- وبإمكاني أن أقضي على نسله حرصاً على نظافة هذا الكون الجميل.

- ولكن ما ذنب الزوجة؟

- قبلت بالفساد. والقضاء على نسلها قضاء على الفساد.

- إذن لن تقتليه وزوجته؟

- بل اقتل الأجيال التالية للجيل الأول.

- وهل تقتلين الذكور والإناث؟

- كلهم نسل لئيم.

- هل تقتلينهم بعد الولادة؟

- قبل انصرام أربعين يوما، فمن تجاوز الأربعين يوما، تجاوزت عنه.

وعلى الرغم من عذوبة لسان سانسينوي أدركت ليليت، وهي ما تزال ترف فوق مياه البحر الأحمر، أن النية غير سليمة تجاهها.

- إن آدم يقبل بشروطك.

- أنا لا أقبل بوجوده نفسه. أنا أخاف من نسله يفسد الأرض.

- وهل تقتلين النسل في النهار أم الليل؟

- قد أقتله وهو يحلم.

- لكن الله سوف يستاء.

فكرت ليليت وعرفت أن ثمة خطرا يحيق بها. فقالت: سأقطع معكم عهدا أنني لن أمس الطفل الذي يكتب أسماءكم فوق المهد أو عتبة الدار.

لم يكن ثمة وقت للعودة إلى الله حتى لا تهرب من جديد، كما لم يستطع أعضاء اللجنة أن يقنعوا ليليت بالعودة أو بالكف عن القضاء على نسل آدم، ولا كان في مقدورهم أن يجعلوها تكف عن التحليق فوق البحر الأحمر، وأن تهبط إلى الأرض للتفاهم، فما كان منهم إلا أن وافقوا على مقترحاتها، واثقين أن الوعد الذي قطعته على نفسها سوف ينفذ تماما.

وانطلقت بعد ذلك الشائعات بأن ليليت سوف تقضي على الذكور والإناث في المهد. ستقتل الذكور قبل اليوم الثامن (قبل الختان اليهودي) والإناث قبل اليوم العشرين. ولكن ذلك امتد بامتداد الشائعات وصارت خطورة ليليت لا تطال الأبناء فقط بل أيضا الأم. ولم تعد مدة الخطر محصورة في ثمانية أيام للذكور وعشرين للإناث بل امتدت حتى الأربعين يوما. وصار الناس يقولون بأن الاهتمام بالمرأة والأولاد يجب أن يستمر حتى تنقضي الأربعون.

كثير من الأمهات اقتنعن بما قاله الرجل، فرحن يسعين إلى المختصين برصد السحر ليكتبوا لهم تعويذة بل تعويذات توضع على الأعتاب والمهود والنوافذ، حتى تتذكر ليليت وعدها للملائكة فلا تقتل أما ولا تخنق طفلا.

وكان على الأم أو المشرفة على الطفل أن تراقبه مراقبة دقيقة حتى أثناء نومه، فإذا بدا أنه يبتسم أو يضحك، أو بدت عليه علائم السرور فإن ذلك ليس دليل عافية ولا دليل حلم جميل، بل دليل مؤكد أن ليليت تسللت إليه مع الحلم. فحتى لا ينتبه أهله تجعله يحلم حلما جميلا فتبدو الفرحة على وجهه. وهنا على الأهل أن يوقظوه حتى لا تخنقه ليليت.

إن هذه الصفقة بين ليليت والملائكة دلت على حنكتها في تلافي غضبهم من جهة، وعلى حرصها الشديد على نظام «هذا الكون الجميل» من أن يدنسه بنو آدم. والعهد الذي قطعته أرضى هؤلاء الملائكة على ما يبدو فلم يحتج أحدهم. لقد أرضت غرورهم بقولها إن كل من يكتب أسماءهم لن تمد إليه يدها. وكل من ذكر اسم الله (ولكن من يعرف اسم الله سواها) لن تؤذيه كائنا من كان، ذكرا أم أنثى.

الملائكة يحرسون نسل آدم

لم يرجع الملائكة إلى الرب. حلوا الأمر من عندهم. لمسوا مهارة ليليت ونورانيتها وقدرتها العجيبة. وتشاوروا فيما بينهم أن ليليت قد تقضي على نسل آدم ولا يعود هناك خلق على الأرض يعبدون الله ويرفعون له الأضاحي. ومعنى هذا أن نسلها هي سوف يسود. فاتفقوا حتى يتحقق أمر الله في بقاء نسل آدم، أن كل محاولة تقوم بها ليليت لقتل طفل من نسل آدم وتفشل، أي يكون هناك تعويذة معلقة على الباب أو النافذة أو المهد، سوف يقتل الملائكة مئة نفس من نسلها، وبذلك يحمون الأرض ويجعلونها حكرا على نسل آدم، الذي كانت تكرهه ليليت وتعتبره مفسدا لا يصلح للعيش في هذا «الكون الجميل». وتدل هذه الاتفاقية أن أنصار ليليت كانوا الغالبية العظمى، حتى تكون المعادلة واحداً مقابل مئة.

تزوج آدم من حواء. وقد أقسمت ليليت ألا تقضي على الجيل الأول بل الأحفاد وما بعد. ومعنى ذلك أن آدم وحواء محصنان ضد ليليت. ومن هنا ظهرت تعويذة شاعت في العصور الوسطى، وهي عبارة عن ورقة مثلثة كتب عليها «آدم، حواء، احميا أطفالنا من ليليت». وهكذا ظهر اسم آدم وحواء إلى جانب أسماء الملائكة، أعضاء لجنة المصالحة.

ولو كان الملائكة يعلمون ماذا سيحصل للجيل الأول لآدم وحواء، لجعلوا له تعويذة. ولكن ليس ضد ليليت، بل ضد أنفسهم، فقد قام قائين بقتل هابيل بعد أن اشتهى امرأته الجميلة، وهي من نسل ليليت التي قبلت أن تزوجها من هابيل الإنسان النبيل الطيب. وتوالت الجرائم في السلالات التالية. وصدقت ليليت فيما حدست فقد كان تمردها على جبلة آدم التي جعلته ينظر إلى المرأة باعتبارها متاعا. فالمسألة تعود إلى الجذور.

شُوهت صورة ليليت مع الزمن. وفي العصور الوسطى أضيفت تعويذة جديدة وهي «"آدم، حواء: ابعدا ليليت عن نسائنا وأطفالنا» فمنذ القرن العاشر

بعد الميلاد انقلبت الصورة فصارت ليليت والأفعى والشيطان شيئا واحدا. أما آدم وحواء فمخلوقان بريئان لأن ليليت على هيئة أفعى جميلة جدا هي التي أغرت حواء انتقاما منها مدفوعة بغيرة الضرة من الضرة، فأكلت من الثمرة المحرمة وكان ما كان، إذ طرد الاثنان من الجنة بسببها. وبسبب هذا العداء ساد الاعتقاد أن مجرد ذكر آدم وحواء يكفي لطرد شيطانة الليل ليليت. وحتى لا يخطئ آدم وحواء كانوا يرسمون لهما صورة بومة ولكن بوجه قريب من الوجه البشري، أو بالأحرى بين البشر والبومة، ويجعلون لها شعرا كثا على الساقين ويكتبون عليها ليليت. وبهذه الطريقة يتعرف آدم وحواء على ليليت ويتصديان لها، ويبطلان فعلها.

إن انتقال المجتمع من سلطة الأم إلى سلطة الأب غيّر كل شيء، فحتى البومة التي كانت شعارا للحكمة والروية والرزانة صارت رمزا للشؤم والخراب.

ليليت الصقوبة

ظهرت الثنائية في الفكر العبري كما ظهرت في الفكر السومري. ففي أيام التحول الكبير إلى سلطة الأب ابتدعت سومر ليل lil إلى جانب ليليت. وبما أنها مختصة بالرجال فلا بد من أن يكون هناك ذكَر مختص بالنساء. ويعتقدون أنهم بذلك يتجنبون انقسام المجتمع إلى موال ومناوئ لليليت، فما دام ليل يقتل النساء فلا بد من أن يتضامن الرجال والنساء ضد ليل وليليت. لم يتحدد فيما إذا كان ليل زوجها. كان ذكَرا من نوعها أو من طينتها. فالروايات متنوعة ومختلفة.

وهذا ما حصل في العصور الوسطى، فكأنهم استعادوا الشائعة القديمة فجعلوا ليليت صقوبة succuba أو succubus وخلقوا ذكرا من نوعها هو الصقوب incubus ولكنهم لم يؤكدوا إذا كان الصقوب زوج الصقوبة أم لا. ولكنه بالتأكيد ذكرها الذي يضاجع بنات حواء مثلما تضاجع هي أبناء آدم.

شاعت هاتان الكلمتان منذ القرن الثالث عشر. ومن معناهما نستدل على العقلية الكامنة وراءهما، فكلمة صقوبة تعني تماما الاضطجاع تحت، أما الصقوب فتعني الاضطجاع أعلى أو فوق. أي المهم أن تكون المرأة تحت وأن يكون الرجل فوق. فكأن هذه الصورة انتقام من موقف ليليت من آدم عندما رفضت أن تضطجع تحته.

طبعا كلمة صقوبة (المضطجعة تحت) تعني العاهرة. ولكن الصورة العامة أنها جنية ليلية تريد إفساد النسل البشري، فتتسلل ليلا وتضطجع "تحت" الرجل وهو نائم، فيمارس الجنس معها.

وبالمقابل فإن الصقوب المضطجع «فوق» يأتي مع سواد الليل ويضطجع فوق المرأة بخفة ورقة ومداعبة خبيثة، وينسل خارجا بعد أن يقضي وطره، أو مهمته الاستهدافية.

أعدت وصفات كثيرة لهذه الحالات التي تأتي فيها جنية الليل أو جنيه. منها مثلا التعويذة التي تقول: آدم، حواء: اطردا ليليت. فتصنع منها المرأة حجابا وتضعه في مكان ما في جسدها، وكذلك الرجل. وكانت هذه الأحلام الجنسية لا تعتبر خطيئة كبرى وحسب، بل إنها من الخطايا القاتلة، وعلى المرأة (أو الرجل) أن تنهض من نومها حالما تشعر باللذة الجنسية.

هنا تكون ليليت قد هيمنت على كل أعضاء المجتمع: من الولد في المهد حتى المرأة وحتي الرجل. بغض النظر عن الجنس و السن... المهم أن تقضي على أبناء آدم وحواء، باعتبارهم نسلا فاسدا يقتل الشرير أخاه، كما حدث في الجيل الأول: قائين وهابيل.

ليس في هذه الرواية عن الصقوبة / العاهرة ليليت ما يدل أنها تقتل الرجل، أو أن الصقوب يقتل المرأة. إن الغرض – كما يبدو – التحذير من إشاعة الدعارة بين بني البشر ولا شيء سوى ذلك.

ولكنهم لم يكتفوا بهذه الرواية، بل اشتطوا وأوغلوا في الاتهام أكثر من جعلها عاهرة... لقد جعلوها قاتلة، عائدين بها إلى أيام جلجامش، فهناك روايات عن مسعاها في استدراج الرجال وقتلهم.

ليليت الدراكولا

هناك رواية مختلفة عن الرواية السابقة. إنها رواية تستلهم ما ألصق بليليت في فجر حياتها الفراتية. فقد قيل أيام سومر إن ليليت تستدرج الضحايا إلى الأماكن الخربة، وأثناء المضاجعة تلف شعرها الطويل على العنق وتقضي على الرجل الذي بين ذراعيها. وقيل في العصور الوسطى إنها تضاجع الرجال فقط ولا يوجد جنس مذكر من نوعها، أي إن الملاحقة خاصة بالرجال فقط. ولكن طريقة قتل الرجال هذه المرة مختلفة عن أيام سومر. إن ليليت تنقض على الرجل بأظافرها، فتغرزها في أماكن معينة من الجسد، وتبدأ بمص الدم حتى يموت بين يديها. والأغلب أن تكون هذه الأماكن في العنق حيث تكثر الأوعية الدموية.

والأغلب أن تكون الأظافر مثل مخالب البومة، وأن تكون الأنياب كأنياب الأسد. فكأن هذه الصورة تستعير الكثير من صورة ليليت وهي تقف على ظهر أسدين وإلى جانبها بومتان، وقد استعد جناحاها للتحليق في الهواء.

إن الأساس السومري الذي وضعه المجتمع الذكوري لصورة ليليت استمر حتى القرن التاسع عشر تقريبا. كانوا في سومر يقولون عن الرجل الذي شارف الموت واصفر لونه وتلاشت عافيته «عريس ليليتو» ويقولون عن المرأة التي أضناها المرض وشارفت على الموت «عروس ليلو» ويقصدون أن ليليت ظلت تضاجعه كعاهرة وتسحب منه دمه كمصاصة دماء (كما سيفعل دراكولا برام ستوكر فيما بعد) حتى تستنزف حياته. وكذلك يقصدون أن ليلو يظل يضاجع المرأة كداعر ويسحب دمها كمصاص دماء حتى تموت، كما سيفعل الكونت دراكولا فيما بعد، حيث غدت له شهرته الخاصة في الفن السينمائي.

ليليت وسر الألوهية

كل هذه التشويهات لم تسقط ليليت من مرتبة القداسة. يكفيها أنها الوحيدة التي رفضت الجنة وكل نعيمها ومسراتها من أجل كرامتها. أرادت أن تكون زوجة وليس متاعا. ولكن - كما مر معنا - كانت تملك سر الألوهية. فعندما أرادت الهرب من الجنة التي ليس لها مداخل ومخارج على ما يبدو، نطقت باسم الله. ولم يمارس الله عليها سلطة ولا سطوة، بل أرسل وفدا من ثلاثة ملائكة. أغرَوها بالكثير ولكنها لم تعد. ومع ذلك لم يعاقبها الله لأنها تعرف اسمه. عاقبها الرجال بأجيالهم المتعاقبة وشوهوا صورتها.

لا يملك أحد من الشخصيات التاريخية والأدبية والدينية سر الله إلا المرأة. ونكتفي بالشخصيات الدينية التي ابتكرت لله عشرات الأسماء أما الاسم الأصلي فلم ينطق به أحد سوى المرأة، سليلة الربة الكبرى. إنها الوحيدة التي كانت تعرف الاسم الخفي أو السري لله.

في سفر الخروج نقرأ قصة موسى مع الله وكيف طلب منه أن يعرف اسمه (الإصحاح الثالث:١١-١٤) «فقال موسى لله من أنت حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر. فقال إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل. فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم. فإذا قالوا ما اسمه فماذا أقول لهم فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم»

إن الله لم يعط اسمه الخفي حتى لموسى. قال له "أهيه الذي أهيه" أي أكون الذي أكون، بمعنى «كائن من كان» وقوله لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم، معناه الكائن أو الذي يكون.

لا نجد اسم الله في كل الكتب والنصوص الدينية. ففي الإنجيل كان المسيح يكرر «أبوكم الذي في السماء» أو «أبوكم يعلم أنكم تحتاجون» أو «لأن أباكم السماوي يعلم» وكانت الصلاة الكبرى هي «أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك» ولكن ما اسم الله؟ لم يذكره إنجيل ولا نص ديني آخر. وكان المسيح يقول «الأب الذي أرسلني» ولكنه لم يذكر اسم هذا الأب أو هذا الإله.

لا يوجد مخلوق في النصوص الدينية العالمية عرف اسم الله إلا المرأة. ففي مصر نجد إيزيس التي تجسد ليليت تعرف اسم الله. وهناك رواية، وربما روايات عن «رع» وكيف قدم اسمه لإيزيس. في نص ديني عنوانه «الاسم السري للإله رع» ترجمه عالم المصريات أنطونيو هيرانديس. وأحيانا يوضع له عنوان آخر هو «ليجندة رع وإيزيس» نجد الأسطورة تعزو لرع قدرته على خلق نفسه من نفسه وعلى خلق السماء والأرض وأنفاس الحياة والنار والآلهة والناس والوحوش والقطعان والأفاعي والطيور والأسماك. إن ملك الآلهة والبشر عاش دورة حياته من دون أن يعرف أحد من الآلهة اسمه. كانوا يستخدمون عشرات الأسماء، ولكنهم، لا هم ولا البشر، عرفوا الاسم الخفي للرب رع. وقولهم إنه خلق نفسه من نفسه يعني أنه خلق نفسه من اسمه. وبما أنهم لا يريدون الإفصاح عن اسمه فقد قالوا إنه خلق نفسه من نفسه.

إيزيس تحصل على الاسم السري للرب

إن إيزيس التي تجسد ليليت، أو التي هي ليليت المصرية، تقدم لنا الطريقة التي حصلت بها على اسم الله الخفي أو السري. وربما كان كاتب سيرة ليليت يعرف هذه الطريقة، لذلك عندما كتب عن ليليت لم يأت على ذكرها، وإنما اكتفى بالقول إنها نطقت باسم الله وبذلك تمكنت من الهرب أو الخلاص من الجنة التي يبدو أنها من غير مداخل ولا مخارج. المخرج الوحيد هو الهواء فلا بد من التحليق والطيران.

في النص الذي ذكرناه تجري القصة على النحو التالي: شاخ الكائن المقدس وتقدم في السن وبدأت التجاعيد تظهر حول فمه، فبصق فوق الأرض، وسقطت بصقته على الأرض.

توصف إيزيس بأنها ضليعة بالكلمات واللغة، أي ضليعة بالسحر والخوارق التي كانت تتم عن طريق اللغة (ألم يخلق رع نفسه من اسمه؟) ولذلك كانت تعاشر الآلهة وتفضلهم على البشر. فأخذت البصقة المتفسخة لرع، وكانت تغطي الأرض بكاملها، وأمسكت ترابا بيدها وخلقت حية سحرية، ووضعتها في طريق رع إله الشمس الذي يسير فيه كل يوم من طلوع الشمس حتى غروبها نهارا، ومن غروبها حتى مشرقها ليلا. وعندما سار في هذا الطريق لدغته الحية فأصيب بأوجاع وآلام: صارت أطرافه ترتجف كأنها بلا حياة وسرى السم في جسده فتفصّد عرقا. وجاء إليه الآلهة يسألونه عما حدث فقال: شيء ما لدغني. قلبي يدرك ذلك، ولكن لم تره عيناي، ولم تصنعه يداي. ولا أعرف من فعل بي ذلك. ليس نارا وليس ماء مع أني أشد برودة من الماء وأشد حرارة من النار.

عندها جاءت إليه إيزيس وسألته عمن فعل به هذا الفعل، وكانت تتمتع بقوة خارقة وتملك أنفاس الحياة (إشارة إلى أن المرأة هي التي تمنح الحياة بالولادة) والكلمات التي تطرد كل مرض وتعيد الحياة للموتى. سألته ماذا بك أيها الأب المقدس (الأب المقدس هو كبير الآلهة وليس الأب السماوي) لا شك أن حية لدغتك فسرى السم في جسدك. أحد مخلوقاتك سلطها عليك. سوف أطردها بتعاويذي القوية.

كان يلفظ أنفاسه عندما طلبت منه (قبل أن تعالجه) اسمه السري. تمنّع رع أول الأمر، وحاول الإفلات حتى يحتفظ باسمه السري فلا يعرفه أحد فتضيع سلطته وسطوته. وعندما شارف على الهلاك قال «إني أقبل أن تعالجني إيزيس وبكامل الرضى ينتقل اسمي من جسدي إلى جسدها»

واستغلت إيزيس وضعه اليائس هذا وطلبت منه عينيه لابنها الذي في المهد حورس (إنها ليليت التي تمثل العين الساهرة في الليل على أطفال المهد) فامتثل لها. وكانت النتيجة أنه عاد إلى الحياة، بعد أن شفي من السم بكلمات إيزيس. عاش الإله ولكن من دون عينيه اللتين انتقلتا إلى البشر، فصارت العدالة عمياء عندهم. ولكن من باب آخر صار الإنسان ابن المرأة هو الذي يستخدم العينين في حياته، من دون أن يحسن استخدامهما، أما الاسم، سر الألوهية، فظل مع المرأة، به تخلق الحياة وتقيم الموتى من القبور.

ماذا يفعل من تلدغه أفعى؟

لا شيء. يقرأ تعويذة خاصة فيشفى ويزول منه السم. وهذه التعويذة هي «باسم التي تعرف الإله باسمه، إيزيس الربة، يزول السم ويتعافى البدن»

تدل هذه الأسطورة على محاولة المرأة استعادة سلطتها السابقة. ولكن الذكَر كان قد وطد سلطته، فقامت بتوزيع الأدوار بين إيزيس وابنها حورس. و نجد هذه الدلالة في كثير من الأساطير.

ليليت والمقدس

لا نعرف كيف حصلت ليليت على اسم الله، فعادت مقدسة قديرة لا يطالها دنس البشر. ولكن قصة إيزيس التي تمثل ليليت في مصر تقدم لنا دلالة خاصة تلقي ضوءا على سر المرأة.

ما الذي يعنيه الحصول على اسم الإله؟

لم يكن هناك أرباب. كانت هناك ربات يدرن شؤون العالم، وهن منحدرات من الأم الكبرى، أي الأرض. وكان سر الألوهية محصورا بهن. وحدث أول تقسيم للعمل في التاريخ بين الذكر والأنثى. وصارت مكانة الذكر أعلى، وصار يسيطر على مرافق الحياة في المجتمع. وانتقلت الإدارة بالتدريج إليه. صار صاحب سلطة. وظهرت الازدواجية في الحكم بين

الذكور والإناث في الفترة الانتقالية. اشترك الذكور في كل شيء حتى في السلك الكهنوتي الذي كان حكرا على النساء. كان الذكر الذي يريد أن يدخل هذا السلك لخدمة الربة وزوجها أو الرب وزوجته، يخلع ثياب الرجال ويخصي نفسه ويرتدي الثياب النسائية (وما زال هذا الزي حتى اليوم خاصا برجال الدين). وهكذا صار هذا السلك يتألف من الإناث والذكور بعد أن كان خاصا بالإناث.

لم يكن ثمة أنبياء يظهرون لأن الذكر لم يكن بعد قد دخل السلك الكهنوتي. بعد دخوله صار الأنبياء يظهرون في كل أصقاع الأرض بعد أن كانت النبوة مقتصرة على المرأة. فمثلا كانت بيثيا آخر كاهنة متنبئة في اليونان. بدأ المتنبئون يظهرون تباعا. وقصة سيبيل تدل على أن المتنبئات لم يكن لهن مكان، فقد كانت سيبيل متنبئة جوالة عاشت آلاف السنين تبيع كتب النبوءات.

بعد أن استتبت السلطة للذكر انتقلت القدسية إليه بعد أن كانت محصورة في المرأة. أي إن سر الألوهية كان معها فاستخدمته للهرب من الجنة. يقولون إن المقدس هو اسم الإله الذي به يمكن أن يخرق المألوف والطبيعي. إنه سر الألوهية. ومعرفة ليليت له يعني أنها كانت تمارسه. ولهذا السبب لم يجرؤ الإله أن يعاقبها أو يحاسبها بعد أن هربت من الجنة. أرسل وراءها لجنة مؤلفة من ثلاثة ملائكة بعد فرارها من الجنة فأبت أن ترجع وكان آخر ما توصلت إليه المفاوضات أن كل طفل تقتله ليليت من نسل البشر سيقتلون مئة طفل من نسلها. إن الرفض العنيف للعيش في الجنة التي خلقها الإله الذكر يعني الاحتجاج على النسل البشري الذي خلقه والذي لا يستحق أن يعيش، لأنه سوف يعيث في الأرض فسادا.

إن معرفة اسم الله يعني معرفة السر المقدس، أي السلطة التي كانت بيد المرأة ثم صارت بيد الرجل. وكانت ليليت أعظم المحتجات المتمردات. كانت أمازونية تحارب منفردة.

هل تنتقل القداسة إلى المرأة؟

عندما هرم رع وظهرت التجاعيد على شفتيه بصق على الأرض، أي قرف من الخلق الذي أوجده وخيب له أمله، فلم يكن ذلك الخلق المثالي الساعي إلى السعادة والسلم والحرية، بل خالق البؤس والحرب والعبودية. يبدو أنه ندم على ما فعل. إن البصاق يعني أن رع أعلن عجزه عن تسييس خلقه وإرشاده إلى طرق الخير والحق والمحبة.

إن انتقال الاسم السري من رع إلى إيزيس، وانتقال عينيه إلى نسلها (ابنها حورس) يشير إلى أن المقدس الذي انتقل من الأنثى إلى الذكر سوف يعود وينتقل من الذكر إلى الأنثى. إن قصة الاسم السري للإله رع تكشف النزوع الأنثوي للاستيلاء على السلطة بعد أن شاخ الذكر ولم يعد قادرا على إدارة هذه البشرية التي خلقها. وهو انتقال له مسوغاته، فعندما تتم «الدورة الإلهية» للخلق من دون أن يحقق هذا الخلق أي تقدم، لا بد من نقل السلطة إلى من هو أهل لها. وكما سرق الذكر السلطة بالحيلة والمكر والخداع، لجأت الأنثى إلى الوسيلة ذاتها. طبعا ليست طريقة إيزيس هي الطريقة الوحيدة. هناك طرائق أخرى كثيرة جدا، لكنها كلها تصب في دلالة واحدة «استعادة الحرية»

وحين ذكرت ليليت اسم الله فإن ذلك يعني أنها استعادت القداسة، وصارت مقتدرة، حرة لا تخضع لأوامر الإذلال. وبذلك يكون المقدس قائما في قلب «الحرية». وهذا هو أساس كل حركة نسوية feminism في العالم، سواء في التاريخ القديم أو في التاريخ الحديث والمعاصر. إنه استعادة المقدس. إنه الإمساك بالألوهية... أي الحرية.

ضربت ليليت مثلا في الإباء وعشق الحرية. لأول مرة صار الهرب من الجنة، الجنة الذكورية ذات السلطة المستبدة، مساويا للحرية. وهذا موضوع كبير جدا يطرح مسائل خطيرة حول أهلية النسل البشري لتوطيد الحرية، أي الحق والعدالة...

الفصل الثالث

ليليت تطوف العالم

خطيئة آدم في نسله

هربت ليليت من الجنة رافضة أن تنسل من آدم. كانت تدرك أن نسله سوف يكون وباء يعم الأرض. ولكن الله الذي أرسل الملائكة وراء ليليت الرافضة أن تعود إلى الجنة، خلق لآدم امرأة من طينته، وذلك بانتزاع ضلع منحن من أضلاعه حتى تنحني له.

شعر آدم أنه ارتكب، ليس غلطة عابرة، بل جريمة نكراء، ذلك أنه أورث البشرية خطيئة أبدية لن تزول، وهي الموت. إن دمه ينتقل من جيل إلى جيل، من دون أن تحرز البشرية خطوة واحدة نحو السعادة. فالثمرة المحرمة هي النسل. إن الله لم يمنعه من الثمرة المحرمة عندما كانت ليليت زوجته. لكنها رفضت وفرت من الجنة. وعبثا حاول الله أن يعيدها. وتمت صفقة بينها وبين الملائكة الذين أرسلهم الرب. وقد هددوها بأنها لقاء كل طفل تقتله من نسل آدم سوف يقتلون مئة من أبنائها.

بعد أن خلق الله حواء من ضلع آدم، لم يرغب في أن يكون لآدم نسل. كان يريده أن ينتظر حتى ينضج ويرشد. ولكن هذا الرجل الأسير لرغباته الطينية لم يستطع الصبر، فكان ما كان وحلت عليه وعلى حواء، وعلى نسلهما لعنة الله الأبدية. لقد جلب آدم الألم والموت للبشرية.

يقول الرباني ميير Meir كان آدم تقيا فلما وجد أنه تسبب في جلب الموت إلى هذا العالم اعتزل وصام ١٣٠ سنة وانفصل عن زوجته ١٣٠ سنة وارتدى أوراق التين ١٣٠ سنة. وفي معتقد بعض المسلمين أن آدم تاب وقضى ١٠٠٠ سنة في سريلانكا.

ومثل هذه الصورة لتائب متبتل لا يوافق عليها الرباني أرميا بن أليعازر فهو يقول مؤكدا: بعد أن طرد آدم من الجنة انفصل عن حواء وصار أبا للغيلان والأبالسة والليليين Lilin (وهم أبناء ليليت على ما نظن). وبذلك يكون آدم قدم نسلا للفساد والدمار والحروب والخراب... قدم نسلا لا يستطيع أن ينظم حياته ولا يتمكن من وقف التدهور نحو الفساد.

ولكن في الزوهار الكثير من المعلومات وكذلك في الكابالا بأن آدم لم يعرف توبة ولا ندما بل كان مزواجا. فعلى ما يروي باتاي (81f :٤٥٤ Patai) أن آدم ظل ١٣٠ سنة يفترع ويضاجع الأرواح الأنثوية، ويستولدها الغيلان، إلى أن عرف نعمة Naamah وهي ابنة لامك، فتزوجها. ولكنها كانت جميلة جمالا باهرا فأحبها أبناء الله وفي مقدمتهم يوسا Iussa وعزائيل Azael. ومن ابني الله هذين حملت بالأرواح الشريرة والجن والأبالسة (؟). وبعد ذلك في (٨١:٤٦١) نجدها تطوف في الليل وتمارس الهوى مع الرجال. وأما الأرواح الشريرة فإنها أيضا تطوف الليل فإن وجدت رجلا نائما استحلبت منه بذوره وحبلت بالأرواح الشريرة، ولا تتركه هذه الأرواح قبل أن تبلوه بالمرض المريع.

وحبلت نعمة من آدم وخلفت أسموديوس الجني الذي قضى على ستة عرسان تقدموا للزواج من سارة التي صارت زوجة طوبيا الذي استطاع باتباعه تعاليم أبيه أن يطرده ويطرد كل الأرواح الشريرة، فهرب وهربوا معه إلى نواحي مصر حسب المعتقد الذي كان سائدا في ذلك الوقت وهو أن

الماء يجذب الأرواح الشريرة. ويجد القارئ سردا مفصلا لهذه الأرواح في التوراة، في السفر الأبوغريفي «طوبيا».

ليليت وحدها لم تعرف التوبة لأنها لم تعرف الخطيئة، ولا جلبت للبشرية خطيئة الموت والعذاب. كانت تدرك مدى خطورة نسل آدم فلم تشترك في الإثم ولم تقترف جريمة إدخال الموت إلى الحياة البشرية.

ونجد هذا الاتجاه في الميثولوجيا المانوية. فحسب معتقد المانوية ليس آدم من صنع الله بل من صنع الشيطان، أمير الظلام، عن طريق نزوة أو رغبة. فقد سرق الشيطان من السماء مشعلا من نور، فأصاب آدم منه بعض الشرر ونفذ النور فيه، ولكنه كان قليلا لا تأثير له. في هذه الأثناء أنجب آدم الجيل الأول وهو قائين وهابيل. ولكن ملائكة الخير والأرواح البارة استطاعت أن تتعهد هذا النور الضئيل فنما وكبر وصار له تأثير حقيقي. وفي هذه الأثناء أنجب آدم ابنه شيث. وشيث هو الذي حمل تقاليد النور ليحارب تقاليد الظلام. وقد حل شيث محل هابيل. وكان هابيل على النقيض من أخيه قائين. كان النور الذي في أبيه قد تسرب شيء منه إليه، فكان وديعا مخلصا أمينا، لكن أخاه جندله، فلما جاء شيث كانت نسبة النور فيه أكثر بكثير. ويتفاءل المانويون بسلالة شيث ويزعمون أن النور سوف يتعاظم في أبناء شيث وسوف يتغلب هذا المعسكر على معسكر الظلام.

ليليت زوجة الرب

قابل آدم الله عدة مرات. أو على الأقل أربع مرات: يوم خلقه ويوم استمع لشكواه ويوم خلق له حواء وحذره من «الثمرة المحرمة» ويوم طرده من الجنة غاضبا، فحلت عليه اللعنة الأبدية لأنه جلب الموت للبشرية. ولكن لا يوجد نص يشير إلى لقاء أو اجتماع أو مواجهة بين ليليت والله سوى مشهد واحد ورد في الكابالا في قصة طريفة وردت في الزوهار a ٣:٦٩ فلماذا لا توجد سوى هذه الرواية؟

نحن أمام رواية تنسجم ومكانة ليليت القدسية التي ارتفعت بها إلى مصاف الإله. رواها الرباني شمعون يوهاي. والمعروف أن اليهود يفخرون بشجرة عائلتهم التي ترجع إلى أيام آدم وحواء. لكن شمعون يدهش عندما كان هو وصحبه يقومون بمشوار. قال الرباني: «كل الأمم صارت في مكان رفيع عال إلا إسرائيل صارت أدنى منهم قدرا ومكانة. لماذا حدث هذا؟ لأن الملك (الله) طرد الماترونيت Matronit (أي الزوجة الأم التي تدير شؤون السلالة) بعيدا عنه وأحل محلها أمَة هي ليليت. من تكون هذه المرأة الأمة؟ إن التاج الغريب الذي خلقه الواحد الأحد، تبارك اسمه، قد قتل في مصر. في البداية جلست في الخلف، والآن حلت هذه المرأة الأمة محل سيدتها»

وهنا بكى شمعون وقال «الملك من دون الماترونيت (الزوجة) لا يدعى ملكا. الملك الذي يلتصق بالأمة، بخادمة الماترونيت، أين شرفه؟ لقد تخلى عن زوجته والتحق بالأمة. إن هذه المرأة الأمة قد تحكم كل الديار المقدسة التي تحت، كما كانت الزوجة تحكمها من قبل. ولكن الواحد الأحد المقدس، تبارك اسمه، سوف يعيد الزوجة إلى مكانتها السابقة. وعندئذ أي ابتهاج سوف يكون لنا؟ إنه ابتهاج للملك وللزوجة أيضا. ابتهاج للملك لأنه سوف يعود إليها وينفصل عن المرأة الأمة، وابتهاج للماترونيت لأنها ستعود زوجة للملك»

تذكرنا هذه القصة بقصة مماثلة سرت في بلاد سومر القديمة وهي أن ليليت كانت تقف إلى جانب إينانا (عشتار) وتقوم بالعناية والاهتمام بالبشر، ولم يكن ثمة خلاف بين الربتين، لأن المجتمع كان في ظل العلاقات الأمومية. وعندما تغيرت العلاقات وسيطر الذكر اتخذت كل ربة سياسة خاصة بها، فانقلبت ليليت إلى شيطانة في نظر الرجل وظلت مثال الإخلاص والحنان في نظر المرأة السومرية.

إن القصة اليهودية تدل أن المرأة اليهودية كانت تقدس ليليت. فجاءت هذه القصة لتبين أي خطر يحيق بإسرائيل إن صارت ليليت زوجة الرب الملك. إنها ستصبح في أسفل الأمم. فلا بد أن تعود الزوجة التي خلقتها مخيلة الرجل إلى عرشها وليس المرأة «الأمة» التي خلقتها مخيلة المرأة.

إن الرجل جعل ليليت تتخذ صورا مختلفة، كلها قبيحة حتى تنفر المرأة اليهودية منها. ففي الشرق الأدنى جعلوها تتوحد بلامشتو (لميا) التي قيل إنها شيطانة ليلية تقتل الأطفال في سوريا. ثم جعلوها شيطانة مجنحة (التلمود) ثم جعلوها مصاصة دماء (الزوهار) ثم جعلوها بومة نائحة في سفر أشعيا (التوراة). ألا كم كانوا يدركون خطورتها!

كل هذه المحاولات تدل على المكانة التي كانت تحتلها ليليت في قلب المرأة اليهودية وغير اليهودية، المرأة في كل أصقاع الشرق الأدنى وإفريقيا واليونان. . .

كيف صارت ليليت زوجة للرب؟ هذا ما تعرفه نساء الشرق الأدنى. يبدو أن ليليت بعد أن رفضت آدم وأبت أن تضطجع على النحو الذي يريد ذكرت اسم الله الحقيقي وهربت من الجنة وارتفعت إلى عرش الرب وصارت زوجة عرش الملك الرب. وهذا ما أثار مخاوف الرجال اليهود، لأن في ذلك عودة إلى المجتمع الأمومي، في حين استغرقت إقامة المجتمع الأبوي كثيرا من الزمن والأكاذيب والنضال والظلم. إن النضال من أجل جعل ملكية الأولاد للرجل استغرقت أكثر من قرنين. نحن أمام صراع حقيقي بين الحركة النسوية والحركة الذكورية.

ليليت زنبقة الطهارة

تقوم المانوية على الثنائية الضدية. وهي ثنائية تقسم كل شيء إلى معسكرين. فترى الناس منقسمين إلى معسكرين بالنسبة للنور والظلام، وليس بالنسبة للذكر والأنثى. وقد رأت أن نسل آدم هو نسل شيطاني. ولكن بما أن

الشيطان أخذ نورا من السماء عندما خلق آدم، فإن فيه شيئا من الخير، لأن النور كان ضئيلا، ولذلك قتل قائين أخاه، أما نسبة النور المقبولة فقد بدأت بشيث وهو بداية الجيل الثالث بعد آدم وقائين. ففي شيث ازدادت نسبة النور التي يمكن أن تزداد في الأجيال القادمة حتى يكمل تاريخ الخلق دورته وينتصر النور على الظلام.

لم تفصح المانوية عن موقفها من المرأة، ولكن نزعتها الذكورية تظهر في اهتمامها بشيث كأن النسل لا يكون إلا بالذكور. ولم تأت على ذكر ليليت أو المرأة عموما.

أما المسيح فقد عامل المرأة معاملة خاصة. وكان المرضى الذين شفاهم من الذكور والإناث معا.

وقد أدرك الرسامون بحسهم الفني ماذا تعني «البشارة» فرسموا الملاك الذي قال إنجيل لوقا إنه نقل إليها البشارة من عند الله (١: ٣٦ – ٥٠) وهو يحمل بيده غصن زنبق.

فما علاقة البشارة بالزنبق؟ إن النص الإنجيلي نفسه هو الذي يكشف لنا عن سبب وضع الرسامين غصن زنبق في يد الملاك.

«فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا اسمه يسوع. هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد لا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا. فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله»

وهناك قريبتها أليصابات يبشر الملاك زوجها بأن امرأته العاقر سوف تلد له ابنا. وعندما التقت المرأتان قالت مريم: «تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي. لأنه نظر إلى اتضاع أمته. فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني».

خلاصة هذه الآيات أن مريم حبلت بلا دنس. ولكن لماذا لم تحبل من رجل؟ وما العيب في ذلك؟ ولماذا كل هذه المعجزة؟

السبب هو خلق سلالة نظيفة. وبما أن البشر غارقون في الدنس والفساد فلا بد من استبدال هذا النسل بنسل ليليتي طاهر. والله الذي صنع هذه المعجزة أثبت أنه « زعلان من نسل آدم ». يقول باسكال في الخاطرة ٥٥٦ بأن إله المسيحيين إله محتجب، وأنه لا يتكشف للبشر. ولكن لماذا هو محتجب؟ لأن آدم ارتكب الخطيئة الأبدية وجلبها إلى البشرية. ارتكب المعصية الكبرى. ومتى كان هذا؟ كان في البدء، عندما حاول الله أن يكون لآدم نسل من ليليت، فلما رفضت خلق له حواء وأوصاه بألا ينسل، فلما خالفه تخلى عنه وعن نسله، وأرسل المخلص. فالحبل بلا دنس هو حبل من غير هذا العالم. إنه دعوة لتصحيح النسل والارتقاء به إلى مستوى نسل ليليت النوراني البعيد عن الفساد. فالحبل بلا دنس هو احتجاج على النسل الآدمي وفساده وشروره، وسعي لخلق نسل ليليتي رهيف قادر أن يغير السيرة الملوثة للبشرية، ويكتب سيرة جديدة تقوم على الفداء والتضحية، أي على الأمومة ونكرانها لذاتها.

كيف تصور هذه البشارة، أي الحبل بلا دنس إذا كنت رساما؟ ستختار من دون شك رمزا يأنف من الاختلاط بهذه البشرية. ولا يوجد في التاريخ من رفض نسل آدم سوى ليليت الطاهرة النقية، ربة الليل والمهد. ولهذا يعمد الرسامون إلى جعل الملاك يمسك بيده، وهو يزف البشارة، رمزا لليليت وهو غصن الزنبق. والزنبق هو الاسم الفارسي الذي شاع بدلا من الاسم العالمي

ليليت أو lilium. فقد أطلق النسوة اسم ليليت على نوعين من أنواع الزنبق الكثيرة lilly والليلك lilac وكلاهما يحملان اسم ليليت. والفرق بين الأول والثاني أن الأول أبيض يمثل الطهارة والثاني يمثل الليل (الأزرق القاتم) باعتبارها ربة المهد الليلية. فاللون الأزرق هويتها التي تشير إلى أصلها السماوي، واللون القاتم هو عملها الليلي. صحيح أن الكثرة الكثيرة من الرسامين استخدموا الزنبق الأبيض lilly ولكن استخدام الزنبق الأزرق القاتم lilac يشير بالدلالة اللغوية والرمزية اللونية إلى ليليت. الأول لنقائها من أدران الجنس البشري، والثاني لاهتمامها بالأطفال المولودين حديثا والإشراف على تربيتهم. ولا شك في أن مثل هذه الوظيفة كانت تؤديها قبل زواجها من آدم، أي كان الأولاد بإشراف النظام الأمومي. فلما كانت هذه التربية لا تنسجم مع القيم الجديدة لمجتمع الذكور جعلوها خانقة أطفال. وعلى هذا يكون رسم غصن الليلك بيد الملاك إشارة إلى أن الطفل يمثل جيلا جديدا لا علاقة له بمسيرة الجيل «الآدمي». فالزنبق الأبيض تعبير عن طهارة مريم ومثله الزنبق الأزرق تعبير عن ليليت ونسلها الجديد الذي يمثله الطفل يسوع.

لا نجد رساما اختار غير غصن الزنبق. ولو فعل أحدهم غير ذلك لفشل. فلا الفل ولا الياسمين ولا أي وردة بيضاء تشير إلى ليليت سوى الزنبق بأبيضه أو ليلكه.

في الجزء الثالث من الكوميديا الإلهية «الفردوس» نجد دانتي يسمي المرتبة العليا من الطبقات السماوية، حيث تستقر العذراء مريم باسم الوردة السماوية Celestial Rose وفي هذا المركز تــكون مريم العذراء في القمة رمزا للطهارة وللجيل الجديد من النسل المختلف عن نسل آدم، أو الذي غيّر مسيرة نسل الشيخ آدم الذي رفضت ليليت أن تنسل منه. بعض مترجمي الكوميديا وضع لهذه الوردة اسما مركبا تعبيرا عن شدة النقاء من أمثال وردة الفردوس الناصعة البياض TheSnow-White Rose of Paradise أي

الطاهرة، معتقدين أنهم بإضافتهم الثلج إلى البياض يبرزون الطهارة أكثر. وإضافة الثلج إلى اللون تأكيد على شدة خلوصه من الأدران الأرضية. فالثلج سماوي الأصل ولا علاقة له بأوساخ بني آدم.

ليليت اليونانية

يبدو أن المجتمعات القديمة أولت المهد والأطفال عناية فائقة. وقد خصصت لذلك وظيفة تكون دائما من حظ الربات وليس الأرباب. وأدركت هذه المجتمعات أن التربية النظيفة الأولى هي أساس كل الشخصية، كما سيؤكد ذلك سيغموند فرويد بعد آلاف السنين. وتظهر أمامنا في اليونان ليليت السومرية باسمها ووظيفتها. أما اسم ليليت اليونانية فهو إليثيا Eileithuia أو Elithya وهو اسم ليليت ذاته باليونانية. والصفات التي امتازت بها ليليت السومرية القديمة كربة مهد هي ذاتها الصفات التي امتازت بها إيليثيا. ولكن هناك فرقا واضحا وهو أن ليليت في بدايتها الأولى كانت إيجابية تجاه الوالدة والمولود. أما إيليثيا فإنها تسهل الولادة وتهتم بالطفل، وأحيانا تفعل العكس فتجعل الولادة عسيرة وتقضي على الطفل. وقد تقضي على والدته معه. فهناك انتقائية. إنها لا توافق على كل النسل، بل تنتقي وتختار. وبما أنها ربة خير وبركة فإن اختيارها واضح. إنها تجهض من تعتقد أن في بطنها نسلا شره أكثر من خيره.

لا توجد أي دلالة أنها كانت تساعد المواليد الإناث، وتقضي على المواليد الذكور. الأمر بالنسبة إليها محسوم في اختيارها بين الصالح والطالح بغض النظر عن جنس المولود ذكرا كان أم أنثى.

الكتابات الهومرية جعلتها تظهر في صيحات الطلق عند الولادة، ومن هذه الصيحات يعرفون إن كان المولود سيعيش أم يموت. وقد قيل إنها ابنة هيرا، زوجة زيوس. وهيرا هذه ربة للزواج والمواليد، وإن كانت تحب الحروب والفتن والصناعات. وتوجد دلائل قديمة جدا على عبادة إيليثيا في

أمنيسوس Amnisus في جزيرة كريت. وهناك منحوتات تدل أن عبادتها استمرت من العصر الحجري الحديث حتى أيام الرومان. لكنها ضاعت بعد ذلك. يقال إنها توحدت مع هيرا أو أرتيميس. وهما أيضا ربتان مرتبطتان بالمواليد والزواج.

إن عبادة إيليثيا طيلة هذه العصور دون انقطاع يدل على أن هناك حركة نسوية لها ثقلها الكبير. ولكن مع ازدياد تأثير القيم الذكورية في المجتمع بدأت هذه العبادة تتراجع إلى أن اختفت مع ما اختفى من طقوس الأم الكبرى وغياب الديانات الأمومية، وبدأت الحقوق النسوية تتراجع.

ليليت الليبية

تغير اسم ليليت في ليبيا. صارت تدعى لميا Lamia وقيل إنها ابنة بيلوس. أقامت مملكة هناك ورتبت أمور المملكة خير ترتيب. كان جيشها من النساء (الأمازونات) يتصدى لمحاولات جيوش الرجل في ضم مملكتها، أو إزالتها أو على الأقل إضعافها. واشتهرت الأمازونات الليبيات بلباسهن الخاص المختلف عن لباس أمازونات حوض البحر الأسود. وكان الشعب الذي تحكمه يسمى الليستريجونيين Laestrygones وهم شعب عريق متمسك بالنظام الأمومي. وقد مورست عبادات الربة الكبرى عندهم كما كانت تمارس عند غيرهم من الشعوب. ولم تتوافر دراسات أركيولويجية كثيرة عن هذه المنطقة التي كانت لميا ملكة عليها. وتشير الدراسات المتوافرة أنها كانت ملكة على مجتمع أمازوني، اشتهرت النساء فيه بدقة النظام وبالعمل المخلص وبالدفاع الضاري ضد الغزاة، تماما مثل أمازونات البحر الأسود.

كانت لميا ملكة الأمازونات في ليبيا، سمراء بشعر أسود طويل وقامة ممشوقة. فوقع زيوس، كبير آلهة اليونان في غرامها. وكان زيوس رب عدالة وقانون. لم يكن فوضويا. له ميزات راقية. صحيح أنه كان مغرما بالحوريات أينما وجدهن، لكنه في المحصلة صاحب قانون ونظام وعدالة.

وكانت زوجته هيرا التي سماها الرومان جونو تعرف عشقه للجمال وملاحقته للفتيات الجميلات فتتجسس عليه. وكان يخاف منها ويخشى أن تضبطه وتقرعه أمام عشيقاته. كانت هيرا نموذجا للغيرة القاتلة، جلبت النكد عليه وعليها.

رأت لميا أن نسل زيوس قد يكون أفضل من نسل آدم. ورأت أن تتسل منه. ودهشت عندما وجدت أن أطفالها يختفون فور ولادتهم. كانت هيرا التي هي أيضا ربة الزواج والولادة تترصد كل مولود منها وتخطفه حتى لا يكون للغرباء مكان في الأولمب، فتكثر أربابه ويفسد نظامه. ولما عرفت لميا بذلك بادلت العمل بمثله وصممت أن تقضي على كل مولود يقع بين يديها، إن استطاعت يداها أن تصل إليه. ودارت المعركة الشرسة للغيرة بين الربتين. وبما أنها لا تستطيع الوصول إلى أبناء هيرا، التي كانت قد توقفت عن الإنسال تقريبا، فقد اتجهت إلى أبناء البشر تقضي عليهم وهم في الطفولة. ولذلك يعزون الوفيات في الأطفال إلى «يدي لميا الطويلتين». وقد نسوا أنها كانت ربة وملكة على الليستريجونيين في ليبيا، وكان مجتمعها من المجتمعات المتماسكة التي تديرها الأمازونات.

وتعامل الميثولوجيا اليونانية المتأخرة لميا معاملة قاسية، فتزعم أن كل فعل تقوم به ضد الأطفال ينعكس قباحة على وجهها الجميل. وبما أنها مارست الأعمال القبيحة فترة طويلة فقد ظهر ذلك في كل جسدها، فصار الجذع والأطراف على شكل أفعوان أما الصدر والرأس فمن معالم المرأة، لكنهما وحشيا المظهر، وثديان أشبه بأثداء الجواميس الضخمة. وكان ثدياها محتقنين دائما بالحليب ومتورمين. قيل إنها حرمت من الأطفال ولكن روح الأمومة جعلت الحليب يتدفق إلى صدرها. وقيل إنها لا تقتل إلا الطفل الذي لا يرضع من صدرها. كانت تبحث لائبة عن أطفال تمتلكهم. وأطلق عليها لقب «آكلة لحوم البشر»

في الميثولوجيا الرومانية لم تعد هناك لميا واحدة، بل لمياوات. وهن مصاصات دماء. أعادت إليهن هذه الميثولوجيا جمالهن الأخاذ ودلالهن وصوتهن العذب فصرن أشبه بالسيرينات، يغوين الشبان إليهن ثم يأتي القدر بعد قضاء الوطر. إن صراع الأنوثة والذكورة مستمر على ما يبدو إلى الأبد.

في العصور الوسطى تختفي اللمياوات، وتظهر لميا واحدة تقوم بإغواء الشبان بطرائق عديدة مختلفة لتعيش من دمائهم. وكلما شاهد الناس فتى أصفر الوجه ذابل الخدين هزيل العافية قالوا «إن لميا تزوره»

كما هي العادة في احتفاظ البشرية بذكرى الربات المقدسات القديمات، ظهرت مدينة باسم هذه الربة في اليونان وهي عاصمة مقاطعة بالاسم نفسه. وفي هذه المنطقة نشبت الحرب اللمياوية بين اليونان ومكدونيا، وخسرت اليونان طبعا.

في العصر الحديث استعادت لميا احترامها فظهرت آثار باسمها على يد الموسيقار إدوارد مكدويل وجاكوب درنكن.

لكن الأثر الأدبي العظيم قدمه شاعر شاب هو جون كيتس بقصيدة أو رومانسة شعرية بعنوان «لميا». وهي رومانسة مدهشة. خلاصتها أن أفعى تقع في حب شاب جميل فتتحول إلى فتاة ذات جمال أخاذ. ويحتار الشاعر فيما يختار، بين الأفعى والفتاة، بين الطبيعة والجمال، بين الجمال والحب، بين الحب والغيرة، ويقدم تحليلات نفسية عميقة وغنية جدا. ونظن أنه رأى البشرية مقصرة لأنه ينقصها الحب، فالحب يخلق الجمال والجمال يخلق الخير والخير يخلق العدالة. وربما كان له في هذه الرومانسة الشعرية مآرب أخرى.

إن الطريق الذي سلكته لميا هو الطريق الذي سلكته كل أمازونة. تكون على العرش ربة أو ملكة ثم يأتي الرجل فيقضي عليها إما بالزواج أو الحرب

أو تشويه السمعة وتحويلها إلى وحش أوغول. وبعد أن يجعل ملكية الأولاد خاصة به، تثور الأنثى على هذا الظلم الذي يحرمها من الأولاد وتعلن الحرب عليه بطريقة أو بأخرى: حرب الأمازونات أو قتل الأطفال أو القتال عن طريق المكر والخديعة والإغراء أو نصب الكمائن والأشراك، أو الترصد في الأماكن الخربة... كل ذلك يدل على محاولة الأنثى استعادة ملكية الأولاد، الحق الذي كان لها من قبل.

في موقع Encyclopedia Methica ورد في التعديل الأخير ٧/٤/ ٢٠٠٢ أن لميا ظهرت أحيانا على شكل خنثى، أو شكل أقرب إلى الذكر. وهذا يذكرنا بزواج ليليت من آدم على شكل التوأمة السيامية. إنه إشارة إلى تقاسم السلطة بين الرجل والمرأة. وهي مرحلة لم تشع في كل الأصقاع، ولم تستمر أكثر من قرنين تقريبا. كانت التطورات لصالح الرجل فعصفت بهذه المرحلة.

ليليت وملكية الأطفال

في إحدى قصائد الشاعرة اليونانية «سافو» Sappho قالت لمنافستها «تعشقين الأطفال أكثر من غيلو». وغيلو Gello فتاة من جزيرة لسبوس قيل إنها توفيت ولم ترزق أطفالا، فصارت تنهض من بين الأموات وتطوف الأحياء لتلعب مع الأطفال. كان شغفها لا يوصف، فقد كانت تضم الطفل بذراعيها وتغيب معه في عتمة الليل. وصارت تتهم بخطف كل ولد يفقده أهله.

لكن هذه القصة التي لعب بها الفولكلور كثيرا، لم تبق على حالها في العصر البيزنطي، وإنما تحولت بحيث أصبحت مثل قصة ليليت مع الملائكة الثلاثة. ونجد ذلك في قصة سينيسيوس بعنوان «تفادي غيلو الشريرة والقذرة» وقد تحول اسم غيلو ذاته إلى Gylu وخلاصة القصة هي:

في عصر الإمبراطور تراجان عاشت امرأة تدعى ميليتين عانت من شرور غيلو، إذ سرقت لها ستة أطفال. وعندما حملت بالطفل السابع شادت برجا متينا. وفي أحد تلك الأيام أراد أخوة ميليتين وهم القديسون: سينيسيوس وسينس وسينودوروس أن يقوموا بزيارة أختهم، فرفضت أن تفتح لهم الأبواب، هي التي ذاقت الأمرين من غيلو، وقد استعانت في ولادتها السابقة باثنتي عشرة فتاة. ودار حوار قالت فيه: ألم أخبركم أني لن أفتح الأبواب ما دمت أربي ابني صغيرا؟

لكنهم لاموها لأنهم أخوتها، ففتحت لهم باب القلعة. وفي اللحظة التي عبر فيها الفرسان الممر فوق الخندق تحولت غيلو إلى فأرة صغيرة وقفزت في الماء، ودخلت القلعة وخطفت سابع الأولاد. فصاحت أختهم: ألم أقل لكم إني أربي الطفل وأخشى فتح الأبواب؟

صلى القديسون لله الأب فأرسل إليهم ملاكا، وأمره أن يلاحق غيلو حتى آخر الدنيا. وطفق الفرسان يلاحقون غيلو مع الملاك، فرأوها تلقي نفسها في البحر الأحمر. لكن القديس سينيسيوس قبض عليها في الوقت المناسب وأمرها أن تعلن الإله الذي تعبده والذي يمدها بهذه القوة، وأن تعيد إلى الحياة أطفال ميليتين السبعة. فأجابت بأن هذا مستحيل ما لم أرضع من ثدي أمهم. فرجع القديس سينودوروس إلى قلعة أخته وعاد بوعاء من حليب صدرها. فشربته الجنية وأعادت الأطفال بكامل هيئتهم.

وعلى غرار قسم ليليت تقول غيلو للقديسين «يا قديسي الرب لا ترجموني. أقسم بقرص الشمس وأشعة القمر أنه حيث يكتب اسمكم وأسمائي الإثني عشر والنصف (؟)، لن أدخل العتبة، بل أبتعد عن البيت آلاف الأميال.

إنها قصة ليليت ذاتها تقريبا. بيد أن دلالة الأطفال هنا أكثر وضوحا وصراحة. فهي لم تعد تقتلهم بل تحتفظ بهم. في كل التاريخ القديم لا نجد

عفريتا يخطف الأطفال. العفريتة هي التي تخطفهم. خلق الخيال الأدبي الصقوبة (مضاجعة الرجال ليلا) فخلق إلى جانبها الصقوب (مضاجع النساء ليلا) ولكنه لم يخلق ذكرا للعفريتة التي تخطف الأطفال. وهذا دلالة على أن ملكية الأطفال كانت الموضوع الأول والأهم في مرحلة الانتقال من سلطة الأم إلى سلطة الأب. وبالتدريج صار الأبناء يدعون بأسماء آبائهم لا بأسماء أمهاتهم، بعد أن صار للأبناء الذكور دور كبير في المجتمع الحربي، بعد أن كانوا مهملين في المجتمع النسائي، يدفنون أحياء في الضائقات لاقتصادية.

في المجتمعات المتطورة اليوم بدأت المرأة تسترد ملكية الأطفال بعد أن أخذت المؤسسة الزوجية تترهل ولا تنسجم مع التطورات العاصفة وضغط الحياة، وظهر نوع جديد من الزواج وهو المساكنة. وقد أخذ في الانتشار كثيرا في فرنسا بعد منتصف القرن العشرين، أو بالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية. أما في الولايات المتحدة فهناك أنواع عدة للزواج تربك العلاقات الاجتماعية والقانونية.

ليليت العربية

ماذا يفعل المقهور والمدحور؟ يغني. نعم يغني إذا لم يستطع استرجاع حقوقه المسلوبة أو المهدورة. وهذا ما فعلته الغالبية العظمى من النساء السومريات فالبابليات فالأشوريات فالفارسيات فالعربيات... إن المرأة التي لا تستطيع أن تكون أمازونة أو عفريتة ليلية أو سيرينة من السيرينات حتى تستعيد حقوقها، أو على الأقل حتى تنتقم من مضطهديها، تلجأ إلى الغناء.

أما أي نوع من الغناء، فإنه سيكون الغناء الهادئ الحزين. والأرجح أن تكون النساء السومريات قد ملن إلى هذا النوع من الغناء بعد أن هاجم جلجامش ليليت وطردها من شجرة الصفصاف مع أفاعيها. النساء المقهورات ينكببن على عملهن بعد أن انحصرن في المنزل والحقل وابتعدن عن المعبد والإدارة والإشراف على أقنية الري، وهن يردد الألحان الحزينة التي تروي

سيرة ليليت، أمازونة النهرين المتمردة، التي عاشت في البراري والأماكن المقفرة ولم تفرط بحقوقها. وغناؤهن يشبه غناء «الحاصدة الوحيدة» الذي وصفه وردزورث في المقطع الأخير من قصيدته:

ألا من يخبرني بما تغني؟
ربما تتعالى هذه الأنغام الحزينة
تتحدث عن ماض قديم بائس بعيد،
ومعارك انصرم عهدها منذ قديم الزمن.
أو قد تكون أغنية متواضعة تتحدث عن أمورنا العادية؟
فما في الحياة من عذاب أو حرمان أو شجن حقيقي
مما شهدته الحياة، ومما قد تعود وتشهده أيضا.
مهما كان الموضوع فقد صدحت العذراء
كأن أغنيتها بلا نهاية.

وأغنية ليليت، أغنية المهد، كانت بلا نهاية. فما تزال تتردد على أسماعنا كل يوم، منذ الفولكلور السومري الذي ابتكر أغنية ليليت.

كانت المرأة السومرية تضرع لليليت حتى تكون عينا ساهرة على الطفل، فينشأ بلا تعقيد ولا خوف. وكانت النساء يرددن فوق المهد لحنا ناعما يجلب النوم للطفل. والأرجح أن يترنمن: يا ليليت كوني عينا على الطفل. ومع التطور صارت : يا ليل يا عين. وعلى الرغم من تحويل ليليت إلى شيطانة ليلية تخنق الأطفال، ظلت نسوة سومر ينشدن أغنية المهد: يا ليل يا عين. وكن يسردن شيئا من قصة ليليت الربة ويجعلن اللازمة من هاتين الكلمتين. فلما صارت شيطانة تحولت القصة إلى حادثة أبطالها الغيلان وأشباح الليل. وجمع الفولكلور إلى ذلك قصصا عن الطيور وأدخلها على أغنية المهد.

كانت المجتمعات العربية أمومية. بل من آخر المجتمعات التي تحولت إلى الذكورة. وحتى القرن السابع كان الولد يذهب إلى خاله يتلقى على يديه التربية المثالية. وكان الفخر بالخال تقليدا عاما في الشعر والحياة العامة. أما الفخر بالأم فقد ظل حتى صارت القبيلة بحاجة إلى فرسان غزاة؛ فتحول إلى الفخر بالأب.

ودخل اسم ليليت إلى العربية فسميت الفتيات باسمها. وقد ظل اسم ليلى يتردد حتى أواخر العصر الأموي. في العصر العباسي تراجع هذا الاسم نتيجة ظهور الأسماء الأجنبية. فزمرد مثلا اسم لا وجود له في الحياة العربية، ولكنه كثر في العصر العباسي. واختفى اسم ليلى تقريبا، حتى جاء العصر الحديث فعاد وظهر بكثرة ملحوظة.

أما أغنية المهد الهادئة البطيئة اللحن فقد تغيرت كلماتــها في أعقاب التغيرات العميقة التي أصابت المجتمعات المتوسطية، وغير المتوسطية. ويصدح المغنون في هذه الأيام بأغنية المهد من دون أن يعلموا بذلك. فهم يرددون المواويل، التي تقوم على اللحن الهادئ لأغنية المهد، فلا يوجد موال عنيف اللحن سريع الإيقاع. كما يرددون الأغاني المختلفة مستخدمين في معظم الأحيان أغنية ليليت لتجميل أغانيهم فيتفننون بأداء «يا ليل يا عين» التي يعود لحنها إلى آلف السنين. إنهم يغنون يا ليل يا عين ولا يدركون المدى السحيق الذي تعود إليه، بل لا يعرفون ماذا يعني الليل ولا ماذا تعني العين. ولكن في هذه الأيام بدأت التغيرات تطرأ على هذا اللحن، ونشّز فيه بعض المغنين فشددوا من نبرته كأنه نشيد وطني. إن لحن «يا ليل يا عين» يقوم على البطء وإظهار شجن الصوت وحنان المؤدي، تماما كما يستدعي المهد. إن كل شيء يتغير حتى شعر ليليت المفرط في الطول بات "غارسون". ففي العصر العباسي كانت المغنيات يتشبهن بالغلمان في اللباس

وتصفيف الشعر. ومرت فترة في العصر الحديث كان الشعر الطويل موضة دارجة، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة. وثمة إحساس عميق لدى الفتيات بأن شخصيتهن تتجلى في شعرهن فيطلقنه ويتفنن في تسريحه. وكانت الفتاة تطلق شعرها، حتى إذا تزوجت قصت منه أو جعلته مثل المغنيات العباسيات اللواتي يقلدن تسريحة الغلمان.

كل شيء تغير إلا «يا ليل يا عين» فقد ظل اللحن محتفظا بهدوئه الذي يبرز ميزات الصوت البشري، على الرغم من طغيان الألحان الصاخبة والعنيفة. ولا ندري إلى متى سوف يستمر هذا اللحن، بعد هذه الآلاف من السنين التي قطعها من دون تغيير.

ليليت الغربية

هاجرت ليليت إلى الغرب واجتاح اسمها أوروبا بكاملها: ليلي، ليلى، لولا، لوليتا، لوليت، لولي، ليليان. ولاتزال أغنية المهد مستمرة حتى هذه الأيام وقد اشتقوا اسمها من ليليت. سموها Lullabay وأطلق على اللحن الذي يعد لهذه الأغنية بيرسيوس Berceuse وشرط هذا اللحن أن يكون هادئا يعتمد على مقياس إيقاعي ثنائي بسيط ولا يلحن إلا لآلة واحدة، تماما كما أن للطفل أما واحدة. إن أغنية المهد Cradlesong نوع موسيقي وطيد مثل السيرنادة والسمفونية. . . وكما تركت السيرينات اسمها في السيرنادة تركت ليليت اسمها في أغنية المهد Lullabay. وهي ذات رتابة واحدة، بينما السيرنادة ذات ألوان مختلفة مثل سيرنادة الحب وسيرنادة ضوء القمر، وسيرنادة الشجن ... وكانت السيرنادة في الأصل تقوم على اللحن الهادئ ولكن التطورات أصابتها في العصر الحديث فتسارعت إيقاعاتها قليلا.

وبعد أن شاعت عبادة ليليت في القرن السابع بين الأوساط النسوية اليهودية، شنت حملة ضد اعتبارها أصل العرق البشري الراقي، وعادت التعاويذ القديمة إلى الظهور. من هذه التعاويذ تعويذة ذات أصل فارسي:

أنتم مربوطون ومختوم عليكم
أيها الأبالسة والشياطين والليليات
برباط قوي متين
به ربط سيسون وسيسين.
ليليت الشريرة
التي تجعل أفئدة الرجال تنحرف
وتظهر في الأحلام الليلية
وفي أحلام اليقظة
التي تأتي مع الكوابيس
وتهجم على الأطفال وتقتلهم
لقد هزمت الآن وختم عليها
بعيدا عن المنزل
وعن عتبة بهرام-غشناسبابن عشتار-ناهيد
بتعويذة ميتاترون
الأمير العظيم
الذي يسمى الرحيم الشافي الأكبر
الذي يبيد الشياطين والأبالسة
والسحر الأسود وتمائم السحر القوية
فيبعدهم عن المنزل
وعن عتبة بهرام- غشناسب ابن عشتار- ناهيد
آمين، آمين، سلاه.

لقد انتهى السحر الأسود وتمائم السحر القوية
وأبيدت النساء الساحرات

هن وسحرهن وتعويذاتهن
ولعناتهن وتوسلاتهن
بعيدا عن الجدران الأربعة
لمنزل بهرام - غشناسب ابن عشتار - ناهيد
لقد أبيدت وسحقت النساء الساحرات
أبيدت في الأرض وأبيدت في السماء.
وانتهت أبراجهن ونجومهن.
وأعمال أيديهم قيدت.
آمين، آمين، سلاه.

إلى جانب هذه التعويذة هناك تعاويذ كثيرة من أصل فارسي وغير فارسي. ولكننا اخترنا هذه التعويذة لأنـها تشير إلى النساء وليس إلى ليليت وحدها. وبعد آلاف السنين يصدر كتاب «مطرقة السحرة» Malleu Maleficaruma ١٤٨٤ بقلم مفتشين دومينيكانيين من محاكم التفتيش وفي مقدمته قرار من البابا أنوسنت الثامن لتسعير هستيريا العداء لليليت وأنصار ليليت. فهو ضد كل ما يتعلق بالنسوية. وقد ترجم إلى كثير من اللغات وأعيدت طباعته مرات ومرات في الأقطار الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء. وفاقت مبيعاته - في ذلك الوقت - كل الكتب الأخرى عدا الكتاب المقدس. ومضمون هذا الكتاب لا يختلف عن القصيدة / التعويذة التي قدمناها والتي ترجع إلى آلاف السنين. وبعد أكثر من قرنين تقدمت ماري إيستي Easty في عام ١٦٩٢ بطلب استرحام من سلطات المحكمة في مدينة «سالم» الأمريكية. ولكن هذا الاسترحام لم يكن لإعفائها من حكم الإعدام الصادر بحقها وحق «ساحرات سالم» بل لتحسين أساليب الاكتشاف والتحقيق حتى لا يكون هناك ظلم. وتؤكد في مقدمة طلبها: «إن المتهِمين أنفسهم يعرفون أني بريئة» أما المتهَمون فكانوا في معظمهم من النساء.

لماذا لا يوجد إلا الساحرات؟ لماذا لا تلاحق إلا ليليت وأنصارها، مرة بتهمة عاهرة الطريق ومرة باسم قاتلة الرجال ومرة باسم خانقة الأطفال ومرة باسم غاوية ومرة باسم ساحرة...؟

وقد أشاعت محاكم التفتيش في أوروبا والسلطات الدينية في أمريكا اتهامات لا أساس لها من الصحة، مما يجعل الحملة الذكورية على الإناث مغرضة تكمن أسبابها في الصراع الكبير بين الفريقين على إدارة المجتمع. من هذه الاتهامات مثلا القداس الشيطاني والاجتماع مع الحيوانات والتآمر مع الأشباح الشريرة على تدمير البشر، وغير ذلك من الاتهامات السخيفة التي لا يمكن أن يقبلها العقل العادي، ناهيك عن عقل القاضي. وقد تبين فيما بعد أن «ساحرات سالم» أعدمن ظلما، فلم تثبت تهمة واحدة على أي واحدة.

تأويلات ليليت

لا يوجد تأويل واحد لليليت. وتعدد التأويلات – كالعادة – تدل أن هناك زوايا مختلفة، كل مؤول يـــختار زاوية وينظر منها. فهناك الموقف الديـــني أو الفولكلوري أو الجنسي (الذكر والأنثى) أو النفسي. وسنعرض بعض هذه التأويلات أو التفسيرات.

التأويل الجنسي:

وهو تأويل يرى أن الجنس البشري كان خنثى يجمع بين الذكر والأنثى، ويؤدي وظائفه من دون إلحاق ضرر بذاته. والولادات الذاتية سواء من بطة الساق أو من الرأس عند بعض الآلهة دلالة على أن الجنس البشري كان يشتمل في تكوينه على الجنسين المذكر والمؤنث معا وكان يعيش في انسجام مع نفسه. وليليت هي المؤنث الذي كان موجودا في الجنس البشري. وانفصالها عن آدم يعني السقوط أو عدم توازن التصرف البشري. ومع أن ليليت (الأنثى) انفصلت عن آدم إلا أن الذكر ظل يحتفظ بالأنثى وظلت الأنثى تحتفظ بالذكر، بدرجات متفاوتة حسب الأفراد.

ويستدلون على ذلك من سفر التكوين ١:٢٧ «فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم» فآدم في هذا الوصف هو رمز للنمط الأولي للإنسان. فلما فصل الإله الإنسان إلى نصفيه، كان لا بد أن يفصل كل شيء. مثلا فصل المياه عن الجلد وفصل أنثى الحيوان عن الذكر وهكذا. وهذا الانقسام (الذي يفسره بعضهم بأنه إشارة إلى أول تقسيم للعمل في البشرية) أدى إلى السقوط، لأن كل نصف لا يجد دائما النصف الملائم. وما نفور ليليت من آدم إلا لأنها لم تجد فيه النصف الملائم. والسقوط يعني عدم الانسجام، مما يؤدي إلى صراع، فكأن البشرية بدأت ملحمة دموية بسبب هذا الانقسام، فانقض قائين على هابيل، وما زالت القائينات تنقض على الهابيلات حتى أيامنا هذه. إن الجنس المنفصل هو السبب.

التأويل الفولكلوري

يميل التفكير الفولكلوري إلى الإيمان بواقعية الأسطورة، ولا يحاول أن يفلسف الأمور. وهو ينظر إلى ليليت باعتبارها صقوبة تضاجع الرجال ليلا. ولكنها ليست الوحيدة. كما أن ذكَرها يدعى الصقوب، وهو ليس زوجها. ولذلك لا فرق بينها وبين غيرها من المخلوقات الليلية. وقد بالغ التفكير الفولكلوري اليهودي في تضخيم خطر ليليت وبقية الصقوبات حفاظا على الطهارة، وإن شدد من ناحية ثانية أن الذنب ليس ذنب الرجل. والخطورة هي أن ليليت تتزود ببذورها من الرجال لتلد الأبالسة والشياطين. وحتى يشيع هذا التفكير الهلع في النفوس زعموا أن أبناء الرجل في الخفاء يأتون إلى بيته عقب وفاته فيظهرون مطالبين بالميراث. وقد استفاد بعض الخبثاء من هذا الفولكلور.

واستكمالا لذلك مال هذا التفكير إلى وضع التعاويذ والرقى فوق الأعتاب وعلى السرير أو قرب الفراش. وبالغ الناس في هذا حتى أنهم أحيانا

يكتبون التعاويذ المختلفة (إن لم تنجح واحدة نجحت الثانية) ويضعونها في كل منفذ من منافذ البيت، أي على العتبة وفي الشبابيك والنوافذ. وبما أن الفكر الفولكلوري بنية عنيدة، فقد استمرت هذه «الطقوس» حتى أيامنا هذه. وما زال محررو تعاويذ السحر المضاد منتشرين في العالم بأعداد متفاوتة بين بلد وبلد. وسوف يظل هناك خزان من الاعتقاد البشري الذي يؤمن بأن هناك كائنات «ليلية» حقيقية، تعمل ما تعمل لإفساد الإنسان وتدميره.

ولا ندري إذا كانت صورة البومة الممثلة لليليت ما تزال مستخدمة مثل استخدام أسماء الملائكة ضد ليليت أو أسماء القديسين ضد غيلو.

التأويل الكابالي

تعتبر بابل نموذجا لكل ما هو داعر وسيئ عند اليهود. إنهم يكنون لها حقدا بعيد الأغوار. وعملوا على تحطيمها وجعلها مأوى للبوم وموطنا للخراب. ولكنهم لم يكونوا محاطين بالبابليين وحدهم، بل كانت ثمة شعوب «وثنية» أخرى. وأخذت عاداتهم تختلف مع مرور الزمن عن عادات تلك الشعوب. وظهر التشدد عندهم. ولذلك جعلوا ليليت، ذات الأصل السومري، ليس تجسيدا لبابل وحدها، بل لكل الشعوب المحيطة بهم. وبما أنهم كانوا يرغبون في تحطيم بابل، مدينة العهر والفسق وأخطر الزانيات. . . فقد أضفوا هذه الرغائب على ليليت البابلية. زوجوها من آدم فرفضته، فجعلوها رمزا لكل ما هو داعر وعاهر وشرير.

ويعتبر هذا التأويل من باب الدعاية المضادة، أي بدلا من أن يكتفوا بإعلان مبادئ دينهم فقط، يقومون بمهاجمة الأديان الأخرى وفضح عاداتها السيئة وتصرفاتها المخالفة لأحكام الرب ووصاياه العشر. وهم بذلك يكسبون من طرفين، فمن جهة يحافظون على شعبهم متمسكا بما يريدون، ومن جهة ثانية يفضحون «نجاسة» الأديان الوثنية الأخرى وينفرون أبناءهم منها.

وقد نصحت الكابالية باستخدام كل الوسائل لدحر ليليت (أو قل بابل وشبيهاتها) دحرا يجعلها فعلا بعيدة عن المنزل اليهودي فيحافظون بذلك على نقاء أخلاقهم وعاداتهم وديانتهم...

التأويل النفسي

أبرز التأويلات النفسية الحديثة تعود إلى فرويد ويونغ وأدلر. وباتت نظرياتهم معروفة، من عقدة الخصاء (فرويد) إلى الين واليانغ أو الأنيما والأنيموس (يونغ) أو مركب النقص (أدلر) وهي تأويلات عامة لا تتعلق بليليت مباشرة. ولا بد لـــمن يريد الوصول إلى الرابط بين ليليت والنظريات النفسية الحديثة من أن يدرس ما هو عام، أي المرأة عموما.

وقد ظهرت دراسة موسعة عن المرأة في القرن الماضي، عرضت كل النظريات النفسية في المرأة، في كتاب بيير داكو "المرأة: بحث في سيكولوجية الأعماق" (صدر عن وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣)

هذه النظريات لا تسير في سياق واحد. ففرويد يركز على العضو الجنسي والشعور بالخصاء عند الفتاة، وكيف أن هذا «الجرح» «الدامي» يرتبط بالخجل والعار. . . بينما يركز يونغ على النظرية الطاوية المعروفة في الين واليانغ، ويرى أن «الأم الكبرى» هي نمط أولي ما زال يفعل فعله في النفس البشرية. ويرى داكو أن الجامع بين النظريات النفسية هو أن الرجل يمثل «الخارج» والمرأة تمثل «الداخل» ولهذا السبب تصاب المرأة بالهستيريا أكثر من الرجل بكثير.

هل تكون ليليت «داخل» آدم؟ هل هي ما يتمناه بينما حواء معطى واقعي اضطر أن ينسل منها بعد أن فشل في الوصول إلى الانسجام مع داخله؟ وهل هذا هو سبب فشل البشرية في خلق نظام سليم؟

التأويل اللغوي

لا يعرف بالتحديد متى جرت التغيرات على اللغة. ولكن من هذه التحولات يمكن الاستنتاج بأن السلطة كانت بيد المرأة. وقد ظهرت الأديان الذكورية في الشرق قبل الغرب بزمن غير قصير. يقال في الهند ويقال في الشمال الأوروبي، حيث دفعت موجات الصقيع الناس إلى هجرات نحو المناطق الدافئة، وعلى أثر هذه الهجرات ظهرت الأديان الذكورية في الشرق. معنى ذلك أن البدايات الأولى ظهرت في الغرب، والغربيون أو بالتحديد الهندأوروبيون هم الذين نقلوا العدوى إلى الشرق، فظهرت فيه أكثر مما ظهرت في الغرب.

وتأتي الأبحاث الأركيولوجية لتدعم هذه النظرية. فقد تبين أن الشرق كان فعلا تحت سلطة «الأم الكبرى» أو «الربة الكبرى» فالإلهات والملكات وكهنوت المعبد من النساء وليس من الرجال، بل إن الإشراف على الأقنية (وكانت قليلة ومحدودة) كان بيد المرأة، سيدة المعبد، أو الملكة، أو الكاهنة الكبرى. وما فعله غزاة الشمال في الشرق أنهم أضافوا علامة التذكير إلى اسم الربة أو أضافوا كلمة زوج . فكلمة بعل تعني الزوج. ومع الأيام صارت تطلق على الرب، فبدلا من أن تقرأ «زوج الربة» صارت تقرأ «رب الربة». وكلما تراجعت سلطة المرأة تحولت الكلمة من شيء إلى شيء. وكلمة eloah لا تعني الرب بل الربة. فأضاف الشماليون (اليهود) علامة التذكير im إليها فصارت elohim وهي تعني حرفيا «ذكَر الربة» وبتعاظم سلطة الأب ونجاحه في جعل ملكية الأبناء له، صارت كلمة الألوهيم تعني "الله" أو الرب.

لكن الأمور الأخرى لم تبق كما كانت، فلا بد من تغييرها لتنسجم مع المعتقدات الذكورية الجديدة، ولهذا السبب رفضوا تربية ليليت للأولاد واعتبروها ضد التربية الذكورية الحربية، فاتهمت بأنها تربية تخنق الأطفال،

أي تمنع علائم الرجولة، من جرأة وشجاعة، من الظهور. وتحويل ليليت من ربة مهد إلى شيطانة ليلية يخدم هذا الغرض تماما.

إن التغيير اللغوي لم يقتصر طبعا على ليليت، بل شمل الكثير من الربات. ونكتفي بمثالين: الأول من سومر والثاني من مصر. ففي سومر كانت الربة تيامات هي الأم الكبرى المعبودة في كل المناطق. والأم الكبرى تعني أنها أصل كل الأشياء وهي مياه المحيط التي في رحمها تخلقت الأشياء والكائنات. بعد التحولات التي طرأت على المجتمع صارت تيامات وحشا بحريا، أفعوانا شريرا، قام الإله مردوك بقتلها... إلى آخر الأسطورة ذات الدلالة العميقة على التحولات الجارية في المجتمع السومري.

والمثال الآخر من مصر وهو عن ست Seth إله العاصفة والصحراء والبراري المقفرة وكل ما هو شرير. وهو في تحولاته يشبه تحولات ليليت وتيامات. فهو لم يكن ربا بل ربة واسمه يعني الست أو السيدة وهي الكلمة التي شاعت من مصر منذ القديم وما نزال نقول «الست» حتى اليوم. وكانت هذه الربة ربة الحنان والمنزل وتأمين الاحتياجات المادية التي تمنع الجدب. مع الأيام وبتأثير التطورات الجارية صارت الأنثى ذكرا فتحولت الربة إلى رب بعد أن احتفظت في هذا التحول بالصفات السلبية التي أشيعت عنها.

وليليت تعني الهواء أو العاصفة وأطلق اسمها على الليل لأنها ربة مهد. ولم يكن هناك إله يقوم بخدمة المهد سواها. سرقوا اسمها وألحقوه برب سموه أنليل أي سيد الهواء، ولم يجعلوا لها بديلا، لأنهم لا يريدون للمرأة أن تربي الطفل على الأخلاق السلمية بعد حاجة المجتمع للمقاتلين. لقد ألغوا وظيفتها.

كانت اللعبة اللغوية سلاحا من جملة الأسلحة المستخدمة في الصراع بين الذكر والأنثى. وقد لعبت اللغة لعبتها وأثرت فعلا في تغيير مفاهيم

الناس، مما ساعد في الانتقال إلى المجتمع الذكوري حيث أخذت المجتمعات البطريريكية تظهر في العالم.

ليليت الحديثة

تغيرت ليليت السومرية عبر العصور. وبرزت في العصور الحديثة ليس بفضل الحركة النسوية فقط، بل بفضل النساء اليهوديات في الدرجة الأولى. أعلام كبرى من الحركة النسوية لم يذكرن ليليت ذكرا، مع أن المطالب التي تقدمن بها لا تختلف عما طالبت به ليليت. اليد البيضاء التي بعثت ليليت السومرية هي يد الحركة النسوية اليهودية، حتى كاد الناس يظنون أن ليليت مخلوقة يهودية حقيقية. فالمجلات والصحف ومواقع ليليت على الإنترنت تكاد تكون حكرا على الحركة النسوية اليهوية.

لا بد أن نشير إلى أن بعث ليليت حديثا استمرار لتقليد النساء اليهوديات من قبل. فاليهوديات الحديثات تمسكن بموقف يهوديات القرن السابع (بل السادس والسابع تقريبا) حيث عبدت ليليت وقدست. وسعى رجال الدين إلى تشويه سمعتها بأن زوجوها من الله وزعموا أن إسرائيل ستنحدر وتزول إن لم تعد زوجة الله القديمة. إن ليليت تمثل الخطر المباشر على سلطة الذكر.

الحركة النسوية الحديثة أذكى من اليهوديات السابقات، فلم يعبدنها حتى لا يكون ثمة استفزاز وتحد للرجل، وإنما أكرموها كربة ترمز إلى التمرد والحرية والاستقلال. وهن يرسمن الفرج على منشوراتهن. فصار مقدسا ما كان مدنسا، وصار فخارا ما كان عارا. وقد صنعن للربة تماثيل منوعة منها للتعليق على الجدار ومنها تماثيل توضع في إحدى زوايا البيت، ومصابيح تضيء المنزل، فيفيض النور من رأسها أو صرتها أو فرجها أو أي عضو آخر. وألفت الكتب ووجد الذكور في ليليت موضوعا إشكاليا، فخاضوا غماره وأدلوا بآرائهم المختلفة.

ولا ترى الحركة النسوية اليهودية في ليليت «لاوعي الرجل» كما يذهب بعض المحللين، فهي ليست «الداخل» وليست «الخارج» بل إنها كيان مكتمل تمثل الحرية والاستقلال والوقوف في وجه الإجراءات القمعية. صحيح أن المجتمعات الحديثة التي ابتعدت عن الأديان حتى يقال إنها مجتمعات الوثنية الحديثة، رفضت أي تقديس، لليليت أو غير ليليت، فقد أسقطت القداسة عن كل الأشياء. ولكن شخصية أسطورية مثل ليليت فرضت نفسها طيلة هذه القرون، لا بد أن تولى أكبر اهتمام. فهي ربة دون عبادة وإلهة من دون مذبح ، فعلت ما لم تفعله الشخصية الحقيقية، وأثرت كما لم تؤثر حركة نسوية بكاملها. إنها أشد واقعية من آلاف الحكام الذين مروا على البشرية وزال تأثيرهم بزوال أشخاصهم. إن ليليت ما تزال تعيش بيننا وتلهم الحركة النسوية اليهودية والعالمية معنى الحرية وعدالة الشراكة.

الفصل الرابع

ليليت والحركة النسوية الحديثة

المجتمعات الحديثة

يدخل العالم اليوم فيما يسمى «المجتمع الحديث» أو «المجتمع ما فوق الصناعي» أو «مجتمع المعلوماتية» أو «مجتمع العولمة» أو «مجتمع الموجة الرابعة».... إلى آخر ما هنالك من تسميات تختلف أحيانا باختلاف الباحث أو الموضوع... وكلمة الحديث كانت دائما مرافقة للتطور الاجتماعي والفكري. لكنها في هذه الأيام تكتسب أهمية خاصة، وتستدعي دراسة معمقة نظرا للسرعة التي يحصل فيها التغير الاجتماعي بعد ثورة المعلومات.

ليست المجتمعات كلها حديثة. فهناك مجتمعات لا ترتفع كثيرا عن مستوى أساليب الإنتاج البسيطة. وإذا أردنا الحصر قلنا إن هناك ثماني دول دخلت فعلا المجتمع الحديث. ومع ذلك نقول إننا في المجتمع الحديث على الرغم من أن أكثرية المجتمعات لا تعتمد على كامل الأساليب الحديثة، أو أن هذه الأساليب محدودة جدا. فمثلا تستخدم اللوكسمبوغ كمية من الحواسيب تعادل كمية الحواسيب التي تستخدمها إفريقيا برمتها، إن لم نقل أكثر. فالحداثة لم تقلص الهوة في تطور الشعوب، بل بالعكس. لكن يظن أن هذه الموجة من التطور سيكون لها شأن خاص ومعالجة خاصة.

إن أكثرية شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ما تزال ضمن إطار التخلف إلى هذه الدرجة أو تلك. ولكننا لا نستطيع إلا أن نقول إن العالم دخل المجتمع الحديث، لأنه سوف ينتشر بأساليبه، تماما كما انتشرت أساليب

أسلافه، من عبودية وإقطاع ورأسمالية... في كل أقطار الأرض... بل إن الكلام يجري اليوم عن «القرية العالمية».

هذا التغير في أساليب الإنتاج سوف ينعكس في أساليب التفكير، على الرغم من وجود الأيديولوجيات المختلفة، وبالأخص الأيديولوجيات الدينية، التي تعتنقها أكثرية عددية. قد تطول مدة الدخول الشامل في الحداثة إلا أنه دخول تفرضه على ما يبدو «الحتمية التاريخية» كما فرضت تشكيلات أخرى من قبل.

لن ندخل في مسألة الحداثة المادية، بل نلقي نظرة على السمة الرئيسية للاتجاه الفكري للمجتمع الحديث. هذه السمة هي «الوثنية الحديثة» وهي نزعة تسود المفكرين، في غالبيتهم العظمى. فما المقصود بهذه الوثنية؟

أطلقت الوثنية على الأديان السابقة للأديان الوحدانية التي افتتحتها اليهودية. زعموا أن الأديان السابقة تعبد الأوثان. بيد أن السبب الكبير لهذه التسمية يعود إلى أن الأديان السابقة كانت أديانا متعددة الآلهة. ففي المجتمع الواحد قد يعبد أكثر من عشرين إلها. ليس هذا المهم، بل المهم أنه لم تحدث حرب دينية قبل ظهور الوحدانية على الإطلاق. فما يسمونه اليوم «الحرية الفكرية» كانت متوافرة في الأديان الوثنية. وظهور إله جديد لم يكن يعني شيئا خطيرا يستدعي حربا مدمرة. وعلى هذا تكون الوثنية الجديدة مساوية للحرية الفكرية، في كل الميادين، وعلى الأخص في الدين.

لكن الطليعة الفكرية التي قادت العالم الحديث لم تكن تطرح أي موضوع يتعلق بالدين. كانت تعود إلى الطبيعة البشرية والقوانين الفيزيائية من دون أي «لاهوتية» أو إسقاط ديني. فداروين وسبينوزا وماركس ونيتشه وفرويد وسارتر وهيدجر والبنيوية وما بعد البنيوية ومعظم المفكرين الاشتراكيين والفوضويين لا يستخدمون أي لاهوتية في الموضوع المطروح. بل أكثر من ذلك، ربط معظم هؤلاء المفكرين التخلف الاجتماعي والفكري

والاضطراب والحروب بالأيديولوجيا الدينية، حتى أن مفكرا كبيرا من أمثال باكونين يزعم أن ثلاثة أشياء تسبب البؤس وتحول دون التقدم وهي الله والدولة والكنيسة.

والفرق بين الوثنية القديمة والوثنية الحديثة يكاد ينحصر في شيء واحد، وهو أن الطبيعة صار ينظر إليها باعتبارها خارج القوى الخفية، تخضع لقوانينها الخاصة، وليس للأرواح المجهولة من جن وأبالسة وآلهة. فالعاصفة اليوم تدرس كظاهرة طبيعية، لا كظاهرة تدل على غضب إله الريح أيولوس، وتدرس الأمواج البحرية دراسة موضوعية وليس باعتبارها أفراس بوسيدون. . . وما نسمعه على الشاطئ ليس غناء حوريات البحر. . . وحفيف الأشجار لا تسببه حوريات الغابة في لهوهن ولعبهن وهمسهن... كل هذه الأمور انتهت في الفكر الحديث، ولم يعد أحد يأخذ بها لتفسير ما يجري في الطبيعة.

إن الفلسفات التي نعيشها اليوم تعارض الأيديولوجيا الدينية معارضة صريحة وساخرة، وتعاملها باستخفاف شديد، كأنها لا تقر لها بجدارة الوجود. هذه الفلسفات ساعدت في عودة ليليت الحديثة، وقيام حركات كثيرة وقوية من النسوية feminism في معظم أنحاء العالم وعلى الأخص في العالم المتقدم.

يبدو من كلامنا كأن الرجل هيأ المناخ لقيام الحركات النسوية الحديثة. ولكن الوقائع تدل أن المجتمع الحديث ولد من نضال المرأة منذ القرن السادس عشر، أي بعد عصر النهضة بقليل. ففي ذلك القرن المشؤوم سيطرت العقيدة الدينية المتعصبة واستشرت سطوة محاكم التفتيش، ولوحقت النساء بتهمة الويكا wicca أي تعاطي السحر. وهي تهمة صحيحة، ولكن بأي معنى؟

كانت الأديان القديمة الأمومية مريحة للمرأة فظلت محتفظة ببقاياها على الرغم من ظهور أديان ذكورية جديدة. ومن هذه البقايا حب الطبيعة واحترامها والتعامل مع الأجرام معاملة قدسية، واستخدام النباتات البرية في

التداوي واستخراج السموم منها واستخدام هذه السموم من قبل الرجال والنساء معا. ومهما قيل في ذلك فإن أحدا لا ينكر أن موقف المرأة كان مناوئا لموقف الكنيسة، إن لم نقل إنه كان مناوئا لموقف الدين والإله الذكري المتربع على عرش هذه التراتبية الكونية والدينية. صحيح أن هناك سحرة أحرقتهم محاكم التفتيش، ولكن عدد الساحرات يزيد أضعافا بل عشرات الأضعاف، فكأن المقصود قمع الحركة النسوية التي كانت تحتفظ ببقايا الوثنية القديمة التي يناصبها الدين الجديد العداء. ولم يكن ذلك مقتصرا على الكاثوليكية، بل امتد إلى الأقطار البروتستانتية.وعلى الأخص في ألمانيا. عشرات الألوف أحرقن، وهي الطريقة الأولى المفضلة للإعدام، أو عذبن فمتن تحت التعذيب، في إسبانيا وحدها. ولم تلغ هذه المحاكم إلا بعد الثورة الفرنسية بأكثر من عشر سنوات. ويقدر عدد النسوة اللواتي صرعتهن محكمة التفتيش الإسبانية بثلاثين ألف امرأة. لقد دفعت المرأة ثمن مناهضة الدين الجديد وتمسكها بتقاليد من الأديان القديمة غاليا جدا. ومن هذه المناهضة توافر المناخ لطرح مسألة هذا الدين الذكوري القامع للمرأة، فلم يبق مفكر حديث إلا ناهض أو نقض أو نقد كثيرا من مواقف هذا الدين من المرأة. إن للمرأة فضلا كبيرا في قيام الوثنية الحديثة التي تتجلى في حرية التفكير. وإذا كانت الوثنية القديمة لم تعرف الحروب الدينية، فإن الوثنية الحديثة لم تتخلص من هذه الحروب، لأنها نجمت من الأديان الذكورية التي ما تزال تؤثر وتفعل حتى اليوم في أرجاء كثيرة من العالم.

ومع ذلك فإن التصدي للأديان الذكورية، وبالأخص من قبل الذكور، ساعد كثيرا في عودة ليليت، وسهل لها العمل لاستعادة قدسيتها ودينها القديم وإن بحلة من الحداثة التي تقوم على تنحية كل ما هو «سراني». بعض الحركات النسوية حاولت أن تقنع نفسها بأن الأديان الذكورية تؤيد المرأة وتكرمها، ولكنها على ما يبدو محاولات بائسة لم تقنع الحركات النسوية الكبرى التي تميل إلى النزعة الإلحادية ميلا كبيرا جدا.

إن الوثنية الجديدة فرشت البساط الأحمر لترفل ليليت وتعود إلى المجتمعات الحديثة.

الثورة الصناعية

انفجرت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، ولكنها في حقيقتها ترجع إلى القرن السادس عشر، قرن الصراع الديني بين الكنيسة والمرأة، حيث امتد هذا الصراع حتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث حوكمت "الساحرات" في مدينة سالم محاكمة ما تزال تعتبر مثلا من أمثلة الظلم الفظيع.

«تصنيع» الوثنية الحديثة هيأ الظروف لقيام علاقات جديدة ونظرة جديدة إلى الأمور. فالآلة لم تعد مسكونة بجني أو شيطان. وعندما ابتكرت الآلة البخارية ونجم عنها أدوات جديدة، شن عليها «المؤمنون» حملة شعواء باعتبارها عملا شيطانيا. وتمكنت «الوثنية الجديدة» من الانتصار على الرغم من قلة أنصارها، واندحرت النظرة القديمة. غاليلي ونيوتن وداروين خلقوا مناخا في أوساط المثقفين والمتعلمين لثورة فعلية وطدت الوثنية الحديثة.

انتصرت الثورة الصناعية برغم المعارضات الكثيرة والعنيفة، كما انتصرت نظرية غاليلي ونيوتن وداروين... وكانت إلى جانب المرأة، ولكن بأي معنى؟... بمعنى أنها نقلتها نقلة نوعية، كما نقلت سائر فروع الحياة الاجتماعية نقلة نوعية. أما النقلة النوعية للمرأة فهي انتقالها من المنزل، التي كانت سجينته، إلى المصنع والمعمل. صحيح أنها زادت من أعبائها فجعلتها تقوم بعمل إضافي إلى جانب عملها المنزلي والأمومي، ولكنها جعلت لها شخصية جديدة، صارت منتجة للقيم المادية، ولم تعد منتجة للأولاد فقط. إن الثورة الصناعية لم تخلق جيشا احتياطيا من الذكور فقط، بل أيضا من النساء والأولاد، مما أدى إلى نوع من الفوضى الاجتماعية وخلقت أجيالاً مضطربة قلقة، قبل أن تستقر الأمور نسبيا. ونعتقد أن المرحلة الأولى

لنضال الحركة النسوية تبدأ من الثورة الصناعية، حيث صار في مقدور المرأة أن تطالب بحقوقها في العمل والمساواة في السياسة والاقتصاد والإدارة... ولولا الثورة الصناعية لما سمعنا صوت المناضلة النسوية ماري ولستونكرافت Wollstonecraft يرتفع في هذا القرن مطالبة بالمساواة. إن «بيان حقوق المرأة» في عام (١٧٩٢) لم يكن ليظهر لولا الثورة الصناعية. وهو أول وثيقة من نوعها في نضال المرأة. لقد غدا اليوم وثيقة كلاسيكية في تاريخ المرأة الحديثة.

هناك نواح أخرى كثيرة أعقبت الثورة الصناعية في الفكر والعلاقات الاجتماعية وأساليب الإنتاج... وأشياء كثيرة أخرى. من أهمها أنها جعلت اللامرئي مرئيا، فهدير آلاتها الضخمة الجبارة طرد كل الأشباح والأرواح غير المرئية، وأجبر المتشددين من الكويكرز والمتطهرين أن يتعاملوا بواقعية لم تكن متوافرة في الذهنية القديمة. الأشباح صارت أجساما ملموسة، وتحولت إلى أوثان معبودة جديدة، وانجرف الناس وراء هذه الأشباح المتجسدة حتى لا يفوتهم القطار... احتفظوا بإيمانهم القديم أم لم يحتفظوا. بل يذهب ماكس فيبر إلى أن المتدينيين من البروتستانت هم الذين قدموا الإسهام الأكبر في توطيد علاقات الإنتاج الرأسمالية.

إن النظرة للثورة الصناعية على أنها أضافت ظلما فوق ظلم للنساء والأولاد، لا تخفي حقيقة أن هذه الثورة ساعدت المرأة على إبراز شخصيتها الجديدة كمخلوق قادر على الإنتاج المادي، ونحت جانبا النظرة التي كانت ترى أن المرأة مخلوق عاجز عن أي عمل سوى تربية الأطفال والاهتمام بشؤون المنزل. إن سيادة النظرة الدينية في العصور الوسطى أنسى الناس أنه كانت هناك مجتمعات أمازونية تشرف المرأة على كل مرافقها، وتمسك بالسياسة الخارجية وقيادة الجيوش، كما في حوض البحر الأسود وشمال إفريقيا. وكان المجتمع البربري نموذجا استمر حتى ما بعد القرن السابع الميلادي. إن عودة المرأة إلى العمل في الثورة الصناعية، بالرغم من كل

المساوئ، كانت خطوة تمهيدية لعودة ليليت الأمازونية إلى الظهور في المجتمع كمخلوق غير «ناقص» لا في العقل ولا في الجسد. وتؤدي في بعض الأحيان أعمالا شاقة جدا.

يقال إن الثورة الصناعية التي زادت الأعباء على المرأة شوهت «أنوثتها» وهذا صحيح لأن الأنوثة كانت تعني عند المتشددين أن المرأة «متاع» ليس أكثر. فالخروج من شخصية «المتاع» إلى شخصية جديدة يثير حفيظة المحافظين. كان الخروج مريرا ومؤلما، ولكنه كان لصالح الحركة النسوية.

الحروب الحديثة

لا غرابة في أن تكون الحروب الحديثة من جملة المؤثرات في شخصية المرأة على الرغم من كل سلبياتها ومآسيها. إنها تشبه الثورة الصناعية، فهي تورث الاضطراب والآلام عدا عن الدمار والخراب وإراقة الدماء دون مسوغ مقبول. وحتى نكون على بيّنة فيما يخص الحرب، سوف نتذكر قديمها ونقارنه مع جديدها لندرك مدى التأثير الذي تركته الحرب في شخصية المرأة الحديثة.

ظهرت الحروب القديمة بظهور الحصان. ولا نقصد ظهور هذا الحيوان كوسيلة للنقل والجر والحراثة. . . بل ظهوره كأداة من أدوات الحرب، بل الأداة الأخطر التي عرفها التاريخ القديم. ولو حصر استخدام الحصان في أعمال الحقل والشؤون المنزلية، لما ظهرت إمبراطوريات امتدت على هذه المساحات الهائلة من الأرض. قبل الحصان لم تقم إمبراطوريات، إن لم نقل لم تقم حروب أبدا. باستخدام الحصان كآلة حربية تغير مجرى التاريخ تغيرا تاما. كان الحصان دعما للرجل على المرأة. حاولت المرأة استخدامه، ولكن الظروف كانت قد تغيرت ودخل الحصان كعنصر منتج يجلب الثروات الهائلة والأراضي الواسعة ويقيم

الإمبراطوريات، ويفرض الهيبة على الخصوم... كان الحصان كل شيء تقريبا في العالم القديم. وقد اندثرت عدة شعوب ومجتمعات صغيرة لأنها لم تكن تملك من الخيل ما يدفع عنها الويل. فتوافر الخيول يعني توافر الخير، ونقصها يجلب الويل، والفناء في كثير من الأحيان.

منذ أن ظهر الحصان المحارب بدأت بلاغة جديدة تظهر، وبدأت إمبراطوريات ضخمة تتشكل. صارت المرأة في مكانة أدنى مما كانت، بل انقلبت صورتها انقلابا معكوسا. صارت تعيش على الهامش. وقد دفعت ثمنا باهظا في الحروب القديمة، سواء في الشرق أو في الغرب. إن ظهور الحصان المحارب أدى إلى قيام نظام عالمي هو العبودية. فقد وفرت الحروب قوى إنتاجية مجانية. وفي قلب هذه العبودية كانت المرأة تعاني من عبوديتين إن صح التعبير، عبودية الرجل وعبودية الحرب. إن آلاف الأسرى والسبايا ينتقلن بعد الحرب من بقعة إلى أخرى، فتتكبد النساء في هذا أضعاف ما يتكبده الرجل. إن الحروب المصرية الفارسية وحدها تدل على الأوضاع غير الإنسانية في تلك الفترة. لم تنشب حرب من الحروب إلا دفعت المرأة ثمنا باهظا. وقد ساق الملك الأشوري أسراه من فلسطين إلى بابل بأغلال في أعناقهم. وسارت النسوة حافيات بعد أن بليت النعال. ويمكن تعميم هذا على كل الحروب، حتى الحروب الدينية التي يفترض أن تكون أرحم بالبشر من غيرها، نظرا لغاياتها السامية في إشاعة مبادئها الداعية إلى التسامح. إن قيام الإمبراطوريات أوقع خسارة كبيرة في المرأة. وفي عودة موسى بن نصير من الأندلس أحضر للخليفة الوليد أكثر من خمسة عشر ألف من السبايا الإسبانيات العذارى، وقد قطعن معظم الطريق حافيات القدم حاسرات الرأس، يتعرضن للحر والقر أثناء الطريق، مات من مات منهن وبقي من بقي. فإلى جانب العبودية التي يعانين منها هناك معاناة كونهن «متاعا» لا يختلف عن أي متاع آخر. وباختصار نقول إن الحروب القديمة ساهمت في جعل المرأة متخلفة كثيرا وحصرتها في شغل المنزل. ففي أماكن السكن التي تكون على

طريق الجيوش لم تكن المرأة تظهر حتى في الحقل. وقد بنيت مخابئ في المنزل لتحاشي الوقوع في الأسر أو السبي. وقد بلغت الأمور في الإمبراطوريات حدا جعل بيت الحريم العربي يغص بفتيات من كل الجنسيات من السند والهند ومصر وأذربيجان والروم والأرمن والزنج... ويحكى عن بيت الحريم أيام المعتصم ما يحكى.

ما جرته الحرب القديمة على المرأة لا يمكن تغطيته حتى بعشرات المجلدات. إننا نثير الموضوع إثارة. أما الحروب الحديثة، فقد ظهرت بظهور الأسلحة النارية، أو بظهور الحصان الآلي من مدرعة ودبابة وغير ذلك. مرت فترة انتقال بين الأسلحة النارية الخفيفة والأسلحة الحربية الثقيلة. وبهذا الانتقال تم الانتقال من الإمبراطوريات القديمة إلى الإمبراطوريات الجديدة. ويؤخذ مسعى نابليون كنموذج لهذا النوع من الإمبراطوريات.

في الحروب الجديدة لم يعد هناك سبايا. هناك أسرى. وحتى الأسرى كانوا من الجنود المقاتلين وليس من السكان. إن غزو نابليون لروسيا لم يسفر عن أي أسير مدني، كما أن الغزو الألماني في الحرب العالمية الأولى، أو الثانية، أو أي غزو لدولة أخرى، لم يسفر عن أسر المدنيين، باستثناء التصرفات العنصرية التي طالت الجنسين. لقد فرضت الحرب الحديثة إيقاعها وقوانينها التي صيغت فيما بعد. إن الانتقال من الحصان إلى الدبابة كان انتقالا من الكولونيالية القديمة إلى الإمبريالية الجديدة، ولكل قوانينه ولكل تقاليده. إن مجرى الأمور يجعل قوانين الأشياء محتومة.

كانت الحروب الحديثة في صالح المرأة، ولكن ليس بمعنى أنها أنصفتها أو رفعت الظلم عنها أو ميزتها عن الرجل أو أعادت إليها حقوقها المغتصبة من المجتمع الذكوري، وإنما بمعنى أن المرأة صارت ضرورة من الضرورات التي تتطلبها الحرب. صارت الدولة تسعى وراء المرأة في الحروب لتسد الكثير من المهمات. منها المهمات الإدارية، بعد النقص

الخطير الذي تسببه الحرب للإدارات، ومنها المهمات الصحية في المستوصفات والمشافي، ومنها المهمات اللوجستية، فمعظم ثياب الجنود كانت تخرج من الورش النسائية بنسبة لا بأس بها، وكذلك البطانيات والأشياء الضرورية للمحارب. لقد أجبرت الحرب الحديثة الدولة أن تعتمد على المرأة في الأعمال التي تشغر إداراتها، وكذلك في الأعمال اللوجستية التي تتطلبها الحرب.

الفرق كبير جدا بين الحرب القديمة والحرب الحديثة. بين السبايا وبين العاملات. كما أنه فرق كبير من حيث الموقف من المرأة. ففي الحرب القديمة يقدم الأدب لنا المرأة باعتبارها سببا للحرب، لا ضحية لها. وقد ظلت هذه الفكرة حتى أيام نابليون الذي قال "فتش عن المرأة". وقد جعل الأدب القديم المرأة سببا للحرب معتمدا على ذهنية سائدة بأن المرأة مثيرة للفتنة والشغب مثل أي مخلوق شيطاني، سواء كان ذلك بوعي أو بجهالة. وحرب طروادة استمرت عشر سنوات من أجل استرجاع هيلين الإغريقية. ولكن في الحرب الحديثة لا وجود للمرأة ولا تلعب هذا الدور المسبب... لا في الواقع ولا في الأدب. إن دور المرأة في أدب الحرب الحديثة مختلف كل الاختلاف عن دورها في أدب الحرب القديمة. وسبب هذا الاختلاف نابع ليس من تغير الواقع والعلاقات الاجتماعية فقط، بل من الذهنية التي تخلصت من الأفكار الدينية عن المرأة بأنها سبب الشرور والآثام والفتن، وأنها شريك الشيطان في كل عمل شرير. إن قيام الدولة الحديثة بحد ذاته ساعد في تلاشي الأفكار الغيبية المسبقة عن المرأة. صارت هناك نظرة أخرى بعد قيام هذا الكيان الحديث في إدارة المجتمع.

وفي الآداب الفولكلورية القديمة تكاد المرأة تلعب الدور الأوحد في سبب الحروب. ودائما يكون الحب والحرب توأمان لا يفترقان في هذه الآداب. وتسند أدوار المكر والحيلة والخديعة لكثير من النساء، البطلات منهن والشخصيات الثانوية. وقدم المؤلفون الشعبيون الفولكلوريون المرأة

بحسب المواصفات الدينية وابتكروا القصص الدالة على ذلك، كما في تغريبة بني هلال وعلى الزيبق والزير سالم... وتحتشد القصص القصيرة في الفولكلور الشفوي عن «كيد النسا» و«مكر النسا» و«حيل النسا» و«خيانة النسا»... بينما الأدب الحديث شيء آخر. والمقارنة تحتاج إلى الكثير من الجهد. ففي الأدب الحديث يختلف الأمر كثيرا.

الرياضة الحديثة

الإغريق هم أعظم الشعوب الرياضية معرفة وممارسة وفلسفة. كان للرياضة فلسفتها الخاصة، فكانت من أهم الأساليب التربوية المتبعة في المدن اليونانية. ويعتقدون أننا باللعب يمكن تعليم الفتى ما لا يمكن أن يتعلمه في غرفة الدرس. ومن هنا كانت الحصص المدرسية الصرف محدودة جدا. وقد ابتكروا كثيرا من الألعاب التي تمارسها البشرية حتى يومنا هذا.

أهم الألعاب هي الألعاب الأولمبية التي تقام تكريما لكبير الآلهة الأولمبية زيوس. وكانت تقام كل أربع سنوات وتشترك فيها جميع المدن اليونانية، فهي ليست ألعابا محلية. يقال إنها بدأت في القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت حتى أواخر القرن الرابع بعد الميلاد، ومنعت على يد الإمبراطور تيودوسيوس الأول خاضعا للضغوط الكبيرة التي مارسها عليه المسيحيون الذين وجدوا فيها «وثنية» تسيء لدينهم المقدس الوحداني. وقد ارتكبت مجازر شعبية في الأعياد الأولمبية في كل العالم المسيحي، وعلى الأخص في الإسكندرية وأبيد الألوف من «الوثنيين» الذين كانوا يعتبرونهم كفرة فجرة. فاضطر الإمبراطور إلى منع هذه الألعاب.

كانت المرأة اليونانية القديمة تشارك في كل شيء، حتى في رياضة المصارعة مع الرجال. لكن مع تعاظم الأيديولوجية الذكورية بدأ دورها ينكمش أكثر فأكثر. إن المباراة التي ساهمت بها الصيادة وفتاة البراري أطلنطا كانت آخر ما وصلنا من أدب عن حرية المرأة في أوائل توطيد

النظام الأبوي. بعد ذلك لم نسمع قط أن امرأة اشتركت في سباق أو رياضة أو دخلت مباراة. كان محرما على المرأة أن تشترك في الألعاب الأولمبية. بل كان محرما عليها أن تذهب إلى ساحة المباريات وتشاهد المتبارين. كان للمرأة ألعابها الخاصة بها التي يسمونها «هيرايا». كانت الألعاب الأولمبية – وغير الأولمبية – محرمة على النساء. وفي أواخر القرن الرابع الميلادي حرمت الألعاب برمتها على اعتبار أنها «وثنية» وظل التحريم معمولا به طيلة العصور الوسطى . ومع أن القرون التالية للعصور الوسطى عرفت شيئا من التقدم في مجال الاكتشافات والاختراعات والتغيرات السياسية والاجتماعية إلا أن الألعاب الأولمبية لم تعد إلى المتابعة إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٩٦ فأقيمت أول دورة أولمبية حديثة في أثينا باليونان بفضل جهود البارون بيير دي كوبيرتان. وكانت الدورات الثلاث الأولى محدودة من حيث الدول المشاركة. وتعتبر دورة لندن ١٩٠٨ بداية الدورات المنظمة الناجحة. وفي الدورة التالية عام ١٩١٢ شاركت المرأة في الألعاب الأولمبية واستمرت في الاشتراك، وساهمت في ألعاب لم تكن تمارسها طيلة قرون طويلة. بل صارت اليوم تشارك في ألعاب كرة القدم والملاكمة والمصارعة ورفع الأثقال... وهناك قصة مثيرة في رياضة الطيران عن أميلين إيرهارد Earhart فقد كانت أول امرأة تقوم بالطيران فوق الأطلسي عام ١٩٣٢ وفي عام ١٩٣٧ أزمعت أن تطير حول العالم ولكن طائرتها اختفت في ظروف غامضة، وما تزال حتى اليوم غامضة.

الرياضة بالنسبة إلى المرأة تعني الخروج من السجن. إنها تشبه في هذا دخول المرأة ميدان العمل. حتى وقت قريب لم تكن بعض البلدان تألف وجود امرأة في دائرة حكومية، بينما اليوم يجري تأنيث التعليم الابتدائي والإعدادي. وفي منتصف القرن الماضي نصب مخيم سيرك في إحدى مدن العالم الثالث فهبت المظاهرات تنادي بإلغائه وتطلق الشعارات الدينية المعادية لاشتراك المرأة باعتبارها كفرا وخروجا على الدين وتحديا للتقاليد الموروثة.

وقد أضرم المتظاهرون النار في بعض الخيام، إلا أن الدولة على ما يبدو كانت تعرف مسبقا بهذه التصرفات فتداركت الأمر وأخمدت النار والفتنة، ومنع السيرك من تقديم ألعابه.

إن ظهور المرأة بثياب الرياضة يعني بحد ذاته حدثا جللا، بعد العصور الوسطى التي فرضت على المرأة نوعا من اللباس يغطيها من رأسها حتى أخمص قدميها. وإذا عرفنا أن الإغريق، وهم من أرقى شعوب الأرض، تراجعوا عن السماح للمرأة في مشاركة الرجل في الرياضة، علمنا إلى أي درك وصلت النظرة إلى المرأة. إن الرياضة في العصر الحديث دعمت نضال المرأة إلى حد بعيد، وجعلت ثقتها بنفسها تزداد أكثر فأكثر. إن الرياضة «ظرف» إيجابي كبير لعودة ليليت إلى المشاركة في الحياة الجديدة.

المرأة والأدب الحديث

في المجتمع الأمومي كانت المرأة كل شيء. فهي الربة وهي المدبرة لشؤون المعبد وهي الكهنوت وهي المشرفة على نظام أقنية الري والسقاية، وهي التي ترفع لها الصلوات ويتلى باسمها القدّاس. أما القول إنها كانت محاربة في ذلك المجتمع فإنه قول يحتاج إلى كثير من التمحيص، لأن المجتمع الأمازوني ظهر ردا على المجتمع الأبوي الذي جاء وجاءت معه الحروب والإمبراطوريات. قبل ظهور الحصان الحربي لم نسمع بحرب، فالأمازونات رد على انتزاع الرجل لحقوق المرأة.

في المجتمع الأمومي الأولي كانت المرأة تعني كل ما هو مقدس، وناعم وشاعري. والصلوات التي رفعت للربة لتدمير الرجال وقدمتها في صورة حربية وانفعالات ساخطة، هي صلوات متأخرة للوقوف في وجه القيم الجديدة التي جاء بها الرجل. فالعبادات كانت كلها للمرأة قبل استيلاء الرجل على سلك الكهنوت وقبل تنصيب زوج الربة إلها، إلى جانبها، ثم منفردا بالعبادة دونها.

انتقل المجتمع إلى سلطة الرجل. ولكن الأدب، وهو من أنواع البنية العنيدة التي لا تتغير بسرعة، ظل يمارس تحت سلطة الأب ما كان يمارسه من قبل. وآخر مجتمع انتقل إلى سلطة الأب هو مجتمع الجزيرة العربية، حيث الوقوف على الأطلال يعني البكاء على معابد الربة التي كانت منتشرة في كل بقعة من بقاع الجزيرة العربية. الوقوف على الأطلال ليس تشبيبا ولا تغنيا بحبيبة واقعية، إنه غزل، أي طواف حول معبد الربة. تغير الطقس ولم تتغير الكلمة. ومن هنا نفسر كثرة الشعراء الجاهليين الذين وقفوا على الأطلال حتى لا نكاد نستثني أحدا. إنه رثاء العصر الأمومي، حيث كانت المرأة كل شيء. كان الشاعر يرى أطلال معبد الربة حيثما توجّه. ومهما كان الغرض من شعره، فإنه لا بد أن يتوقف عند هذا المعبد أو ذاك جريا على عادة قديمة جدا. واسم «القصيدة» نفسه يعني الذهاب إلى المعبد لتقديم طقوس العبادة. فكلمة «قصد» أو «قصيد» مرتبطة بالمكان وليس بشيء آخر. فنقول قصد مكان كذا. ثم صارت الكلمة تستخدم في المجردات فنقول قصدت إرشادك وليس تأنيبك. ومن هنا سميت القصيدة قصيدة لأنها نوع من قصد المكان أو الحج إلى معبد الربة المقدسة.

تـــغيرت الظروف وساد الرجل وفرض قيمه على المـــجتمع الجديد، وخاض الحروب وشكل الإمبراطوريات، وامتلك السبايا والجواري، وتمتع بالمغنيات، ونظر إلى المرأة على أنها «متاع» ليس أكثر. لكن القصيدة لم تكن مطواعة، ولا مرنة حتى تتغير بهذه السرعة. لقد استغرقت فترة طويلة جدا.

ومن هنا نفسر التناقض بين المرأة في الأدب والمرأة في الواقع. ظلت في الأدب تحتفظ بتلك الهالة العظيمة من الحب والقدسية، بينما راحت تعاني من الاضطهاد في الواقع. ولا عجب إذا كان جرير يرفض البكاء على زوجته التي يسميها بالحبيب، لأن ذلك بات عارا:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولا عجب إذا كان البحتري يضطهد امرأته في البيت بينما يقول فيها أجمل المطالع:

أيها العاتب الـذي ليس يـرضى نم هنيئا فلست أطعم غمضا

إن بي من هواك وجدا قد استهـــلك نومي ومضجعا قد أقضا

ليست هذه الناحية خاصة بالأدب العربي، فحتى في العصور الوسطى لا بد أن تكون هناك امرأة تكون محور أي نوع من أنواع الأدب: الشعر والرواية والمسرحية. ويقال إن المرأة متخلفة لأنها لم تنجح في كتابة الأدب. ولكن الواقع أنه ليس تخلفا بمقدار ما هو موقف. فالانتقال من مجتمع أمومي إلى مجتمع أبوي يجعل المرأة تلجأ إلى السلاح، كما فعلت الأمازونات، وليس إلى الشعر، لأنها لا تجد في الرجل ما يجده الرجل فيها. إن المرأة هي الأدب في التاريخ القديم. والمزارات التي كانت هي مزارات للمرأة وليس للرجل. إن مزارات الرجل لم تنتشر إلا في حقبة متأخرة. ومع ذلك لم يكثر الشعراء من الوقوف عليها حتى اليوم. والتغزل بالرجل، صاحب المقام الديني، قليل جدا من جهة، ولا يرقى إلى مستوى التغزل بالمرأة.

في الأدب الحديث اختلفت الأوضاع كثيرا. لم تعد المجتمعات الحديثة، وهي مجتمعات وثنية بالمعنى الذي أشرنا إليه، تولي المرأة تلك القدسية التي كانت لها في الأدب القديم. سادت النظرة الواقعية سيادة كاملة. ففي الشعر مات الغزل والحب، بعد أن تكفلت الأغنية الشعبية بالحفاظ عليهما. وفي الرواية صارت المرأة كائنا بشريا عاديا، لا ينظر إليها وهي في هالتها القدسية بل في تصرفاتها البشرية العادية.

بعد سيادة النظرة الواقعية دخلت المرأة ميدان الكتابة الأدبية. لكن ما قدمته عن المرأة يختلف عما قدمه الرجل في الأدب القديم. وقد التقت في هذا

مع كتابات الرجل نفسه في هذا العصر. وسوف نكتفي بثلاثة أمثلة لإبراز ما نريد الوصول إليه:

كتاب مدينة السيدات: وهو من تأليف كريستين دي بيسان de Pisan في بداية القرن الخامس عشر. وقد بنته على قصة بوكاشيو «النساء الشهيرات» وجعلته في ثلاثة أقسام. الأول يروي قصة إحدى عشرة سيدة في ميادين السياسة والمجتمع والخدمة العسكرية. وثماني عشرة سيدة كنماذج للتعلم والمهارة وأربع سيدات كنماذج للحكمة. وفي القسم الثاني سيدات يمثلن السلوك الرفيع والفضائل الراقية. وفي القسم الأخير تقدم مناقشة موسعة لقضايا المرأة. إن كل هذا الأثر لا يحتوي على نفحة واحدة مما عرفناه في الأدب القديم.

البوسطونيون (أهالي بوسطن): وهي رواية في ثلاثة مجلدات كتبها رجل هو هنرى جيمس بين ١٨٨٥ – ١٨٨٦ واقتبسها من رواية الكاتب الفرنسي ألفونس دوديه «المبشر الإنجيلي» Evangeliste وفيها معالجة واقعية للمرأة. يعالج النزعة السحاقية ويعتبرها انحرافا. فالداعية النسوية شانسيلر تظن أنها وجدت في فيرينا تارانت، المرأة الجميلة المدافعة عن حقوق النساء، روحا مناسبة لها. لكن فيرينا تعلق برانسوم، وهو رجل فاضل لكنه رجعي مقيت، وتتزوجه تاركة شانسيلر مهملة فتبعدها عن طريقها. إن جيمس يسخر من الحركة النسائية وأفكارها المتطرفة، بكتابة موغلة في التصوير الواقعي لجزئيات الحياة اليومية.

المندرين: وهي رواية لسيمون دي بوفوار، الداعية النسائية الشهيرة. فيها تتحدث حديثا واقعيا جدا عن آن دوبريل وزوجها، في محاولة لخروج المثقفين من إطار النخبة بعد تجربة المقاومة والحرب العالمية الثانية. ثم تنتقل إلى علاقة آن بالأمريكي لويس بروغان. ولا تختلف هذه الرواية عما جرى مع سيمون نفسها. فآن هي نفسها سيمون وزوجها هو سارتر نفسه،

ولويس بروغان هو الروائي الأمريكي نلسون ألغوين التي أقامت معه بوفوار علاقة جنسية، وهي في أمريكا.

اخترنا هذه الأمثلة من فترات ثلاث: القرن الخامس عشر ثم القرن التاسع عشر وأخيرا القرن الماضي، التي وصلت شهرة بوفوار فيه إلى ذروتها، في الحركة النسوية وفي الأوساط الثقافية. وهذه الآثار متقاربة جدا من جهة، ومختلفة جدا عن صورة المرأة في الأدب القديم. إن دخول المرأة في العصر الحديث ميدان المساهمة الأدبية لم يحافظ على الصورة المثالية الراقية للمرأة في الأدب، بل قدمها في حياتها اليومية الواقعية، وطرح قضايا جنسية لا ميزة فيها للإنسان على الحيوان.

هذه مسائل شائكة تحتاج إلى وقفة متأنية وواسعة جدا. كل ما نريد قوله في هذا الصدد أن ما كسبته المرأة في الواقع خسرته في الأدب. كانت من قبل بائسة واقعيا، مقدسة أدبيا، واليوم تنال حقوقها واقعيا وتخسر صورتها المقدسة أدبيا.

بعيدا عن هذا الطرح، نلاحظ أن المرأة كسبت من الأدب واقعية قضاياها. لم تعد صورة زاهية في الأدب بينما تعاني البؤس في الواقع. صارت تظهر في الأدب كما تظهر في الواقع. والقضايا المطروحة هي قضاياها الواقعية، وإن اشتطت بعض الكاتبات في دعوات الحرية، إلى حد المطالبة بقتل كل الرجال، كشرط أساسي لتحرر المرأة. ومثل هذا الطرح ساعد في رسم سياسة نسوية واقعية في معظمها، وانفعالية أحيانا.

ولكن من جهة ثانية نتوقع أن تسير صورة المرأة في الأدب إلى ما دون الواقعية. أي إلى طرح صورة تحمل نزوعا متطرفا. فتكون المرأة بذلك قد انتقلت من اليمين المتطرف إلى اليسار المتطرف، من القدسية إلى منتهى الواقعية المشوهة لمثال المرأة. ترى هل ثمة توازن بين بؤس الواقع ومثالية الأدب، بحيث كلما هبطت كفة ارتفعت كفة أخرى؟

المرأة والفلسفة الحديثة

ساعدت الفلسفات الحديثة المرأة في إحراز تقدم ملموس على الصعيد الثقافي. إن «الوثنية» الجديدة في الفلسفات الحديثة هي التي ساعدت المرأة. والوثنية هنا لا تعني الابتعاد عن الغيبيات والميثولوجيا فقط، بل تعني أيضا الواقعية كما في الأدب الحديث. كلها فلسفات إلحادية إذا نظرنا إليها من موقف ديني، بل هي دين جديد، ينطبق عليها كثير من مواصفات الدين الذكوري، ولكنها ليست دينا ذكوريا صرفا. إنها على الأقل تنظر نظرة واقعية إلى المرأة والرجل.

ربما كانت الماركسية أقوى الفلسفات في العصر الحديث. وقد طرحت مسألة المرأة كما طرحت مسألة الرجل سواء بسواء، فهي ترى أن تغير العلاقات الاجتماعية بعد تغير أسلوب الإنتاج الرأسمالي سوف يؤدي إلى تحرر الرجل والمرأة معا. جاء في «البيان الشيوعي»: «والآن اسمعوا البرجوازية تصيح من كل جانب: إنكم أيها الشيوعيون تريدون إشاعة المرأة.

«ليست امرأة البرجوازي عنده سوى أداة إنتاج. وهو يسمع أن أدوات الإنتاج يجب أن تكون مشتركة، فيستنتج من ذلك بالطبع أن النساء أنفسهن سوف يسري ذلك عليهن

«ولا يدخل في وهم البرجوازي أن المسألة هي على العكس تماما، وأننا نريد إعطاء المرأة دورا غير الدور الذي تقوم به الآن كأداة إنتاج بسيطة.

«ولشد ما يضحكنا هذا الذعر فوق الأخلاقي الذي توحيه إلى البرجوازيين إشاعة النساء الرسمية التي يزعمون أن الشيوعيين يدعون إليها. ليست بالشيوعيين حاجة إلى إدخال إشاعة النساء، فهي تقريبا كانت دائما موجودة. ولا يكتفي البرجوازيون بأن تكون تحت تصرفهم نساء

البروليتاريين وبناتهم – عدا البغاء الرسمي – يجدون لذة خاصة في إغواء بعضهم لنساء بعض.

«ليس الزواج البرجوازي في الحقيقة والواقع سوى إشاعة النساء المتزوجات. فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن هو أنهم يريدون، كما يزعم، الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء والمغطاة بالمداجاة، بإشاعة صريحة رسمية. ولكن من البديهي الواضح أن محو علاقات الإنتاج الحالية يؤدي، بطبيعة الحال، إلى محو إشاعة النساء التي تنتج منه، أي إن البغاء، سواء أكان رسميا أم غير رسمي، يزول ويضمحل» (الفصل الثاني: البروليتاريون والشيوعيون)

هذا المقطع الصريح والواضح يلخص تقريبا، كل موقف الفلسفة الحديثة من المرأة: الفوضوية والوجودية والبنيوية. أما الفرويدية فإنها تختلف عن الماركسية قليلا في هذه الناحية. ولكن الكتاب المتأخرين لم يروا فارقا يذكر بهذا الصدد، وبالأخص في النصف الثاني من القرن الماضي، من أمثال ألتوسير ولاكان ورايش...

وثمة ما يشبه الإجماع على أن التحرر المادي، أو الاقتصادي هو بداية التحرر الحقيقي، ليس للمرأة بل للإنسان. والمناداة بتحرير المرأة ماديا كأنما يفترض أن الرجل متحرر ماديا. طبعا ليس التحرر المادي وحده كافيا لقيام مجتمع سليم معافى. أشياء وأشياء كثيرة لا بد منها. وعندما تشدد الماركسية على هذه الناحية فإنها تضع المهاد الأساسي للتحرر الاجتماعي.

ولا تختلف الفوضوية عن الماركسية في هذا الموقف، سوى أن الفوضوية ترى أن الإرادة الحرة للبشر هي التي تصوغ مجمل النظام الاجتماعي الذي تتحقق فيه الحرية، للمرأة والرجل معا. وأي تدخل للدولة يعني أن الفساد يدب في كل ميدان تطأه قدماها. كان باكونين، وكروبتكين أيضا من أشد أعداء تدخل الدولة في تحديد العلاقات التي يجب أن تربط

الناس، بعضها ببعض. وقد لاقت الفوضوية رواجا كبيرا في أمريكا الشمالية والجنوبية. ولا تزال الحركة النسوية الفوضوية في إيرلندا من أقوى الحركات في العالم.

أما الفرويدية، فمع إيمانها بضرورة التحرر المادي للجنسين، ترى أن الإنسان مبني على عقد نفسية، من جراء العصور التاريخية التي قامت على القمع الجنسي. وبالطبع هذه هي العصور التي ساد فيها الذكر وفرض قيمه الأخلاقية في العيب والحرام والمحظور والممنوع والمقدس والمدنس وأعراف الزواج... ولا تنتهي هذه العقد إلا بالحرية الجنسية.

لو رحنا نتقصى الفلسفات الحديثة لما انتهينا. خلاصة القول إن هذه الفلسفات ساعدت الحركة النسوية العالمية، وفتحت أبصارها على أشياء كثيرة، بعيدا عن المقدس السماوي الذي يقف بحزم ضد المرأة ويعتبرها ليس متاعا وحسب بل مدنسة وفيها مس من الأرواح النجسة. إن قصة الحية وحواء ما تزال معتمدة من قبل الأوساط الأصولية والمؤمنة، حتى أن بعض النساء يؤمنّ بهذا.

هناك فلسفات أخرى من أمثال فلسفة كانط وكونت وهيغل ونيتشه... وكلها تسير في هذا المنحى بعيدا عن مسالك الغيبيات والأوامر السماوية. ولا نظن أن هناك فلسفة حديثة لم ترحب بعودة ليليت حرة مستقلة، متمردة على العصور الطويلة من الظلم والاستهانة. لقد استفادت الحركة النسوية من كل الفلسفات الحديثة، إلى هذه الدرجة أو تلك، مما أدى إلى ما يشبه الأيديولوجيا النسوية. إن القضية لم تكن مقتصرة على النشاط النسوي المتحمس بل إن إسهام «الرجل» في هذا الصدد لا يقل عما قدمته «المرأة». والملاحظ أن إسهام الرجل كان عاما. لم يكن خاصا بالنساء، بينما إسهام المرأة أكثر خصوصية بالنساء في غالبيته العظمى. واعتماد الحركات النسوية على ما هو في صالحهنّ من نظريات الفلسفة، أدى إلى تراكم مادة معلوماتية ضخمة تسهم في تشكيل أيديولوجيا متماسكة عند بعض المفكرات في الحركات النسوية.

على الرغم من البيئات الدينية المتشددة، استطاعت الفلسفة الحديثة أن تخلق نوعا من التنوير في الميدان الاجتماعي لا يرى المرأة ضلعا قاصرا. ومع ذلك يظل الشك يساور بعض الناشطات المتحمسات في الحركات النسوية في أن كل ما ينتجه الرجل هو ضد المرأة حتى عندما يعلن عن موقفه المعادي للظلم الذي حاق ويحيق بالمرأة منذ قرون طويلة. وفي بعض الأحيان تتشابه الأفكار بين كاتب وكاتبة، فتولي النساء ثقتهن للكاتبة، ويتشككن في نيات الرجل من نصوصه الظاهرة، وإن كانت إلى جانبهن.

إننا نعتبر الفلسفة الحديثة، مهما كان موقف الحركات النسوية منها، من أهم العوامل التي رفدت هذه الحركات بقوة إضافية، وبعدّة حقيقية للنضال.

النزعة الفردية

أشرنا من قبل إلى الوثنية الجديدة. وقد كان القرن التاسع عشر من أشد القرون إنتاجا لهذه الوثنية. صحيح أن النهضة الأوروبية كان لها الفضل الأكبر في اجتراح المقدس الغيبي، ولكن القرن التاسع عشر هو الذي نظم كل الأفكار السابقة على شكل أيديولوجيات. ربما كان القرن الثامن عشر أشد نشاطا في طرح الأفكار الوثنية الجديدة. ولكنها ظلت أفكارا حتى جاء القرن التاسع عشر، فخلق «ديانات» وثنية جديدة أمثال الداروينية والماركسية والفوضوية والاشتراكية بشتى فروعها، والتي هي فروع «وثنية» جديدة... كان القرن التاسع عشر يؤسس لأديان جديدة كل الجدة. ولكنها أديان ذات أيديولوجيات حديثة ترفض المقدس الغيبي. ومع ذلك كان بعضها ذا وطأة شديدة على الفرد. إن هذا «البعض» كان أيديولوجيات ضاغطة وتوتاليتارية. إنها تمحو الشخصية الفردية محوا، وتجعله مندمجا في الجماعة، من طبقة أو فئة أو نقابة أو حزب... كان القرن التاسع عشر قرن الأيديولوجيات الجديدة التي رأت أنها تغني عن الأيديولوجيات القديمة وتحل محلها، ويبدأ الحل

الواقعي لمشاكل البشرية، بعد أن كان هذا الحل يهبط من السماء على شكل وصايا وأوامر وتوجيهات.

في القرن العشرين بدأ الأمر يختلف. إن الأيديولوجيات تدمج الفرد في الجماعة تماما كما كانت العقائد القديمة تدمجه. فبدأت النزعة الفردية تظهر في الفكر والثقافة... بل في كل شيء. والحرية التي كانت تطرحها أيديولوجيات القرن التاسع عشر لم تعد مقبولة. صارت الحرية الفردية قيمة من أهم قيم الحياة. وقد نظن أن هذه النزعة الفردية جاءت ردا على الأيديولوجيات الضاغطة. ولكنها في الوقت نفسه تعتبر من مفرزاتها. فهذه الأيديولوجيات بتشديدها على الوثنية الحديثة، أي النظر إلى الأمور نظرة واقعية بعيدا عن أحكام السماء، خلقت هامشا كبيرا من الـحرية بحيث انتقلت هذه الـحرية من الجماعات إلى الأفراد، وفي طليعتها حرية الاعتقاد والفكر. لم يعد الفرد يدان لأنه لم يصل العصر، كما في زمن محاكم التفتيش، ولم يعد منبوذا إذا لم يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد. بدأت شخصية الفرد تبرز أكثر فأكثر، وبدأ الأولاد يشعرون بهذه الحرية التي أخذت تتزايد مع مرور الوقت... باختصار إن ما تحدثنا عنه أدى إلى ظهور «المجتمع المدني» بمعنى أن هذا المجتمع لا ينظم وفق قوانين سماوية أو استبدادية دكتاتورية... بل وفق قوانين «مدنية» تراعي وضع «المدينة» أي المجتمع البعيد عن العسكر والدولة والكنيسة. فكما أن للعسكر قوانينه الخاصة، وكذلك للدولة والكنيسة، فإن للمجتمع المدني قوانينه التي توضع له خصيصا، بعيدا عن أي قوانين تخص الدين أو العسكر أو الدولة. إن هذه القوانين تنظم العلاقات بين الناس وليس بين الموظفين الملتزمين، ولا مع القادة والضباط أو الشمامسة والخوارنة والبابوات. القانون المدني هو من أهم الإنجازات التي حققها القرن التاسع عشر والتي سار بها إلى الأمام كثيرا القرن العشرون، حيث بدأت الأيديولوجيات تتراجع، أو يخف تأثيرها. ونظن أن المستقبل سوف يكون للقانون المدني وليس الكهنوتي أو العسكري.

إن أي مقارنة بين القرنين سيجعلنا نسلم بأن القرن العشرين هو قرن النزعة الفردية. هناك نزعات شخصانية بدأت تظهر للوقوف أمام الرأسمالية والأيديولوجيا الاشتراكية الضاغطة التي تسحق شخصية الفرد، من أمثال ما نادى به رينوفييه في بداية القرن العشرين، وما تابعه بعده مونييه. ولكن بغض النظر عن هذه النزعات التي وقفت ضد كل ما يرهق الشخصية الإنسانية من كنيسة ودولة واشتراكية وسلطة الرأسمال... صارت الفلسفات المتكاملة تحسب حساب النزعة الفردية. فالوجودية مثلا جعلت «الفرد» في مواجهة الوجود. إنه حر ولكنه مسؤول. وهو حر لأنه قادر على الاختيار، وهذا الاختيار هو الذي يضع عليه هذه المسؤولية. أما البنيوية فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك بعد أن قالت أنه لا يجوز للعلوم أن تكون إنسانية، أي لا يجوز أن تتأثر بالعواطف البشرية. على العلوم (والمقصود بها العلوم الاجتماعية) أن تكون «لاإنسانية» مثلها مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء... تماما.

أشياء كثيرة يمكن أن تقال في هذا الصدد. والإشارات التي قدمناها تدل أن «حقوق الفرد» تسربت من المسام الكثيرة في النظريات الاجتماعية التي قدمها القرن التاسع عشر. لم يكن هناك «حقوق فردية» في القديم، وعلى الأخص في عالم الاستبداد الشرقي. في اليونان فقط كان ثمة هامش كبير للحرية الشخصية. إن الحقوق الفردية، كما نراها اليوم، هي من صنع «الوثنية الجديدة» التي عصفت بكل ما جاءت به السماء. أرادت إقامة ديانة جديدة، ولكنها لم تنجح في ذلك كل النجاح. والعالم يتجه اليوم إلى «الأشياء» ويتعامل معها. كل القيم القديمة باتت مطعونا بها وملقاة جانباً ... وكانت هذه النزعة الفردية من أكبر العوامل المساعدة للحركة النسوية الحديثة. فالفرد فرد، أي إنسان دون تمييز بين ذكر وأنثى إلا في بعض الحالات. والحرية الفردية التي يملكها الذكر باتت تملكها الأنثى... أيضا إلا... ومعظم الحقوق التي كانت محرومة منها باتت بين يديها. فلها حق الاستقلال عن العائلة، وتسعى اليوم ليكون الإجهاض حقا من حقوقها هي وحدها، كما ترى أن

يكون لها حق في الطلاق مماثل لحق الرجل. وسن النضج بما يحمله من استقلالية يدخلها في عداد المواطنين الذين تنطبق عليهم القوانين مباشرة دون وصاية من أحد... وصارت تطالب بحرية الجسد، دون قيد أو شرط، وترى في بعض القوانين حدا لحرية تصرفها بجسدها. وكما طالبت بحصر حق الإجهاض بها طالبت أيضا أن يكون حق الحمل لها وحدها. فهي التي تقرر لأنها ستكون ملازمة للولد في الرحم والمنزل والعمل، وفي العناية والرعاية... إنها مطالب ليليت ذاتها، وهو ما نفذته الأمازونات في مجتمعاتهن.

ربما كانت جوليا كريستيفا أهم داعية نسائية تمثلت فيها الحرية الفردية التي تسربت من مسام الأيدولوجيات «الوثنية». فهي لغوية (لسانية) حملت هذه النظرية الجديدة من موطنها الأول بلغاريا، وهي ماركسية في تأثرها بغولدمان الذي عملت مساعدة له في الجامعة، وهي ضليعة في علم الدلالات بعد أن تأثرت بصديقها الحميم رولان بارت، وهي ماوية (من أنصار ماوتسيتونغ) انضمت إلى عصبة Tel Quel وهي فوضوية في دعوتها النسوية، تريد الحرية الفردية إلى أبعد حدودها. وهي تتقن التحليل النفسي متأثرة بلاكان. وهي بنيوية تفكيكية متأثرة بفوكوه. وخير دليل على حريتها الفكرية كتاباتها المتنوعة: الثورة في اللغة الشعرية (١٩٧٤) المرأة الصينية (١٩٧٤) في البدء كان الحب (١٩٨٥) الشمس السوداء: الاكتئاب والسوداوية (١٩٨٧) غرباء عن أنفسنا (١٩٨٨) الساموراي (١٩٩٠) والأخيرة رواية عن تمرد الطلاب المشهور في الستينيات الذي قاده الماويون... وكثير من الكتابات التي تدل فعلا على الحرية الفكرية وعدم الالتزام بأيديولوجيا ثابتة ضاغطة على الفرد وفكره. يقول عنها بارت إنها علمته كيف يكون نقد الذات، بطرح أسئلة صعبة، ومراجعة الأفكار ونقدها بحيث في كل يوم يتخلق شيء جديد. إنها دائما في حالة من تجاوز الذات.

كانت المسام التي تسربت منها الحرية الفردية كثيرة جدا غير مقتصرة على الأيديولوجيات، بل شملت كثيرا من الأفراد، من الجنسين. ويكفي أن نشير هنا إلى الأثر الذي تركه كتاب جون ستيوارت مل «حول إخضاع المرأة» (١٨٦٩) في الأوساط المثقفة، فلم يفقه تأثيرا إلا كتاب قاسم أمين عن المرأة، في العالم العربي، مع الفارق بين الظرف العربي المتخلف وبين الظرف الذي كانت فيه المرأة الغربية قد حققت عددا لا بأس به من حقوقها. إن الإسهامات كانت كثيرة جدا، وكانت النتيجة هذه النزعة الفردية التي يرى بعض المفكرين اليوم أنها تطرفت كثيرا في مطالبها، حتى أن بعضهم لخصها بكلمتين: الإلحاد والإباحية. وهما قطبا الوثنية الجديدة، في زعمهم.

لكن كريستيفا ليست نموذجا أوحد، لأن ثمة حركات ماركسية وفوضوية وبنيوية وما بعد البنيوية لها موقفها الجماعي الخاص، كما لكل فرد شخصيته في هذا المذهب أو ذاك.

المرأة والأصولية الحديثة

ثـــمة فروق بين الأصولية الحديثة والأصولية القديمة. ولـــكن ما لنا ولهذه الفروق، لأن فيها من المشابهات أضعاف ما فيها من الفروق. يهمنا أن نشير إلى فرق واحد بين الأصولية الحديثة والأصولية القديمة، وهي أن الأصولية القديمة استلمت المرأة وهي مستسلمة لقدرها، ولما يخططه لها المذكر السماوي وقهرمانه المذكر الأرضي، أو العكس أي المذكر الأرضي الذي سخر السماوي لمآربه. كانت مستسلمة تسير كما يرسم لها الذكر. أما الأصولية الحديثة فقد وجدت أمامها امرأة متمردة حقا، تطالب بالمزيد من حريتها، أو حرياتها التي يبدو أنه لا حد لها. بل أكثر من ذلك إذ بات الرجل طرفا مقابلا لها، بعد أن كان سيدا عليها في كل شيء: من اللباس والطعام والشراب... وحتى السخرة. إن الأصولية لا تستوعب كيف تتحول السبية إلى امرأة حرة، وكيف تتساوى في الميزان مع الرجل. أشياء غريبة عجيبة لا

يقبلها عقلها، إنها بالنسبة لهذه الأصولية كفر وتجديف وضلال ومجون وإباحية وزندقة... فقد يقبل الأصولي كل المبتكرات الحديثة ويجيد استخدامها، ويقتنع أن الأمريكان هبطوا على القمر وأن الاستنساخ ممكن... ولكنه لا يقبل ولا يقتنع أن تكون المرأة جريئة متحررة تملك إرادة مستقلة عن الرجل. هذا شيء لا يمكن له أن يقبله أو يتساهل به. إن خروج المرأة من الخضوع للرجل هو الكفر بذاته. ألم يقل بولس أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما تخضع الكنيسة للمسيح؟... إن الأصولي قد يقبل كل شيء حديث إلا فيما يخص المرأة. كأنه يشعر أنه يخوض معركة سيادة، إما هو أو هي، مستخدما كل ما قدمه له تراث يعود إلى آلاف السنين.

ومن جهة ثانية، لم تثر المرأة مطالبة بحقوقها لولا الأصولية المتشددة القامعة لها. ففي أوروبا العصر الوسيط ظلت المرأة على الهامش – إلا في الأدب وبالأخص في رومانسات هذه الفترة – لا يؤبه بها، بل كانت الأصولية تنظر إليها على أنها والشيطان شيء واحد أو كأنها عقدت معه حلفا على اقتراف الخطيئة والإثم. واعتقدت الأصولية أن أكبر فرحة شعر بها الشيطان هي يوم خلق الله حواء. فالتشدد هو ما أدى – في قلب ظروف كثيرة ومعقدة – إلى انطلاقة المرأة بعد أن أتيح لها شيء من التعليم، وبعد تقدم العلوم والفنون. إن النهضة الأوروبية قدمت المرأة بأجمل لوحات. فالعذراء التي لم يكن رسام سابق يهتم بجمالها الأنثوي، أو بالأحرى كان يتعمد رسم الوجه قبيحا حتى لا يكون فتنة للناظرين، صارت تبدو مثل فينوس، رائعة بهية أنيقة بثياب جديدة، لا يبدو عليها طابع البؤس والمسكنة الذي كان يظهر في الرسوم السابقة. ظروف كثيرة عملت ضد الأصولية. إن القيم الفروسية في العصر الوسيط كان المساعد الكبير في إعلاء شأن المرأة. فمن أولى واجبات الفارس أن يدافع عن المرأة أينما وجدها مظلومة مضطهدة.

قد يقال العكس، أي إن الأصولية ظهرت بعد أن «تبذلت المرأة» واشتطت في تحررها. وبما أنها في عرف الأصولية خدين الشيطان أو صنوه

فلا بد أن تكافح كما يكافح الشيطان، حتى لا تتفشى شرور «فلتانها» في المجتمع، فتنحل الروابط الأسروية، ويتفكك المجتمع، وتنتشر الشرور من فحشاء وأمراض... وغير ذلك مما ترويه الكتب الأصولية عن المرأة وشرورها. وهذه النظرة هي التي جعلت الأصولية تتسامح أو قد تتسامح في كل شيء حديث إلا تحرر المرأة وامتلاكها لنفسها وجسدها. إنها في عرفها بحاجة إلى «سيد» يرشدها ويهديها حتى يضبط إيقاع حياتها. فلا يجوز أن تغادر البلاد من دون إذن «ذكري» كزوج أو أخ أو من يقوم مقامهما. في كل شيء يجب أن تكون تحت الوصاية، تماما مثل الدول القاصرة التي وضعتها عصبة الأمم تحت إشراف دولة متقدمة لترقى بها وتؤهلها تأهيلا يضمن حسن التصرف والإدارة، مع فارق كبير، وهو أن الدولة القاصرة تصل سن النضج فترفع الوصاية، وتحقق الاستقلال، بينما تمضي المرأة العمر كله ولا يقر الوصي أنها بلغت درجة تؤهلها لـــ «الاستقلال».إن الإيمان بسرمدية «قصور» المرأة ونقص عقلها هو الدافع إلى اعتبارها أخطر الأخطار على المجتمع. إنها أخطر من الطاعون والحرب الذرية والضائقة الاقتصادية والثورة... فتلك ظواهر عابرة، أما المرأة فمشكلة موجودة دائما يجب أن تخضع للمراقبة والتوجيه (الديني طبعا) مادام الرجل لا يستغني عنها. ولو... لكان.

إن تحرر المرأة من أشد الأسلحة التي تخشاها الأصولية. إنها أفتك سلاح. والمعركة برمتها تقريبا تدور بين هذين القطبين، والبقية عبارة عن «حلفاء» لهذا الطرف أو ذاك.

النقد النسوي الحديث

سميناه نقدا. قد نسميه موقفا أو نشاطا أو فكرا. ولكن بما أنه يرمي إلى مناوئة القيم الذكورية بنقدها وإظهار تهافتها، وكيف تحمل الغبن والانحياز بداخلها في كل شيء وبخاصة في الميدانين الأدبي والفني، فالأفضل أن

يسمى نقدا. والميدان الذي تركز فيه النقد هو «الجنس» أي الفرق بين الذكر والأنثى، فطرحت المفاهيم والمواقف والتصرفات في الأدب ونوقشت من وجهة نظر نسوية.

كان هذا النقد يشمل كل شيء قبل الحرب العالمية الثانية. ولكنه بعدها، وعلى أثر ظهور أديبات وكاتبات وناقدات ظهرت النظرية الأدبية النسوية، أو ما يشبه النظرية. وهي اليوم في ذروة نشاطها، وإن كثرت فيها التناقضات والمشاحنات بين الفريق الواحد. وما زالت «الجنسية» محور النقد الأدبي، بعد مرور أكثر من نصف قرن. ومن أبرز الكتب التي كان لها أثر في تكوين نظرية النقد الأدبي كتاب «الجنس الآخر» لسيمون دي بوفوار. وهو كتاب مشهور في العالم العربي أعيدت طباعته مرات عديدة. ظهر هذا الكتاب في عام ١٩٤٩ وأحدث ما أحدث من حوار ونقاش في فرنسا والعالم الغربي. وبعد أكثر من عشرين سنة ظهر كتاب «السياسة الجنسية» ١٩٧٠ لكاتي ميليت. وفي هذا الكتاب نظرة حادة ترى أن نشاط الذكر تصرفا ولغة وأدبا لا يمكن أن ينتج إلا عن الجنسية الذكرية. وقد انساقت المرأة وراء المفاهيم التي طرحها الرجل، وآمنت تقريبا بقصورها وتخلفها عنه. وعلى المرأة أن تبني موقفها على سياسة جنسية تحترم فيه كيانها الأنثوي وتخدمه حتى تتكون لديها الشخصية المنسجمة مع ذاتها.

كثيرة هي الآثار التي سارت في هذه الوجهة. تركزت في نقد القانون (الذكوري طبعا) الذي سار عليه الأدب طيلة القرون الماضية، والذي يجب أن تفضح المقاييس الخاطئة التي قام عليها وذلك بطريقتين: الأولى نقد المفاهيم الذكورية والثانية إعادة تجميع ونشر الآثار النسائية المهملة واستخلاص ما أطلقت عليه الناقدات «النقد الجنسي» أي genocriticism وهذا النقد كفيل باكتشاف البنية الثقافية النسوية للجنس والهوية. بمعنى آخر إن النقد النسوي يسعى إلى اكتشاف الجوهر الحقيقي لشخصية المرأة بعد أن تراكم فوقها الكثير من المفاهيم الذكورية المغلوطة.

إسهامات كـــثيرة في الـــميدان الأدبي ظهرت وبقيت تظـــهر منذ الخمسينات وحتى أواخر القرن الماضي. وهناك مقاربات مختلفة للناقدات، ولكنها تتفق في الإطار الأساسي والمبادئ العامة المناهضة لمفهوم الرجل. وكان للناقدات الفرنسيات ما يشبه دور الريادة في النظرية الأدبية النسوية. وخلال النصف الثاني للقرن الماضي كثرت الناقدات كثرة كبيرة وانتشرت أسماؤهن في معظم الصحف العالمية وبالأخص الصحافة الأمريكية التي عكست التيارات المتطرفة. ومن هؤلاء الناقدات اللواتي تركن أثرا كبيرا في الخطاب النقدي النسوي إلى جانب من ذكرنا: إيلين مورس Moars وكارولين هلبورن Hilburn وساندرا جلبرت Gilbert وسوزان غوبار Gubar وأنيت كولودني Kolodny وأدريان ريتش Rich ونينا بيام Baym وكاترين ستمبتون Stimpton وجوليا كريستيفا Kristeva ويمكن للقارئ معرفة الكثير عن أي منهن في المواقع النسوية على الإنترنت.

ولكن نضال الثقافة النسوية لا يقتصر طبعا على الأدب والفنون، بل يتسع إلى درجة تقديم أيديولوجيا كاملة أو متكاملة في كثير من جوانبها ولكنها لا تعكس رأي الأغلبية الساحقة دائما. بدأت المرأة منذ عصر النهضة بتشكيل أيديولوجيتها الخاصة، ولكن العصر الحديث هو الذي ألهب العواطف والخيال وحرض التفكير على إنتاج أيديولوجيا شاملة. إن جيرمين غرير Greer الكاتبة الأسترالية تقدم ما يشبه الأيديولوجيا. وهي مثل أي أيديولوجيا فيها شيء قليل أو كثير من التطرف. إنها تدعو في كتابها "الأنثى المخصية" Female Eunuch (١٩٧٠) إلى أن تقوم النساء بتحرير أنفسهن بأنفسهن. ويكون ذلك عن طريق نبذ الدور الاجتماعي الذي أسنده الرجل للمرأة. والرجل هو الرجل، فلا مراعاة بين واحد وآخر. فلا أب ولا أخ ولا زوج ولا عم ولا خال يحظى بمعاملة خاصة تتخلى بها المرأة عن شخصيتها وتنساق وراء الأعـــراف التي هـــي ذكورية. وفي «نكاد لا نعرفك يا أبي» Dady We Hardly Knew You (١٩٨٩) تشن حملة على الآباء باعتبارهم

يمثلون البطريرك الأكبر الذي يتحكم بتربية العائلة والأولاد. وفي آخر كتاب لها عام ١٩٩٩ بعنوان «المرأة الكلية» تدعو صراحة إلى التكامل الأنثوي، ليس وفق النظرية الذكورية بأن الأنثى لا تكتمل إلا بالرجل، بل بالاعتماد على شخصيتها الخاصة بعيدا عن مؤثرات الرجل.

وفي فرنسا انطلقت دعوة على يد مرغريت دوراس Doras وهيلين سيكسو Cixous إلى خلق لغة خاصة نسوية لا علاقة للرجل بها، أي استبدال لغة الماضي الذكورية بلغة جديدة نابعة من نظرة الأنثى، وشاعت هذه الدعوة وبدأت تظهر مصطلحات من أمثال: firefighter بدلا من fireman و policeofficer بدلا من policeman واستخدام الحرف i بدلا من الضمير I أي استخدام الحرف الصغير بدلا من استخدام الحرف الكبير واستخدام u بدلا من you وقد شاعت هذه الكلمات في الآثار النسوية سريعا.

وهناك كلمات استخدمتها الحركة النسائية استخداما خاصا فشاعت في المعاجم العالمية سريعا. ففي عام ١٩٧١ أنشأت غلوريا شتاينيم Steinem مجلة أطلقت عليها اسم Ms معارضة بذلك مصطلح Mrs. فهذا المصطلح يعني السيدة وبما أن الرجل Mr جعل حرف الإضافة s كافيا ليدل على المرأة التي تخصه، فقد عمدت غلوريا إلى إضافة s إلى M وليس إلى Mr حتى لا تكون هناك دلالة على التبعية. وبذلك شاع هذا المصطلح ليدل على المرأة التي لا يوجد ما يدل أنها متزوجة أو غير متزوجة.

واستعارت الحركة النسوية من الإسبانية كلمة machismo (وتعني: المذكر) كشتيمة ومعرة. فعندما يطلقن هذه الكلمة على أي شيء، فإن ذلك يعني قدحا شنيعا، يدل على أنه شيء منحط جدا.

لسنا بصدد متابعة الكلمات والمصطلحات التي شكلت وما تزال تشكل القاموس النسوي. وإنما غرضنا التدليل أن الأمور لم تقف عند حد النقد الأدبي، بل تخطته إلى كل ميادين الحياة. ويبدو أن ثمة قناعة بعد موجة

اللسانيات التي احتضنتها فرنسا وعمت الأوساط المثقفة العالمية، بأن تغيير العالم يبدأ باللغة. فاللغة الذكورية هي التي خلقت مفاهيم الذكور، فلا بد من القضاء على هذه اللغة، وخلق لغة نسوية بديلة حتى نتمكن من تغيير المفاهيم وبالتالي تغيير العالم.

وفي الوقت ذاته نجد هجوما حاقدا على الرجل، وإيمانا وطيدا بأن هذه الفلسفات اللغوية وغير اللغوية لا تنفع في رفع سيطرة الرجل وإلغاء هيمنته على المجتمع. إن سالي ميلر غيرهارت Gearhart تدافع عن الطريقة العملية التي تقترحها من أجل سعادة المجتمع. فهي تريد إنقاص عدد الرجال حتى ١٠ في المئة فقط، وتقول صراحة: عندي خطة منذ زمن طويل لإخصاء كل الذكور بعد سن البلوغ، فأنا أعتقد أن العالم سيكون مكانا أكثر أمنا وجمالا من دون كل حملة التستوستيرون (الهرمون المذكر).

ولم يكن كلام هذه الناقدة معبرا عنها فقط بل نشهد لفيفا كبيرا من الناقدات يتحمسن للأيديولوجيا النسوية المتشددة، ويدعين إلى مدينة فاضلة، يوتوبيا utopia ليس فيها جنس الرجال إطلاقا، أو ما يسمى «المجتمعات الانفصالية» على غرار ما فعلت الأمازونات في مجتمعاتهن في حوض البحر الأسود. ومن داعيات هذه اليوتوبيا غيرهارت وماكي شارناس. وقد كتبت شارلوت بيركنز غيلمان مؤلفا ضخما بعنوان «بلادها» Her Land وقد سارت في هذا الاتـــــجاه أيضا كاميلي باغليا. وقد انطلقن جميعا من المجتمعات الأمومية وترتيباتها قبل أن تظهر سلطة الرجل. ففي رأيهم ليس عبثا أن المرأة قديما كانت تقضي على الذكور بتقديمهم قرابين للربة أو وأدهم أو إلقائهم في النهر أو خنقهم. كانت تدرك تلك المرأة أي مأساة سوف تحل في المجتمع إذا سيطر الذكور. إن اليوتوبيات (المدن الفاضلة) التي تخيلها الرجال لا يمكن أن تنجح حتى لو تحققت ما دام فيها ذكر واحد، لأنه فاسد مفسد. ويستنتجن ذلك من التاريخ. فبعد زوال المجتمع الأمومي فقط عرفت البشرية البؤس والحرب والقتال والصراع المستمر والفساد من كل

نوع. قبل ذلك كان المجتمع يوتوبيا حقا، أي ما نظنه اليوم خيالا كان في الأمس البعيد واقعا. إن يوتوبيات الرجل فشلت ليس بسبب أنها خيالية بل بسبب أن الذكور موجودون فيها. فبعد الأمومة ظهرت تشكيلات المجتمع الذكوري من عبودية وإقطاعية ورأسمالية واشتراكية وشيوعية ونازية وديمقراطية وملكية ودستورية وغير ذلك من الأشكال الأخرى للحكم . وكل شكل يتهم الأشكال الأخرى بالفشل. إن الفشل يعود إلى شيء واحد فقط وهو وجود الرجل، ولا سبب غير ذلك. إن الرجل خلق للقرابين وليس للحكم وإدارة المجتمع. ومن هنا ظهرت إدانة كل نضال مشترك بين الرجل والمرأة لإقامة مجتمع فاضل. فالنضال يجب أن يكون قبل أي شيء ضد الرجل، وبعدها لا يهم شكل الحكم. فشكل الحكم فاسد بحكامه لا بمبادئه وقواعده. ومتى حكمت المرأة فلا أهمية لشكل حكمها، لأنه سيكون كما كان قديما، فيه السلم والخبز والحرية. وقد استخدمت المرأة على سبيل المثال الحصان. لم تستخدمه للحرب بل للنقل والحراثة. وعندما استخدمه الرجل حوله إلى أداة حربية جلبت الويل على البشرية.

إذن المشكلة في «الجنس» الذي يحكم. فبحسب الجنس يكون الحكم، وليس بحسب الأشكال المختلفة التي لا أهمية لها. وفي كتاب «الحركة الارتدادية» Backlash تسرد سوزان فلودي Flaudi كيف امتهن الرجل كرامة المخلوق البشري، وبالأخص المرأة فهي عبر التاريخ الذكوري واحدة من اثنتين: إما سجينة منزل مبعدة عن المجتمع، من جملة متاع الذكر، وإما سلعة تجارية في سوق النخاسة. فهي اليوم مستخدمة في وسائل الإعلام الحكومية والمدنية كصناعة تسلية ومتعة. وهذا وضع لا يختلف عن «سوق النخاسة». فالوضع في عصرنا الحديث لم يختلف عما كان منذ آلاف السنين. كانت المرأة قديما إما سبية وإما سجينة المنزل. وهو الوضع الذي تعانيه المرأة اليوم. والبحث عن سبب هذا الوضع في «الظروف» هو بحث عقيم. إن السبب هو سلطة الرجل فقط، فلا توجد «ظروف» تسوغ أو تبرر هذه الألوان من الاضطهادات.

أما كيف يستمر مجتمع اليوتوبيا هذا، فقد اعتمدت بعض الداعيات إلى ما أشار إليه أوغست كونت من أن الإنسان في المستقبل سوف يتكاثر ذاتيا(؟).

ليليت أمازونة من نوع جديد

قد يظن القارئ أن النضال النسوي مقتصر على تأليف الكتب وإصدار الصحف والمجلات وتشكيل الجمعيات والحركات. إن هناك لونا نضاليا عمليا، تمثله الفوضوية إيما غولدمان Goldman وقد كتبت سيرتها باتريشا مكارثي McCarthy في موقع anarchafeminism على الإنترنت.

ولدت في ليتوانيا عام ١٨٦٩ وهاجرت إلى الولايات المتحدة مع أختها هيلينا عام١٨٨٥ وعملت في مصنع للثياب، وانتمت إلى الحركة الفوضوية. وفي العام التالي أعدمت السلطة أربعة فوضويين، من أبرز الناشطين لجعل يوم العمل ثماني ساعات. وقد اتُخذ هذا الإجراء لردع بقية الفوضويين من متابعة النضال. ولكن ذلك زادها تمسكا بالمثل الفوضوية التي ظلت متمسكة بها طيلة حياتها. كانت خطيبة مفوهة وكاتبة متقلة بالأفكار الفوضوية. كرست حياتها للنضال وكانت في خصام دائم حتى داخل الحركة الفوضوية. تمسكت بحقوق المرأة ودافعت عن حرية الحب. سماها الأمريكيون «الشيطانة آكلة الديناميت». طافت البلاد محرضة وداعية فوضوية وسجنت مرات كثيرة بتهمة التحريض على التمرد ومعارضة الحرب العالمية الأولى.

عندما اغتال الفوضوي ليون تزولغوتس الرئيس وليم ماكنيلي عام ١٩٠١ قامت موجة هستيرية معادية للفوضوية واتهـمت بأنها وراء هذا الاغـتيال فتوارت فترة من الزمن. نفيت من الولايات المتحدة وهولاندا وفرنسا ورفضت عدة أقطار دخول أراضيها. ومع ذلك لم تثبط عزيمتها، فبدأت تصدر مجلة «الأرض الأم» عام ١٩٠٦.

صادقت رفيقها السياسي ألكسندر بيركمان مدة طويـــلة، وكلاهما منفي من الولايات المتحدة إلى روسيا. ولأول مرة شاهدت إيما الثورة التي نذرت لها حياتها. لكنها تبينت سريعا أن البولشفيك لم يكونوا هواة حرية وليسوا حزبيين عماليين منضبطين. شاهدت دكتاتورية جبارة تتوطد. لم تحتمل هي وبيركمان قمع البولشفيك لتمرد كرونشتاد، فغادرا روسيا في خيبة أمل مريرة. وطافت بلداناً عدة وكتبت سلسة من المقالات وألفت كتابين عن تجربتها ونضالها. عاشت سنوات في بريطانيا ودعمت نضال العمال في كل بقعة من العالم. بعد مرض شديد انتحر بيركمان في إسبانيا ١٩٣٦ وبعد أسبوع اندلعت ثورة فوضوية، فانخرطت فيها إيما ضد الفاشية. وانتهت حياتها عام ١٩٤٠ وبعد موتها سمح لها بالعودة إلى أمريكا فدفنت في شيكاغو إلى جانب شهداء هايماركت.

هذا نموذج من ليليت الأمازونية العملية، التي لم تعتقد أن اليوتوبيا يجب أن تعتمد على الجنس الواحد، بل على النظام الفوضوي الراقي الذي في مقدوره أن ينتج الحرية المنبثقة من التنظيم الذي يقوم به الناس وليس الدولة.

هل ترضى الداعيات إلى اليوتوبيا النسوية أو المجتمع الأمازوني (المجتمع الانفصالي كما يطلقن عليه) عن هذا النضال، أم يعتقدن أنه لا طائل منه في ظل سلطة الذكر؟

الفصل الخامس

أساليب وأسلحة في صراع ليليت

نظرتان

يعتمد كثير من المفكرين على مقولة الخلاف الحقيقي بين الرجل والمرأة. وهم يرون أن هذا الخلاف هو القابع وراء أول تقسيم للعمل بينهما. ويرى بعضهم أن الفرق البيولوجي هو المسؤول عن تقسيم العمل، بينما لا يرى آخرون ذلك، بل يعتقدون أن المسألة تكمن في الاستيلاء على السلطة المدنية بكاملها وإخضاع الآخر إخضاعا تاما بحيث يكون مأمورا لا آمرا. وعلى هذا يكون الصراع أبديا، لا يمكن أن يهدأ لحظة من اللحظات. إن الخلاف بين ليليت وآدم هو ذاته الخلاف بين الزوجة وزوجها في مسرحية إبسن "بيت الدمية". فالخلاف في هذه المسرحية لم يكن على شيء معين، بل على موقف بكامله من الحياة والمجتمع وإدارة الشؤون اليومية. وهكذا يكون إبسن قد أعاد النمط الأولي الكبير ولكن بعد تعديله وفق الحياة الحديثة. ومثله ستريندبرغ في مسرحية «الأب» فهي تعيد علينا الصراع الأبدي. إن البطلة التي تعاف كل شيء لتتحرر من سلطة الرجل / الزوج، بل إنها تتخلى حتى عن أبنائها، تذكرنا بما فعلته ميديا بجاسون، إذ قتلت ابنيها منه وانتقمت من المرأة الجديدة التي كانت ستزف إليه مع علمها أنه متزوج منها. إن مسألة تعدد الزوجات التي تطرحها الحركة النسوية الحديثة ترجع إلى أزمنة سحيقة.

يترتب على هذه النظرة أن السلطة كانت بيد المرأة في العصور القديمة، ثم استولى الرجل عليها وجعلها تابعة بدلا من أن تكون متبوعة. جرت تحولات كثيرة أدت إلى إحداث هذا الانتقال في السلطة، منها مثلا ظهور الزراعة غير الموسمية، واعتماد الرجل على أبطال حضاريين جدد

من أمثال الثور والحصان، حيث نشأت بعدها الإمبراطوريات الكبيرة، مما جعل المرأة تتخلف، نظرا لطبيعتها البيولوجية في رأي بعضهم، عن المشاركة في الحياة العملية إثر انتشار هذه الظروف الجديدة، التي كانت أقوى من الوسائل المستخدمة المعروفة عند المرأة، والتي سوف نعرض لبعض منها.

النظرة الأخرى تقول إن قضية المجتمع الأمومي القديم اختراع لتفسير ظواهر متفرقة، لا أساس لها. فمنذ القديم كان الذكر ذكرا والأنثى أنثى، ولم يتغير شيء. إن المرأة خلقت أصلا خاضعة للرجل سواء من الناحية البيولوجية أم من الناحية الدينية حيث انتزعت من ضلع آدم المحني لتخضع له. فالقول بسلطة الأم هو قول افتراضي جاءت به الحركات النسوية وبعض المفكرين. وهذه النظرة لا تعترف لا بأول تقسيم للعمل ولا بغيره من التطورات والتغيرات. وهي لا تقر أن المرأة كانت الأقوى بحكم العمل والمهمات التي كانت تقوم بها. كما لا تقر بالتالي أن الرجل كان الأضعف، وأن الذكور كانوا يدفنون أحياء منذ ولادتهم لعدم الحاجة إليهم. إنها تنطلق من التاريخ الذي سجله الذكر، حيث تتجلى سيطرته واضحة. وترى هذه النظرة أن الفروق ناجمة من طبائع الأمور، لا من الصراع بين الجنسين. فالمرأة لا تستطيع أن تقوم بما يقوم به الرجل. وقد رأى فرويد أن مسألة الوجود النفسي تتلخص في ملكية القضيب أو عدم ملكيته. والإيروس في رأيه هو الذي يملك القوة ويقوم بالاعتداء والتسلط... وقد تابع لاكان مباحث فرويد في هذا المجال. وعندما يكون الصراع بين الإيروس وعقدة الخصاء، فإن الحسم سيكون لصالح صاحب القضيب.

بين النظرتين قام ويقوم سجال فكري، ربما يستمر إلى الأبد، مثل الصراع الأبدي بين الرجل والمرأة الذي كان وما زال يتجلى في مظاهر عدة، من الحمل والولادة وتربية الأطفال والزواج والطلاق وترتيب الشأن المنزلي، والنظرة إلى المجتمع والحياة... وربما كان الصراع بين النظرتين أيضا مظهرا من مظاهر الصراع بين الذكر والأنثى.

على أي حال لم تكن الحركات النسوية أول من قدمت هذه الأطروحة، بل إن مفكرين كبارا من أمثال ماركس، ذهبوا هذا المذهب، وربطوا بين عملية الإنتاج المادي، بأساليبه وأدواته، وبين وضع المرأة ومكانتها الاجتماعية. أما الحركات النسوية الحديث فإن مطالبها لا تقف عند هذه النقطة أو تلك. إنها ترمي إلى أبعد من ذلك بكثير. وتستخدم أساليب وأسلحة كثيرة سوف نعرض بعضها، من دون الدخول في مشاكل النظرتين اللذين أشرنا إليها. هناك مظاهر كثيرة للحركة النسوية، قديما وحديثا، ولكن الأهم في نظرنا: الأسطورة والحياة الواقعية. وهما ما سنعرض لهما.

من السحر إلى العلم

نسمع كثيرا أن العلم في العصر الحديث كان إلى جانب المرأة، وأنه هيأها لمهمات لم تكن تقوم بها من قبل. وتعلق الحركة النسوية أهمية كبرى على العلم، كأنه المنقذ الأكبر للمرأة من وضعها المقموع. ولو نظرنا إلى التاريخ القديم لرأينا أن العلم كان بيد المرأة قبل أن ينتقل إلى الرجل. وربما كان ذلك بسبب أن الكهنوت كان برمته بيدها لا بيد الرجل. وقد كان العلم حتى فترة قريبة، حكرا على الكهنوت.

كان العلم قديما بيد المرأة، ولكن التاريخ الذي كتبه الرجل جعل هذا العلم القديم غير المنسجم مع الأديان الذكورية، سحرا وشعوذة. وقد سمته محاكم التفتيش على اختلافها «السحر الأسود» ودفعت المرأة في القرن السادس عشر وما تلاه ضريبة هذه التهمة، فأحرقت عشرات الآلاف من النساء بتهمة تعاطي الأعشاب وسموم الأفاعي والتعاويذ والرقى... إن العلم الذي اعتبر وسيلة للتحرر تحول إلى سلاح فتاك قضى على أرقى النساء في أوروبا، ووصلت آثاره إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إنها العقلية ذاتها. وليس من باب المصادفة أن الأغلبية العظمى لصرعى «السحر» من النساء وليس من الرجال.

على أن تحويل العلم إلى «سحر أسود» ليس من صناعة العصر الحديث كما قد يبدو لنا. إنه يعود إلى أقدم الأزمنة. وربما كانت ميديا،

الأمازونة التي تعادل جيشا، خير مثال على أن النظرة الجديدة للرجل حولت كل ما هو خير إلى شر وخطئية، لا لشيء إلا لأنه من نتاج المرأة.

عملت ميديا على مساعدة جاسون في سرقة الجزة الذهبية، فوقفت ضد أهلها، ومزقت جسد أخيها عندما لاحقهم، ورمت بأعضائه في البحر حتى يجمعها بحارة أبيها، فيهرب جاسون بسفينته. . كل هذا كان علما مقبولا، لأنه في صالح جاسون. كانت تشك في إخلاص الرجل، فأخذته إلى معبد الربة هيكاتي وجعلته يقسم يمينا أنه سيخلص لها. وبعد أن أحرقت البخور وأشعلت الشموع وقدمت الأضحية للربة هيكاتي، وقفت أمام المذبح وصلت بعمق للربة المقدسة حتى تعينها على رحلتها الجديدة بعد أن خانت أباها وتخلت عن أسرتها. وأقسم لها جاسون، مستفيدا من قوة علمها في استرجاع العرش المغتصب.

لكن عودة جاسون بالجزة الذهبية كانت فاشلة كل الفشل، رغم نجاحه بالحصول على هذه الجزة بعد مغامرات قاتلة أنقذته منها ميديا بعلمها الخارق (اليوم نقول بسحرها الأسود). فقد وجد أن عمه قتل أباه وماتت أمه حسرة، فاستنجد بعلم ميديا التي بحيلة مذهلة جعلت بناته يقضين على أبيهن، بعد أن علمتهن كيف يجمعن الأعشاب ويطبخنه معها، فيعود شابا. ثم اتهمت بناته بالجنون وأنهن هن اللواتي قتلنه. لكن الظروف كانت ضدهما، فهربا إلى كورنثة، حيث استقبلهما كريون الوصي على ابن أوديب، الوريث الذي سوف يستلم التاج ويجلس على العرش. وقد علق قلب جاسون بابنة كريون، فانتبهت ميديا إلى ذلك، وحذرته، فعيّرها بأنها من بلاد متخلفة وأنه أدخلها إلى اليونان حيث الرقي والحضارة، وأنه سوف يتزوج هذه الفتاة. فأظهرت أنها اقتنعت ولكنها جمعت بعض الأعشاب ورشت ثوب الزفاف بمسحوقها، وقدمته هدية للعروس الجديدة التي فرحت به وماتت فيه. وبعد أن رأت أن مخاوفها كانت في محلها، قتلت ابنيها أمام عيني جاسون، ثم ركبت عربتها المجنحة وطارت إلى أثينا حيث استخدمت علمها هناك.

إننا لا نعيد القصة، التي سردها بولفينش في موسوعته سردا مشوقا، بل أردنا الإشارة إلى أن وضع المرأة في القديم كان راقيا واستمر كذلك فترة طويلة من الزمن. ويمكن القول إنها كانت تحتكر «العلم» إلى جانب الدين أو أحرى أن نقول إن العلم نفسه كان هو الدين. كانت في المعبد ربة وفي الحقل عاملة وفي العلم ضليعة وفي الطب شافية... كانت كل شيء، فلم يظهر الكهنوت الذكوري إلا متأخرا، كما لم يظهر «العلماء» إلا في الألف الرابع قبل الميلاد. وظل العلم والكهنوت يسيران معا حتى زمن الثورة الفرنسية.

لو كان العلم سلاحا كافيا بذاته لما تخلت المرأة عن وضعها الرفيع قديما. احتكرت علم المناخ والأنواء والأعشاب والسموم والكهانة والزراعة والطب والولادة والإشراف على إدارة المجتمع... وغير ذلك من أمور كثيرة، لكن ذلك لم يفدها في «حربها» ضد الرجل، ولم يدعم وضعها في المجتمع. إن ظهور الحصان، إلى جانب أشياء كثيرة، خلق ظرفا معاديا للمرأة، لم يجْدِها علم ولم يسندها فن. بل نجدها في العصور الوسطى، وحتى القرن السابع عشر، تحاسب حسابا شديدا على علمها، الذي اعتبر «وثنية"». وكان الجزاء «الموت دون إراقة نقطة دم». وحتى في القرن الثامن عشر نلاحظ أن العلم لم يكن ذلك السلاح المرجو الذي يحررها من وضعها الكئيب. كانت بريطانيا من أوائل الدول التي سمحت بالتعليم الحر، بعد أن ضربت احتكار الكنيسة للعلم. وبدأت تظهر أفواج من النساء المتعلمات. بعضهن برز في الأدب والمجتمع. ولكن الأمر اقتصر على «البعض» من دون تحقيق مكاسب تذكر. وانتقل الأدب الذكوري من تصوير المرأة القديمة التي لا تملك سوى الجمال والإخلاص... إلى المرأة الواقعية التي نشم منها رائحة البيئة. بل نقول إن مدام كوري ظهرت واكتشفت ما اكتشفت دون أن يكون لها صوت في الاقتراع العام كزوجها. كانت هي المكتشفة، وكان هو المساعد لها. في الاقتراع العام كان هو الأساس، ولم يكن لها ذكر. كانت النظرة الدينية مسيطرة. وظلت بقاياها مدة طويلة في المجتمعات الحديثة.

نسمع حديثا أن العلم صناعة شيطانية تضر بالبشر. وقد قدم لنا الفولكلور الأوروبي أسطورة «فاوست» ليعكس لنا تلك النظرة الدينية التي ترى في العلم ابتعادا عن الرب الإله، واقترابا من مفستوفيلس. إن الإيغال في العلوم يعني استخدام الوسائل الشيطانية. وليس هذا الرأي مقتصرا اليوم على العامة، بل إن بعض المثقفين يرون أن جانبا من مشاكلنا تعود إلى العلم.

إن إنزال اللعنة على العلم ليس سوى إنزالها على المرأة، لأنها كانت في القديم صاحبة العلم الأولى. والتنكر للعلم هو تنكر للمرأة. كان لا بد من أن يدان العلم حتى تدان المرأة. وقد سمي العلم في العصور الوسطى «السحر الأسود» حتى أن كل متعاملة مع الأعشاب تعتبر «وثنية» صديقة الأبالسة والشياطين. وكانت مربية الأفاعي تعتبر مجرمة، باعتبار الأفعى هي الشيطان. ومنع استخراج السموم واستخدامها. إن كل علم يجب أن يدان ويكافح، والخرافة أفضل وسيلة للانتصار على المرأة. لا يوجد علم يدين المرأة. لكنها مدانة ومتهمة في الأديان الذكورية فقط.

من جهة أخرى لا يجوز اعتبار العلم ضارا بالمرأة أنزلها عن وضعها الرفيع، فالظروف القاهرة التي سوّدت الرجل هي التي جعلته يقلب المفاهيم قلبا عكسيا فيدنس المقدس ويشتم المفيد وينهى عن العمل بالعلم نهيا شاملا. إن علم ميديا هو الذي أنقذها. استطاعت أن تعلم جاسون كيف يتغلب على الثور الوحشي وبقية المعجزات التي طلبها أبوها منه حتى يعطيه الجزة الذهبية. وهي التي استخدمت الأعشاب لإعادة الشباب، ومازالت هذه الطريقة مستخدمة اليوم في العالم الحديث استخداما واسعا. إن العلم هو الذي جعلها أقوى من جاسون غير المطلع على العلم. بالعلم استطاعت أن تنجو وتهرب وتطير وتهاجم وتجعل العالم يخضع لها. ومع ذلك لم يحافظ العلم على وضعها. إن الظروف الجديدة كانت أقوى، وهي التي حددت مسار التاريخ ووضع المرأة.

كانت ميديا أمازونة حقيقية. ولكنها حاربت منفردة. يبدو أن سلطة الرجل كانت في بدايتها. إنها تزيد عن الأمازونات بأنها ذات علم حقيقي. لم

ينقذها سيف ولا سهم، بل العلم. وقيل عن علمها إنه السحر الأسود لأنها قتلت ابنيها من جاسون. بعضهم يفسر ذلك بأنه انتقام من جاسون حتى تدع الحرقة في قلبه إلى الأبد عقابا على خيانته لها. وبعضهم يقول إنها قتلتهما لأن كريون عزم على قتلهما، بعد أن قضت على ابنته، خطيبة جاسون الجديدة... أشياء وأشياء كثيرة قيلت في تعليل قتلها لهذين الطفلين. ولكن الأرجح أنها فعلت ما فعلته ليليت حين رفضت أن تنسل من آدم، لشكها في أن يكون نسله صالحا. إن ميديا بقضائها على الطفلين ترمز إلى قطع الطريق على الخيانة من أن تنتشر في البشرية. إذ حين تنتشر الخيانة لا يعود ثمة شيء ولا يمكن الركون إلى شيء. إن الخيانة بداية كل فساد، لأنها تعيش في النفس وفيها تترعرع. ومتى فسدت النفس فسد الكون... كانت وحيدة، لذلك قضت على جاسون ولم تقض على الخيانة بين البشر فلم يؤثر علمها على وضع المرأة عموما. إن العلم الذي استنجدت به انقلب عليها شؤما بعد أن أدانه الرجل.

كانت ميديا كاهنة هيكاتي. ومعنى ذلك أنها كانت متقنة كل علوم "السحر" التي كانت هيكاتي ربته الكبرى. وهيكاتي من الطياطين الكبار. وهي الوحيدة التي احتفظت بامتيازاتها ولم يستطع زيوس أن يحرمها منها أو ينتزع بعضا منها. فهي ربة السماء والأرض والبحر، أي تعرف علم الأجواء والأنواء والحراثة. إنها بطلة حضارية حقيقية. وبما أنها ظلت محتفظة بهذه الامتيازات فقد طوّرت العلوم والفنون، وصارت ربة شمولية تعتني بكل ما في السماء والبحر والأرض. كانت تشرف على السفن والبحارة، وترشد التائهين في الليل وتحنو على الضعفاء والمساكين. وبما أنها ربة الأرض فهي واهبة الثروة والحظ لعبادها. وقد كانت ميديا تتعبدها في غرفة في بيت أبيها فوهبتها معرفة «السحر» فأتقنت هذا العلم النبيل الذي كانت هيكاتي تشرف عليه إشرافا مباشرا. كانت متوحدة مع ديمتر وسيلين. وكانت تماثيلها تنصب على مفارق الطرق بثلاثة وجوه، كناية عن هذا الثالوث المتوحد. وحتى الهيكل الذي أقيم لها في إحدى الجزر، كانت تنصب فيه ثلاث شجرات

وتعلق في سقف الرواق الخارجي ثلاثة مصابيح. وكان بناء فخما جميلا بسيطا، على عادة المعابد اليونانية.

لكن التغيرات التي حدثت جعلتها ربة العالم السفلي رغم علمها، مع أنها هبطت إليه لتكون إلى جانب برسيفوني ابنة ديمتر، أي ابنتها. إن الحنان هو الذي دفعها إلى الهبوط، وليس إقامة مملكة للسحر في العالم السفلي. ومع الأيام صارت ربة السحر الأسود وتصوّر في عتمة الليل وعلى عنقها تلتف الأفاعي الضخمة، وتسير أمامها كلابها النابحة، التي تملأ الليل بأصواتها المخيفة. وجعلوا لها كلابا متوحشة تهر الناس وتخيفهم. وهكذا تحولت إلى ربة الليل والعالم السفلي والسحر الأسود. بل إن اسمها انقلب وتغير، فصاروا يطلقون عليها اسم أغريوبي Agriobe (أي ذات الوجه الوحشي) وبدلا من الهروع إليها صاروا يهربون منها. وهكذا حولوا ربة الربات وعالمة العالمات، إلى كائنة متوحشة، وهي التي كانت ربة السماء والأرض والبحر، والوحيدة التي احتفظت بوظائفها بعد هزيمة الطيطان. عن طريق الظروف العامة التي تفرز الطرف القوي يتحدد دور العلم ووجهته.

المهم أن العلم الذي كان مطلبا أوليا صار منبوذا يخاف الناس منه. وبما أنه لا توجد ظاهرة إلا قبعت وراءها مقاصد إنسانية، فإن الغرض من هذا التغيير الذي جرى على هيكاتي هو التخلص من الربوبية والكهنوت النسوي ومن العلم الذي كان بيد المرأة، بغية الخلاص من سلطة المرأة. كان لا بد من القيام بذلك لتوطيد سلطة جديدة عادت وأوكلت للرجل القيام بمهمة العلم ذاته، ولكن بشكل آخر فقد ظهر الشامان والمشعوذ واستغرق الوقت طويلا حتى استوعب الرجل بعضا من علوم المرأة. فالغرض ليس التخلص من العلم بل تخليصه من المرأة لتوطيد السلطة الجديدة المختلفة أو المغايرة للسلطة القديمة.

قد يقال إن العلم القديم لم يصمد أمام الهجمات لأنه شعوذة وسحر. ولكن ماذا فعل العلم الحديث، وعلى الأخص في العالم الثالث المنكوب بسلطة ذكورية ترجع إلى أعرق أنواع الاستبداد في العالم؟ إن ما دفع المرأة إلى

التقدم هو الحاجة إليها الناجمة من الثورة الصناعية، ثم الحاجة إليها في الظروف الحديثة في الوظائف الاجتماعية، وإلا كانت المتعلمات في القرون الخالية ارتقين إلى أعلى المستويات الاجتماعية والفكرية. والدليل على ذلك أن الثورة الصناعية استخدمت المرأة في العمل من دون أن تكون هذه الـــمرأة متعلمة. إن الأغلبية العظمى من النساء كانت غارقة في الأمية. وكذلك الأطفال.

إن المجتمع كل متفاعل. ومن هذا الموقف يجب أن ننظر إلى العلم، فلا نوليه ذلك الدور الحاسم في العملية الاجتماعية للعصور القديمة. أهميته في أنه كان سلاحا بيد المرأة ولكنه لم يكن السلاح الحاسم. لقد خلق الحصان ظروفا أقوى منه بكثير.

الحرب القديمة والحصان

كانت الحرب قديما، قبل ظهور الديانات الذكورية، تتجلى في مظاهر الطبيعة المدمرة. وكانت النزاعات الناشبة تحل سلميا، أو تحل باستخدام أدوات بسيطة جدا في القتال، والأفضل أن نقول التنازع، لأن الملكية الخاصة لم تكن قد ظهرت بعد. كانت الملكية فردية أو شخصية محدودة ولا مجال للتنازع عليها. وعرفت الميثولوجيا القديمة كثيرا من ربات الحرب في كل أصقاع المسكونة. وقد ظهرت ربات حرب في الشرق دون الغرب، نظرا لتاريخه البشري الموغل في القدم. لنأخذ على سبيل المثال إينانا (التي توحدت فيما بعد بعشتار) فقد كانت ربة الحرب والحب. والحرب هي دفاع عن الحب، أي دفاع عن الأرض والمجتمع والنظام القائم. ودائما كان الحب مرتبطا بالحرب. فأنت تحارب ضد شيء لأنه يشكل خطرا على شيء تحبه. أما عندما تدور الحرب بين طرفين لا تحب أحدهما فإنك غير معني بالحرب. والحرب كانت بين الربات والبشر، نتيجة الخطيئة الكبرى التي يرتكبها البشر بحق الربات، فترسل هذه الربات العواصف والرياح وتحدث الزلازل، ومع ذلك كانت حامية لأعتاب البيوت في الوقت نفسه. وهذا يدل أن سلطة الربة كانت واسعة جدا. لم تكن هناك حرب بين المرأة والرجل. ولم تكن المرأة

تدفع ثمن الحرب. كان الرجل خاضعا لسلطتها، وعرفت المجتمعات النسائية، وبشكل خاص المجتمعات الأمازونية المنتشرة في حوضي البحر الأسود والبحر المتوسط، وأد الأطفال الذكور. فمشكلة الذكر كانت محلولة.

لكن ظهور الحصان واستخدامه في الحرب رجح كفة الرجل، فاضطرت بعض المجتمعات التي كانت فيها سلطة المرأة وطيدة أن تلجأ إلى هذه الوسيلة. وتجلى ذلك واضحا في المجتمعات الأمازونية التي استمرت طويلا. فحتى القرن الثامن بعد الميلاد، كانت هناك ممالك تقودها النساء، من أمثال "الكاهنة" البطلة البربرية التي استطاعت أن تحول دون استيلاء العرب على أراضيها. كان ظهور الحصان نقطة تحول خطيرة جدا في المجتمعات القديمة. لم يحسم المعركة في وقت قصير، ولكنه بأقل من ثلاثة آلاف عام وطد سلطة الرجل وأقام له إمبراطوريات واسعة جدا، وتحولت المرأة من مديرة مجتمع إلى مخلوق معرض للسبي، وخاضع للقوانين الجديدة التي فرضتها الإمبراطوريات الجبارة.

ربات وربات التهمهن النسيان أو شوهت سمعتهن، من أمثال تيامات، التي كانت ربة عظيمة، تلقب بالأم الكبرى المسؤولة عن كل شيء، ومن ذلك الحرب. فقد انتصر عليها الإله مردوك، على اعتبار أنها مخلوق مؤذ خطير يهدد الطبيعة والبشر. وبدأت ربات الحروب تتراجع. ومنهن «أناهيد» Anahiti الإيرانية التي يقال إنها من أصل هندي. ومعنى اسمها في الأفستا «القوية والرطبة وغير الملوثة» أي الربة النقية. وكانت تجمع هي الأخرى بين الحرب والحب. وحظيت لفترة طويلة بعبادة انتشرت في كل البلاد الشرقية، وامتدت إلى ساحل المتوسط.

وما حصل في البانثيون الشرقي حصل في البانثيون الغربي، فقد أسندت وظائف الأنثى، وبالأخص تلك التي تساعد في بسط السيطرة، إلى الذكور. إن إله الحرب اليوناني المعروف اليوم هو أريس Ares الذي سماه الرومان مارس. لا أحد يذكر أن أثينا (منيرفا عند الرومان) كانت ربة الحرب والزراعة، فقد أهداها أبوها زيوس درعه وترسه الذي عليه رسم

رأس ميدوزا، الذي يحمي حامله، وكذلك قدم لها الصاعقة، أفتك سلاح عنده. ولكن متى وأين استخدمت هذه الأسلحة؟ إنها بقايا من العهود القديمة. صارت أثينا ربة الحكمة والحلم والفنون، مثل أخيها أبولو. كان انتزاع هذه الوظائف من النساء في البانثيونات الشرقية والغربية مترافقا مع تطورات تجري على أرض الواقع في المجتمع.

بانتقال وظيفة الحرب إلى الرجل صارت عمليات الخطف تكثر. وهناك حادثتان من هذا القبيل لهما دلالة بعيدة: خطف أوروبا وخطف برسيفوني.

حادثة خطف أوروبا حصلت قبل أن يظهر الحصان كأداة حربية. كان الثور هو البطل الحضاري الذي دعم مكانة الرجل الإنتاجية والاجتماعية. وقد حول زيوس نفسه إلى ثور أبيض جميل بأنفاس فواحة عطرة، فأغرى شكله أوروبا فركبت عليه وحولها صاحباتها اللواتي كن يجمعن الزهور من الحديقة في مدينة صور. ولما وثق زيوس بأنها صارت على ظهره، فرّ بها إلى اليونان. وهذه أول حادثة خطف في تاريخ الميثولوجيا. كانت الحروب قد انتشرت، وأكبرها حرب زيوس ضد أخوته الطيطان. وبظهور الحروب صارت المرأة مثل أي متاع، تخطف وتخضع لقوانين خاطفها. ولكن من الهدايا التي قدمها لها نعرف أن المرأة ظلت تحتفظ باحترامها. فقد قدم لها تالوس، الرجل الآلي الذي يقوم على خدمة حديقتها، وليلابس الكلب السريع الذي يلحق بأي وحش، ورمحه الذي لا يخطئ طريدة. وقد ولدت له أعظم ثلاثة رجال في القضاء والعدل: مينوس وساربيدون ورادامانتوس. أما بعد هذه الحادثة فلا نجد هدايا ولا ولادة رجال يضرب بهم المثل، لا في العدل ولا في غير العدل. بدأت مكانة المرأة تتزعزع.

أما الحادثة الثانية فهي خطف بلوتو، رب العالم السفلي لبرسيفوني (بروسربين عند الرومان) فقد استخدم الحصان في خطفها. المشهد هو ذاته: وكذلك كانت برسيفوني تجمع الأزهار مع رفيقاتها من حديقة أمها ديميتر، ربة الحقل والحبوب. هذه المرة لم تؤخذ إلى كريت بل إلى العالم السفلي.

وهناك خضعت لقوانين بلوتو الصارمة. ظلت أوروبا في العالم الأرضي، معززة مكرمة، بينما غابت برسيفوني في العالم القاتم، ولم يسمح لها بالعودة إلا فترة قصيرة هي فترة الإنبات. وهذا يدل أن الرجل كان حتى تلك الفترة يؤمن أن الإنتاج لا يكون إلا عن طريق المرأة. فقد توقف إنتاج الأرض عندما حزنت ديمتر على ابنتها، ولم تخرج الأرض نبتها إلا عندما عادت. إن هذا المعتقد جعل للمرأة دورا في البانثيونات الشرقية والغربية.

كل الوظائف التي تدل على القوة والجبروت انتزعت منها. فنجد هناك ربات للزهور والرياحين والفجر والأنهار والغابات والينابيع والقمر والليل... ربات البحر تحولن إلى حوريات لا يستطعن شيئا. القرار هو بيد رب البحر نبتون الجبار. وهناك قصة طريفة بطلاها نبتون وأثينا. فقد بنى اليونان مدينة وأرادوا أن يسموها باسم الإله الذي يقدم لهم أنفع هدية، فقدم لهم نبتون الحصان، وقدمت لهم أثينا شجرة الزيتون وهي شجرتها المفضلة. فاجتمع رجال المدينة واتفقوا مع النساء على تسميتها نبتون في الاقتراع العام الذي سيجري. وعندما ظهرت نتيجة الاقتراع تبين أن النساء نكثن بالاتفاق وصوتن لأثينا، فسميت المدينة باسمها. ومنذ ذلك التاريخ اتخذ الرجال قرارا يستبعد المرأة من التصويت العام. ومن الاختيار يتبين أن الاعتقاد بدور المرأة في الإنتاج لعب دورا كبيرا في الاقتراع، لأن قسما من الرجال صوتوا لصالح أثينا. والخيار بين الحصان والزيتون هو خيار بين الرجولة والأنوثة، بين الحرب والسلم، بين الحيازة بالعنف والحيازة بالعمل. إن الحصان بطل حربي وليس بطلا إنتاجيا كالحمار والثور. ومن هنا نفهم لماذا غص البانثيون اليوناني بالربات إلى جانب الأرباب. وقد مر زمن غير قصير حتى آمن المجتمع بأن الحصان يجلب الخيرات من الغزو والحرب، وأنه يضمن الحماية والكرامة والعزة والسؤدد والثروة أكثر بكثير مما يضمنه غصن الزيتون. ومنذ ذلك الوقت دخل المجتمع ثقافة الحصان واتخذ بلاغته قدوة... وانتهى زمن السلم والإنتاج. السلم تضمنه الحروب والإنتاج يجلبه الحصان. إن غزوة واحدة تضمن إنتاجا لا يعادله إنتاج سنوات عديدة. وبنشأة الإمبراطوريات تغير كل شيء.

حاولت المرأة إنشاء مجتمعات مستقلة هي مجتمعات الأمازونات التي رفضت هذا الاتجاه. ولكنها اضطرت أن تتعامل مع الحروب لحماية نفسها من المجتمعات الذكورية. مكثت هذه المجتمعات طويلا، وعاشت مع المجتمعات الأخرى، في سلم حينا وفي حرب حينا. وفي النهاية كانت الإمبراطوريات أقوى من الأمازونات بكثير، فقضت الإمبراطورية اليونانية على المجتمعات الأمازونية في البحر الأسود، وقضت الإمبراطورية العربية على المجتمعات الأمازونية البربرية في المغرب الإفريقي، وامتد ذلك حتى أواسط إفريقيا، حيث كانت المجتمعات الأمومية ما تزال قائمة.

الصراع الأيديولوجي

إلى جانب الصراع الواقعي كان ثمة صراع أيديولوجي يغير البانثيونات ويوزع وظائفها حسب موازين القوى على الأرض. مصير أوروبا أفضل من مصير برسيفوني ومصير الأخيرة أفضل من مصير كثير من الربات التاليات. صحيح أنها صارت ملكة العالم السفلي، ولكنها لم تقم بأي دور فاعل في هذا العالم، بل كان ذلك من حق الإله المخيف بلوتو الذي يرتدي الثياب السوداء. وكانت برسيفوني تزور أمها ديمتر في فصل الإنبات، أي في بداية الربيع. أما الفصول القاتمة فإنها تمضيها في العالم السفلي. إن تأثير هذه الربة لم يكن ملحوظا لا في العالم المظلم ولا في العالم المشرق.

بقية الربات بقين إما في العالم السفلي وإما شريدات مطرودات يلاحقهن الرجال للقضاء عليهن. من هؤلاء مثلا إرشكيجال السومرية التي صارت ربة العالم السفلي مع أنها أخت إينانا واسمها يدل أنها كانت من ربات الخير والبركة والعطاء. معنى اسمها «ربة الأرض الكبيرة» أي ربة المساحات الواسعة، ويبدو أنها ظهرت بظهور الزراعة في المساحات الواسعة، بعد وصول قنوات المياه إلى تلك المساحات. وعلى الرغم من أنها في العالم السفلي تعتبر ملكة كاملة الاعتبار إلا أن زوجها هو الملك الحقيقي الذي عينته آلهة القدر والمصير. وعندما يحصل أي خلاف تكون الكلمة الحاسمة للزوج وليس للزوجة، للملك وليس للملكة. مرت فترة كانت وحدها

الحاكمة على العالم السفلي. ولكن فيما بعد تزوجها نرجال، حيث لم تعد لها الكلمة المطلقة. وهناك قصة طريفة عن زيارة أختها إينانا لعالمها القاتم، حيث يدور صراع بين الأختين ينتهي بانتصار إرشكيجال. كان الاتجاه أن يتخلصوا من إينانا ويدفعوا بها إلى العالم السفلي، مع أنها كانت تسير مع التوجه الذكوري العام. لكن يبدو أن عبادتها كانت منتشرة انتشارا واسعا. وخير طريقة هو أن تزج في العالم الآخر. وهناك سوف تخضع لسلطة الرجل، مثل أختها. ولكن السرد الفني لم يستطع أن يجعل للعالم السفلي ربتين في آن واحد، فاكتفى بوصف الصراع بين الأختين.

أما ليليت فقصتها معروفة، إذ حولها الصراع الأيديولوجي من ربة مهد ناعمة مسالمة إلى شيطانة ليلية تهرب من مكان مظلم إلى مكان مقفر، لتخنق الأطفال وتقتل الرجال. إنه لتحول خطير وكبير جدا يدل أن المجتمع في تلك المنطقة قد تحول بسرعة إلى النظام الذكوري.

وسيرة الصراع في الغرب لا تختلف عنها في الشرق. فهيكاتي من أعظم الربات عند الإغريق القدامى. فهي متوحدة بأرتيميس وسيلين وبعضهم يرى أنها متوحدة مع ديمتر، ولذلك رافقتها إلى العالم السفلي لتعتني بها. وهي تشبه عشتروت الشرقية في سيرتها القديمة، فهي ربة الزواج والحب والأرض والاهتمام بالعذارى، وإرشاد عابري السبيل... إلى آخر الأفعال النبيلة التي تمسك البشرية من الانهيار... وبعد مدة صرنا نسمع أن اسمها ليس هيكاتي «ذات الرمية البعيدة» وهي الصفة التي انتزعها منها أبولو وصارت تنسب له باعتباره إله الشمس التي ترسل أشعتها بعيدا، بل صار أغريوبي، أي ذات الوجه الوحشي المرعب، التي تنبح كلابها في عتمة الليل نباحا مرعبا، والتي صارت ربة في العالم السفلي، مع أنها ذهبت لترافق برسيفوني وتعتني بها في ذلك العالم الغريب على الفتاة الصغيرة. ومع ذلك ظلت تماثيلها ثلاثية الوجوه، تنتصب على مفارق الطرق لهداية المسافرين.

تحتاج متابعة الصراع الأيديولوجي إلى مجلدات ضخمة لتغطية التاريخ القديم فقط. ولكن ثمة ظاهرة ذات دلالة بعيدة في هذا الصدد. وهي ظاهرة

برزت في الميثولوجيا اليونانية أكثر من غيرها، بل إنها تكاد تكون محصورة في العقلية اليونانية. فربات الفنون Muses كلهن من الإناث: كاليوبي للشعر الملحمي وكليو للتاريخ وإراتو للشعر الغنائي ويوتربي للموسيقى وميلبوميني للتراجيديا وبوليهيمنيا للموسيقى الدينية وتيربسيكوري للرقص وتاليا للكوميديا وأورانيا للفلك. والعالم كله على اختلاف لغاته يستخدم كلمة «الموسيقى» نسبة لكلمة Muses التي تطلق على ربات الفنون. لا توجد كلمة أخرى نضعها بدلا من كلمة الموسيقى. ومع أن الصراع الأيديولوجي كان شديدا، إلا أنه لم يستطع أن يضع ربا واحدا بين هذه الربات المختصة بالفنون وكل ما هو جميل يرقى بنفسية الإنسان ويجعله متمايزا عن غيره من المخلوقات الأخرى. الفنون وحدها ميزان تقدم الفرد والأمم في الأيام الماضية وفي هذه الأيام وفي كل أيام.

نلاحظ أنها كلها محتكرة من قبل الربات. أبولو الذي صار يطلق عليه "رب الشعر والفنون" كان راعي بقر بسيط جدا، ولو لم يصعد إلى قمة البرناس، حيث تقيم ربات الفنون، ويتعلم على أيديهن تلك الفنون الرائعة، لـظل راعي بقر. وقد ابتكر الرجل قصة أبولو وتدريب ربات الفنون له ليكون هناك رب للفنون. فالفن، أصلا، حكر على الإناث. وربات الفنون هن بنات الربة الكبرى نيموزيني Mnemosyne أي الذاكرة. فماذا تفعل الأيديولوجيا الذكورية أمام ذلك؟ كل ما فعلته أنها زوجت نيموزيني من زيوس رب الأرباب في الأولمب. وولدت هذه الربة تسع فتيات موهوبات من «الذاكرة» هن الوحيدات اللواتي يمكن أن يقدمن للإنسان عزاء في وجوده المأساوي. وقد أوصى بروميثيوس ابنه ديوكاليون أن يتعلم من ربات الفنون كل فنونهن، بعد أن ينتهي الطوفان ويستقر الفلك في قمة البرناس، حتى يكون أبا لجنس يعرف الفرح واللعب.

ننظر اليوم في تاريخ الفنون فنجد أنها حكر على الرجال فقط. وهذا يشير إلى تناقض كبير بين كون ربات الفنون من الإناث، وكون منتجي الفنون من الذكور. إن كل الفنون من صنع الرجل، فهل يعقل أن يكون ذلك

حقيقيا وربات الفنون كلهن من الإناث؟ إن هذا يقود إلى الاستنتاج أن هناك تراثا كبيرا وضخما ضاع أو ضُيّع عمدا، وهذه طريقة معروفة لتحقيق انتصار الأيديولوجيا الأخرى. إن قمع بقية الأيديولوجيات يساعد في انتشار الأيديولوجيا الجديدة. وهذا الذي جرى عبر التاريخ الطويل. لقد نجحت الخطة وبقيت الدلالة. فلا يعقل ألا يكون بين التسع واحد فقط من الذكور في فنون أراد الرجل أن تكون حكرا عليه.

واليوم تعّير المرأة بأنها بعيدة عن ممارسة الفنون، فلا وجود إلا لبعض الأسماء القليلة جدا في عالم المسرحية أو الرسم أو الموسيقى أو غير ذلك من الفنون أو العلوم... ويستنتجون من ذلك بأنها متخلفة عن الرجل في استيعاب القيم الجمالية، وتعلم الفنون وإتقانها. وهذا نوع من أنواع الصراع الأيديولوجي. وهو ليس نوعا جديدا بل إنه يرجع إلى العصور القديمة جدا، عندما جرت المحاولات لانتزاع الوظائف الهامة والخطيرة من يد المرأة وإسنادها إلى الرجل. وقد نجح الكثير من هذه المحاولات، إلا في ربات الفنون، فما زلنا يشرقن ويسطعن في سماء عالم الفن والأدب. وعلى كل رجل أن يفعل ما فعله أبولو، أي يتعلم على يد ربات الفنون حتى يكون ربا للفن. وليس عبثا أن نجد وراء كل إبداع فني وأدبي امرأة قابعة خلف النص أو الأثر. إن حذف المرأة يعني حذف الفنون، يعني أن ديوكاليون وزوجته بيرها لم يتعلما كيف يواجهان مأساة الحياة بممارسة الفنون. إن الأنواع الأدبية واللوحات الفنية والتماثيل والزخارف والأغاني والفولكلور... تدور حول المرأة. طبعا هناك أشياء أخرى، ولكن المرأة تحتل المكانة الأولى. ولا تفسير لذلك سوى أن هذه الممارسة استمرار للطقوس التي كانت منذ آلاف السنوات تقام للربة الأم. إن الذكر لم يستطع أن يخلق أدبا ذكوريا. صار الذكر ينتج الأدب ولكنه ظل في طقوس العبادة الأنثوية. وعندما خلق الأدب الأبطال الذكور، الذين يقومون بالمغامرات من أجل المرأة، كان الحصان قد دخل الحياة اليومية، وصنع الإمبراطوريات المترامية الأطراف. وعلى

الرغم من كل ما حاق بالمرأة ظلت الطقوس القديمة مستمرة في الأدب والفن.

وإذا نظرنا إلى أرتيميس (ديانا عند الرومان) لوجدناها عبارة عن أمازونية أقامت لنفسها مجتمعها الخاص من عذارى الـغاب والأنهار. دائما تكون متسلحة بأسلحة الصيد. إنها أمازونية حقيقية مطرودة من مجتمع الذكور أو انتبذته بإرادتها. هي أيضا عازفة عن الزواج مثل ليليت، وحامية للعذارى. إن هذه الربة دليل أنها كانت ذات أهمية كبرى، ولكن التطور دفع بها إلى العزلة في الأدغال والغابات. إن الأيديولوجيا التي عزلت ديانا كانت تعي ما تفعل. لقد أبطـلت مفعولها من المجتمع الواقعي، فطردتها إلى الغاب، مع وظائفها السابقة. والأرجح أن تكون هي الأخرى ربة حرب، احتفظت بمظاهر الصيد القديمة.

ومشكلة العذرية عند ديانا هي ذاتها مشكلة العذرية عند الأمازونات. إنها ابتعاد عن المجتمع الجديد الذي لم تعد المرأة مسيطرة على مجرى أموره، إلا على أقل القليل. إن عذرية ليليت تتكرر هنا. وهي تعني الرفض لكل هذه الأشياء الطارئة التي لا يمكن أن تتقبلها. فضلت أن تعيش بكرامتها من أن تعيش في الأجواء المعادية غير المألوفة والمذلة لها.

الباقي من الأساليب والأسلحة

كشف التاريخ القديم: أشرنا إلى أهم الأساليب والأسلحة المـستخدمة قديما. وقد رافق الصراع الأيديولوجي التحولات الاجتماعية التي حدثت في المجتمع بعد استخدام الحصان وقيام الإمبراطوريات، أو حتى منذ استخدام الثور. ولو أنعمنا النظر اليوم في الأسلحة التي تستخدمها معظم الحركات النسوية الحديثة feminism لوجدنا أنها تكاد تنحصر في نوعين اثنين: الأول هو العودة إلى الأديان الوثنية القديمة، والثاني هو الجنس.

أما العودة إلى الأديان القديمة فليست وسيلة عند كل الحركات النسوية. بعض الحركات لا تشير إلى ذلك أمثال الحركة النسوية الفوضوية والحركة

النسوية الماركسية. ولكن الأغلبية العظمى تعود إلى هذه الأديان وتكشف حقائق الربات القديمات. فالحركة النسوية اليهودية مثلا ترفض ما قدمه لهن الدين اليهودي الذكوري من أن ليليت شيطانة ليلية تخنق وتقتل وتدمر وتضاجع ليلا وما شابه ذلك، بل ترى فيها ربة مشرقة تريد نسلا بريئا من خطايا هذه البشرية المفسدة. وهي ربة حنونة مشفقة على الأطفال لا خانقة لهم، وتريد من الرجال أن يسموا على الغرائز الذكورية الجارفة الهوجاء. وقامت هذه الحركات بمجهودات جبارة لكشف التاريخ المطموس للربات، من الربة الأم حتى حورية النهر، ورحن يظهرن كيف خضع هذا التاريخ للتشويه المتعمد، أو غير المتعمد، ويعرضن حقيقة أوضاع النساء في القديم من الميثولوجيات والتغيرات التي أصابتها، ومن الدراسات الإنتروبولوجية الحديثة، من أمثال جيمس فريزر وتايلور ومالينوفسكي... وعادت الربات القديمة بحلة جديدة كلها سمو وائتلاق ورفعة، وليس كما صورهن الرجل انطلاقا من موقف أيديولوجي مغرض. ومن يدخل الإنترنت اليوم سوف يجد مئات المواقع النسوية معظمها بأسماء الربات من أمثال ليليت وهيكاتي وباوبو وأثينا وتيامات وإيزيس وعشتار وبرنهيلد والأمازونات والفالكيرات... والكثير الكثير من الربات والبطلات الحضاريات اللواتي كن وراء الأنظمة السلمية السعيدة، بل إن بعض الدراسات تذهب إلى أن العصر الذهبي ليس هو العصر الذي أقامه كرونوس (يسميه الرومان ساتورن) في إيطاليا، بل هو ما أقامته الربة الأم قبل أن يسيطر الرجل بإمبراطورياته الكبرى التي جرفت كل الأنظمة السعيدة، وأقامت أنظمة الحروب والقتال والصراع الداخلي المميت، وجعلت المجتمعات تنقسم على نفسها، بحيث يحمل كل مجتمع جرثومة انهياره. ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم لم تستطع البشرية أن توطد نظاما يضمن لها السلم والحرية.

تعتبر الحركات النسوية أن كشف التاريخ يظهر الحقيقة ، يظهر الوجه القبيح لسيرة الرجل. ففي الميثولوجيا القديمة، حيث كانت الربة الأم تشرف على الحياة الإنسانية لم ينشأ صراع ولا قتال. لقد خلقت الوجود من العدم عن

طريق الحب، باستخدام الجنس استخداما سليما. ولكن الميثولوجيا الجديدة، أو ميثولوجيا الرجل لا تفصح إلا عن الصراع الأبدي المستمر بين الذكور أنفسهم، فكرونوس يخصي أباه أورانوس، ويلتهم أولاده خوفا من نبوءة تقول إن أحدهم سوف يخلعه عن عرشه، واستطاعت زوجته أن تـقدم له صخرة باعتبارها ابنه الوليد الجديد، فابتلعها، ونجى الابن زيوس الذي عاش في كريت، ولما كبر حاربه وأجبره أن يتقيأ أخوته وأخواته، وهم آلهة الأولمب، وأن يتقيأ أيضا الصخرة، التي أخذت ووضعت في معبد دلفي، كذكرى لانتصار زيوس على أبيه.

وزيوس نفسه يربط بروميثيوس إلى صخرة في جبل القفقاس، لأنه لم يش باسم الشخص الذي سوف يخلعه عن عرشه، كما فعل هو بأبيه... وهكذا نجد أننا أمام سلسلة من الصراعات والحروب الكريهة في الأسرة الواحدة. وما زالت البشرية في هذه السلسلة، لم تحد عنها، فالصراعات تظهر حتى في قلب الأسرة الواحدة، ناهيك عن الصراعات في قلب المجتمع الواحد، وبين الأقوام والأعراق والأديان المختلفة...

وتعكس هذه الميثولوجيا الذكورية الأساليب التي اتبعها الرجل في تشويه سمعة المرأة وإشاعة أنها مرادفة للشر والخطيئة. وعندما أزمع الآلهة أن ينتقموا من الإنسان أرسلوا إليه هدية، تفسد عليه حياته وتنكده وتجلب له الشرور، فخلقوا باندورا وجعلوا معها صندوقا صغيرا، عندما فتحته انطلقت منه الخطايا البشرية المعروفة، فسارعت وأطبقته على «الأمل» الوحيد الذي بقي فيه، ولكنه أقنعها بأن تطلق سراحه حتى يخفف من هذه المصائب والخطايا، فأطلقته. وباندورا تكرار لقصة حواء التي جلبت الموت والخطيئة إلى البشرية. وقد بينت الحركات النسوية أن المسؤول عن هذه الخطايا ليس باندورا بل الآلهة الذكور الذين يملكون قدرة الردع مثلما تملك هي قدرة الإغراء. وقبل هذه الميثولوجيا لم يكن ثمة تحايل أو مخادعة أو غش أو ترصد لإيقاع الأذى بالبشرية. إن الميثولوجيا الجديدة هي ميثولوجيا الحرب ضد المرأة، ولذلك انحصرت عمليات الخطف بالمرأة فقط. لا توجد حادثة

خطف فيها رجل. وبما أن الحرب ذات طبيعة خاصة، فإنها تنقلب على مثيريها، فنشبت بين الرجل والرجل أيضا، وما زالت حتى اليوم. إن بمقدور أي رجل أن يثير حربا، ولكن ليس بمقدوره أن يحصرها أو يحددها أو يعين لـها وجهتها، إذ سوف تستشري بسبب طبيعتها الخاصة، ويصير إخمادها صعبا. إن دخول الميثولوجيا الجديدة هو دخول الحرب في الحياة البشرية، التي كانت هادئة سلمية. وكلما تطورت الأدوات الحربية، ازدادت الحرب ضراوة، فحروب الحصان تختلف عن حروب الصواريخ والأسلحة الذرية التي جعلت البشرية في حالة من الرعب النووي.

الجنس سلاحا: أما النوع الثاني الذي تلجأ إليه الحركة النسوية الحديثة فهو الجنس. لقد ازدادت أهميته بعد انتشار مرض جديد كل الجدة، وهو الإيدز. إنه مرض مخيف حقا. وسببه المباشر هو الرجل وليس المرأة. أو لنقل إنه ليس الجنس بالمفهوم الصحيح، بل بالمفهوم المشوه، نتيجة الحرية الفردية المنفلتة التي لا تستهدي بالسمو والنظافة. إن الرجل هو المسؤول المباشر عن انتشار هذا المرض الفتاك. لقد أجبر البشرية أن تعيد حساباتها في الزواج والطلاق والتربية والتعليم والعلاقة الجنسية السليمة... إن مرض الإيدز هو جرس الإنذار الذي نبه البشرية إلى أمور خطيرة جدا. فكيف تنظر الحركة النسوية الحديثة إلى الجنس؟

رجعت الحركة النسوية إلى التاريخ القديم لمعرفة دور الجنس في الحياة الاجتماعية والفردية، وعلاقته بالحرية الحقيقية، وكيف يعتبر أداة من أدوات الصراع / التعايش بين الذكر والأنثى.

وأبرز أثر أدبي قديم أظهر سلاح الجنس عند المرأة، حتى بعد سيطرة الرجل، هو ملحمة «جلجاميش». فمنذ الصفحات الأولى للملحمة نقرأ كيف كان إنكيدو متوحشا يعيش مع ضواري البراري والتلال. وقد شاهده الصياد مندهشا من قوته الجبارة، فأخبر أباه، فأجابه الأب: «لم يقف أحد أمام جلجامش الذي يعيش في أوروك، إنه مثل نجم السماء قوة واقتدارا. فقابله وبالغ في قوة هذا الإنسان الوحش. اسأله أن يرسل معك عاهرة من معبد

الحب، ودع قوة أنوثتها تقهر هذا الرجل، فإذا ورد الماء فسوف يضمها، فتنبذه حيوانات البرية» وفعل ما قال له. وتم اللقاء وانقلب إنكيدو من وحش إلى إنسان. «لم تستح منه، تعرت واستقبلت أشواقه المتعطشة، فعلمته فن المرأة. ناما معا ستة أيام وسبع ليال، فنسي إنكيدو بيته الجبلي. وعندما شبع رجع إلى وحوش البرية فنفرت منه. أراد اللحاق بها كعادته، ولكن جسده كان مقيدا كمن أوثق بالحبال، وخذلته ركبتاه عندما هم بالعدو، فذهبت عنه سرعته. والآن فرت المخلوقات البرية كلها، لقد ضعف إنكيدو»

وجاء في هذه الملحمة أيضا «كان إنكيدو حكيما، وكانت نزعات البشر تضطرب في قلبه، لذا عاد وجلس عند قدمي المرأة، وأصغى باهتمام لما قالته: «أنت حكيم يا إنكيدو، والآن أصبحت مثل إله. لماذا تريد أن تهيم مع الوحوش في الجبال؟ تعال معي. سأصطحبك إلى أوروك ذات الأسوار المنيعة، إلى المعبد المبارك، معبد عشتار وآنو، إلهي الحب والسماء. هناك يعيش جلجامش، العظيم الجبروت، الذي يحكم الناس كثور بري»... وهكذا أكد هذا الأثر القديم كيف تحول المرأة الرجل من حالة التوحش والهمجية إلى مخلوق رقيق الحاشية، دمث الأخلاق. . . إن هذه المرأة حولت إنكيدو إلى إنسان.

لو طبعت هذه الملحمة، مع تغيير بسيط في النص، وكتب على الغلاف اسم كاتب حديث، لما عرف من لم يطلع على هذه الملحمة سوى أنها رواية حديثة ومعاصرة. وكذلك ليليت. إنها ما تزال تعيش بيننا.

لقد أكدت الملحمة أن «الجنس» هو أخطر الأسلحة. إنه حاجة وضرورة للمخلوقات. وتبقى المسألة في طريقة استخدام المرأة لهذا السلاح، كما سوف نشير فيما بعد.

ولم تترك الحركة ربة من الربات القديمة إلا درستها وعرفت منها الصورة التي مورس الجنس فيها، من الزواج المقدس، المحافظ على النوع، حتى تصنيع الفرح، المحافظ على توازن الحياة وإبعاد الاكتئاب والأزمات

النفسية. ومن أهم الربات أو أنصاف الربات اللواتي حظين بدراسة موسعة باوبو التي يجدر أن تتعلم منها المرأة وظيفة الجنس، ودوره كسلاح بيدها.

باوبو ونظرتها في دور الجنس

خضعت هذه المخلوقة لكثير من التشويه كغيرها من الربات. فقد وصفت بالماجنة والداعرة وقليلة الحشمة والحياء، والمستهترة بأصول اللياقة والأدب. كانت عجوزا شمطاء crone . فلا يعقل ولا يقبل المنطق أن تكون على هذه الصورة، وإن كان اسمها Baubo يدل على عضو الأنوثة. وقد جعلها غوته في الجزء الأول من فاوست (ليلة والبورغ) ممثلة الدعارة والتهتك. لكن بعض الباحثات من الحركة النسوية لهن رأي آخر، بعد أن قمن بدراستها دراسة تاريخية أنثروبولوجية موسعة. فتقول عنها كلاريسا بيكولا إيستس إنها أعظم الربات وأحبهن. وربما كانت أفضل من أي شخصية خالدة أخرى. وتخصها الباحثة ونفريد ميليوس لوبيل Lubell بكتاب يربو على ٢٤٠ صفحة مع المكتشفات والصور التوضيحية، وانتهت إلى أنها بحركاتها ونكاتها وكلماتها وأغانيها ورقصها تمثل تعبيرا للطاقة الجنسية الأنثوية الأساسية التي على عاتقها تقع مهمة استعادة النظام والتوازن في الطبيعة والحياة. فالفارق بين الموقفين كبير جدا: موقف الرجل وموقف المرأة، ليس في العصر القديم وحسب بل في العصر الحديث أيضا. إنهما موقفان متعارضان تماما.

عاشت باوبو في إليوس، مدينة ديميتر، ربة الأرض والقمح. وكانت حاضنتها المشرفة على تربيتها. وديميتر من أرصن الربات على الإطلاق. وكانت باوبو متقدمة في السن. فلا يعقل أن تكون الحركات التي قامت بها حركات دعارة وفجور وفسق. ولو نحينا جميع الأسباب، لبقي سبب واحد وجيه جدا، وهو أنها قامت بهذه الحركات أمام الربة الأنثى وليس أمام ذكر، ربا كان أو إنسانا. وربما تكون قصتها خير دليل على ماهية الحركات التي قامت بها.

ثمة اتفاق على الأحداث الكبرى للقصة. فعندما خطفت برسيفوني ابنة الربة ديمتر، حزنت الربة حزنا شديدا، وراحت تطوف الديار والأصقاع بحثا عن ابنتها. سألت رفيقات ابنتها اللواتي كن معها في الحقل يجمعن الزهر (ويقال إنهن أربع) فلم يجرؤن على البوح خوفا من رب العالم السفلي بلوتو، فحولتهن إلى سيرينات. انتقلت من مكان إلى مكان، بلا طائل. وكلما اشتدت حزنا ضنت الأرض بخيراتها، فلم يظهر نبت ولم ترتفع سنبلة، مما يهدد البشرية بمجاعة محققة.

أخيرا وصلت إلى مدينة يقال لها إليوس Eleusis تبعد مسيرة يوم عن أثينا، في الجهة المقابلة لسالاميس، وقد تنكرت على شكل عجوز شمطاء. وفي إليوس كانت تقيم امرأة متقدمة في السن أيضا يقال لها باوبو، وهي مربية خبيرة بالصغار والكبار. وكان ملك المدينة سيليوس لطيفا معها دعاها إلى منزله.

لاحظت باوبو أن هذه المرأة العجوز التي اهتمت بخدمتها واعتنت بها كثيرا، وقدمت لها النصائح، لا تبتسم، بحيث خافت أن يقتلها الحزن والتأمل. عبثا حاولت إقناعها بأنها تقضي على ذاتها إن بقيت هكذا. يجب أن تستثير طاقتها الجنسية حتى تستعيد حيويتها، وتصبح قادرة على فعل الخير. ولما رفضت قامت باوبو هي نفسها بهذا الفعل، فراحت ترقص وتغني وتكشف عن بطنها وساقيها مشرعة فرجها من الأمام ومن الخلف، وتدور أحيانا دورانا شديدا، وكانت أغانيها تبعث النشوة وتعيد الفرح إلى القلب. وبعد قليل لاحظت ديمتر أن باوبو صارت مثل صبية في مقتبل العمر. فما كان منها إلا أن ابتسمت، ثم ضحكت، ثم قامت تشاركها فرحتها. ومنذ ذلك الوقت سعت إلى عمل الخير، فعادت الأرض تنتج وتخرج ما في باطنها في حياة متجددة مثل تجدد باوبو. واستكمالا لعملها أرادت أن تهب الخلود لابن سيليوس واسمه ديموفون، بدهنه بمنقوع الأعشاب البرية، وتلويحه على النار، ولكن أمه فزعت فصاحت وهجمت على ديمتر، التي أفصحت عن شخصيتها فعرفوا أنها ربة الأرض والقمح. وحيث تعرت باوبو ورقصت أقيم معبد

سمي معبد ديميتر، عرف فيما بعد بمعبد إليوس، واشتهرت الطقوس التي صارت تقام كل عام في الموعد ذاته (يقال إنه في أيلول/سبتمبر) باسم «الأسرار الإليوسية».

ظل الباحثون فترة طويلة يقولون بأنها أسرار لم يعرف أحد ماذا يفعلون فيها، سوى أنهم ينطلقون من أثينا في موكب مهيب إلى إليوس التي تبعد مسافة يوم كامل. وسمي الطريق الممتد من أثينا إلى إليوس باسم «الطريق المقدس». أما ماذا يحدث في المعبد فلا أحد يعرف، وعلى الأخص بعد أن اندمجت احتفالات ديونيسيوس باحتفالات إليوس. وعدم معرفة ذلك جعل الناس يقولون إنها أسرار. ولكن من جهة ثانية يقولون إنها طقوس ماجنة. فكيف تتفق التسمية مع عدم المعرفة؟ إن عدم معرفة الشيء لا تجيز تسميته أو وصفه. وهم لا يقدمون دليلا واحدا على ما يصفون.

إن القصة نفسها تدل على نوعية الطقوس التي كانت تقام في هذه المدينة. فقد طافت الربة مدنا كثيرة بحثا عن ابنتها. ولكن لم تنشأ طقوس دينية إلا في إليوس، لسبب بسيط جدا، وهو أن باوبو في هذه المدينة بالذات تعرت ورقصت تستثير الطاقة الجنسية وتعيد الحياة من جديد تماما مثل حبة القمح التي تستثير قواها الجنسية فتعود إلى الحياة بعد موتها. إنها طقوس فصلية إنباتية. والإنبات يحتاج إلى فرح. الحزن موت. والفرح لا يكون من دون حياة، والحياة لا تكون من دون جنس متجدد.

اختارت الحركة النسوية الحديثة كلمة سنسكريتية للدلالة على الطاقة التي أرادت باوبو بعثها وهي كلمة chakra أو cakra وهي ستة مواقع تكتنز الطاقة الجنسية، ولا تفصح عن نفسها دون استثارة. وهذه الاستثارة تكون عن طريق تمرينات معينة. والكلمة قديمة تعني الدولاب في حالة الحركة أو «الدولاب الذي يدور». وهي معروفة جدا في اليوغا. ومن دون هذه المراكز الستة لا حياة ولا فرح.

إن المرأة عن طريق الجنس قادرة أن تجدد الحياة وأن تحكم العالم أيضا، نظرا لحاجة الرجل الشديدة. إنه السلاح العجيب الساحر الذي يعتبر

أقوى أسلحة المرأة. لذلك كثرت الدعوات إلى ممارسة رقصة باوبو، إن جاز لنا أن نسمي ما قامت به رقصا. وترى بعض الحركات النسوية أن على كل أنثى أن تكون باوبو التي يقول لسان حالها: فلنفرح. فلنا أرحامنا وفروجنا وذواتنا وحياتنا. . . ولنرقص تاركين الحزن و الخوف جانبا.

وصيغت النصائح والأناشيد أو التراتيل لباوبو العظيمة. وهي تناشد المرأة أن ترتدي اللون البرتقالي وأن تستثير طاقتها الجنسية خارج البيت في الهواء الطلق والفضاء الرحب وأن تضحك عاليا حتى تردد السماء صدى ضحكاتها:

ارقصي رقصا لم يشهده أحد
وغني غناء لم يسمعه أحد
واعشقي عشقا لم تشعري به من قبل
وعيشي مثل السماء على الأرض.

وقد نظمت أشعار وأناشيد على لسان باوبو، منها:

مبتهجة أنا
ردفاي يفيضان جنسا.
أملك الصحة والسعادة
وأعيش مع الإثارة الجنسية
وأزيّن شكلي الأنثوي
وأشعر أني مشحونة جدا
وأملك طاقة هائلة نشيطة
ومع الضحك تظهر طاقتي الحيوية.

كما نظمت أناشيد راقصة ترفع للربة:

أغني للربة/ صوتي قوي
أقرع الطبل للربة/ بأغنية قديمة

لا أعرف الكلمات/ أخرج الصوت فقط
ويداي تقرعان الطبل/ متذكرة صوتا قديما.

* * *

أرقص للربة/ قدماي على الأرض
وأترنح لأجد الإيقاع/ لولادة جديدة.

* * *

أرقص، أغني، أقرع الطبل، أنشد/ فتنتعش الذكريات.
أرقص، أغني، أقرع الطبل، أنشد/ فتحضر الربة إلي.

والحركة المحورية في رقصة باوبو تكون عندما تخلع تنورتها وتعري بطنها وتشرع فرجها أمام ديمتر، بعد أداء طقوسي مثير، حتى تضحك الربة ويعود الفرح. إن الغرض هو استعادة القوة الخالقة في الأنثى، التي مِن دونها لا تنبت الأرض.

والمرأة المتعرية البطن لا توجد في الأسطورة اليونانية وحدها، بل أيضا في كثير من الأساطير العالمية. ففي مصر مثلا نجد قصة مماثلة، وهي قصة إيزيس في حزنها القاتل على أوزيريس، حيث في احتفالاتها القديمة كانت النساء يفعلن ما تفعله باوبو كدلالة على استثارة «الأنثى المقدسة»

ونجد القصة نفسها في اليابان. عندما غضبت ربة الشمس أماتيراسو من أخيها بسبب نزعته التدميرية (مما يدل على البدايات الأولى لمحاولات الاستيلاء على السلطة) اعتزلت في كهف بعيد، فلم تعد حقول الأرز تنبت وأوشكت مجاعة مريعة أن تهدد البشرية ولا تبقي على أحد. لكن يوزومي Uzume الذكية تجمع حشدا من النساء وتهرع بهن إلى باب الكهف يتعرين ويغنين ويطلقن النكات المضحكة الصريحة، ويرقصن رقصة الفروج، فتضحك الربة وتشترك معهن، وتعود إلى سيرتها فتنبت حقول الأرز وتكمل الأرض دورتها الفصلية، وتتدفق الخيرات وهبات الربة الأنثى، المدبرة للكون والحياة.

إن باوبو لم تخترع شيئا جديدا، فصورة عضو المرأة مرسوم على جدران الكهوف في جنوب فرنسا منذ ثلاثين ألف سنة تقريبا، حسب آخر التقديرات. والصورة تلخيص أو خلاصة أو رمز للأنثى المقدسة المعبودة التي كانت مسؤولة مباشرة عن إدارة الحياة. وفي إنكلترا وإيرلندا وويلز كان الفنانون، في حقبة العصور الوسطى، يحفرون أشكال ما يطلقون عليه اسم Sheila-Na-Gigs أي الفتيات العاريات على أقواس أعتاب أبواب الكنائس وشبابيكها، وهن يجلـسن القرفـصاء، وقد أشرعن فروجهن. والأشكال ذاتها تقريبا موجودة في المعابد الهندية وفي كاتدرائيات أوروبا. وفي أوروبا الشرقية وحتى القرن التاسع عشر كانوا ينقشون رسم فتاة بساقين منفرجتين، وقد تدلى بينهما مثلث يشبه الجوهرة النفيسة النادرة. وهذا الرسم ملحوظ تماما في أجزاء من آسيا وإفريقيا وجزر المحيط الهادي والأمريكيتين، ويعود إلى آلاف السنين.

ولو أخذنا تحولات كلمة gig لوجدنا أنها كانت تعني في اللغة السومرية «المقدسة» أو «النقية» أو «كاهنة المعبد» وشاعت في أوروبا بمعنى الفتاة الجميلة والمومس والعجلة ذات الدولابين، والرقص العاري والنكتة الصريحة والقصد أو الهدف... الخ، فكأنها تحمل سجل التطورات التي طرأت على المفاهيم وغيرتها حسب الظروف الجديدة. وبظهور الديانة الجديدة عمد المتعصبون إلى تشويه هذه الرسوم أو طمسها، تماما كما شوهت سيرة باوبو وكل الأشكال المشابهة.

المغنيات في الأدب العربي، أو فتيات الجيشا في اليابان، أو العالمة في مصر، أو فتاة البار في أمريكا وأوروبا، أو فتاة الستربتيز، أوفتاة العرض show... ليست سوى الأشكال القديمة وقد شوهتها التطورات، بعد أن خضعت لسلطة الرجل الذي استلم دفة الأمور وأخضع كل شيء لإرادته. والفرق بين هذه الأشكال والأشكال القديمة أن الجنس كان يقصد لذاته من أجل تجديد الحياة، بينما صار اليوم يعمل تحت مشيئة الرجل. إن باوبو موجودة في كل لون من هذه الألوان، وحتى نستخرجها علينا أن نخرجها من

دائرة تجارة الجنس. صحيح أن فتيات الجيشا اليوم لا يبعن بيعا، ولكن في جنوب شرق آسيا تتم صفقات لبيع آلاف «الباوبويات» كمتاع للذكر فقط.

إن باوبو أو يوزومي أو النساء المصريات اللواتي أضحكن إيزيس، لم يفعلن ذلك من أجل الرجل ولا أمامه، بل من أجل أن تستمر الحياة وتتجدد. فاستخدام الجنس كان لتأدية مهمة مقدسة. وهذا الاستخدام ليس سهلا، بل يحتاج إلى الفنون الرفيعة، يحتاج إلى البرناس وربات الفنون الجميلات.

إن الجنس سلاح قوي خطير بيد المرأة، إذا عرفت كيف تستخدمه جيدا. وحتى تستخدمه جيدا، لا بد من أن تعود إلى التاريخ القديم جدا، الذي يتخطى بالتأكيد تاريخ آدم وحواء، ويصل إلى ليليت التي انتصرت بالجنس على آدم، وإلى إينانا وهيكاتي وباوبو وإرشكيجال... إلى كل هؤلاء، فمنهن يُستخلص الدرس التاريخي الكبير. إن الحرية الحقيقية تبدأ من الجنس، من المعرفة الحقيقية له، ومن امتلاك المرأة لهذا السلاح امتلاكا واعيا عميقا. إنه المنظم للحياة وطريق الحرية. وعندما يقبع الجنس تحت قوانين الخضوع الذكوري فإن الحديث عن التحرر يصبح عبثا. ولكن حتى يتم هذا يجب أن تـكون المرأة حرة «ماديا» كما يرى الفوضويون والماركسيون، وكثير من الحركات النسوية الأخرى.

وهذان السلاحان، الجنس والعودة إلى العهود القديمة، هما المسيطران اليوم على وسائل الإعلام النسوية في الإنترنت، وفي وسائل الإعلام الأخرى كالصحف والمجلات والكتب. وكل هذه الوسائل تؤكد أن الحرية الحقيقية، والتربية المثالية، والعلاقات السليمة تبدأ بالجنس... وإلا فإن الإيدز في الانتظار.

الفصل السادس

ليليت والصراع الأبدي

القانون الأبدي

هل هناك قوانين أبدية؟

لم لا؟ يبدو الأبدي أكثر وأعم وأشمل من التصادفي والمرحلي. والقانون الأبدي الذي نقصده من بين القوانين الأخرى هنا هو الصراع بين الجنسين: الرجل والمرأة. فما دام هذان المخلوقان مختلفين فلا بد أن يخضعا لهذا القانون. قد يناقض المرء نفسه ويصارعها، فكم بالأحرى إذا كنا أمام شخصين مختلفين. يقال إنهما متكاملان. صحيح، ولكنه تكامل ضرورة لا تكامل اختيار. إن الصراع يظهر حتى بين التوأمين الكاملين من جنس واحد. بل يظهر في صراع الكائن مع ميوله وأهوائه وغرائزه وأفكاره واتجاهاته، وكم من الناس أمضوا عمرهم يبحثون عن العمل المناسب لشخصيتهم فلا يفلحون، فيهرب العمر وهم في صراع مع ظروفهم وأنفسهم خروجا من هذه الحيرة.

ولكن صراع الرجل والمرأة هو صراع من النوع المنتج، فلولا هذا الصراع – إلى جانب صراعات أخرى متواشجة ومؤثرة – لما حصلنا على الأدب والفن. إن حذف أحد طرفي الصراع يؤدي إلى حالة مختلفة كل الاختلاف عـما عليه البشرية اليوم. ولو كان الطرفان متكاملين تكاملا تاما أو شبه تام، لكانت النتيجة واحدة، وهي أن البشرية كانت ستواجه ظروفا جديدة، ليس فيها أدب ولا ممارسة لفن، كما نراهما اليوم. ويكفي أن يشطب

القارئ أحد طرفي المعادلة من الأثر الأدبي أو الفني، حتى يسقط هذا الأثر، ولا يعود له أي معنى. كل آداب العالم تتدفق من هذا الصراع، ذي العلاقات المتشابكة، علاقات بين الأخ والأخت والأم والأب والزوج والزوجة والعاشق والعاشقة، إلى جانب الكثير من الصراعات الجانبية الناجمة من الصراع الكبير ووسط علاقات اجتماعية كثيرة جدا... الخ بحيث لا أحد يستطيع أن يـضبط امتداد هذا الصراع وموضوعاته. ويقف الحب في مقدمة هذا الصراع. وقد ظلت قصص الحب حتى عهد قريب تستهوي أفئدة القراء. اليوم اختلف الأمر قليلا فقد ظهرت قصص المجموعات البشرية، ولم يعد الحب منفردا بالساحة وحده. ولهذا التحول سببه الكبير الكامن في الصراع الذي اتخذ أشكالا جديدة في العصر الحديث.

هذا الصراع ليس الوحيد ولكنه الأهم من بين كل الصراعات. وقد بدأ يظهر منذ أن جرى التحول من عبادة الربة الأم إلى عبادة الرب الأب. صار الصدع كبيرا والهوة واسعة، واحتكر الذكر الأدب (ولكن بقيت ربات الفنون في البرناس كلهن من الإناث) ومع ذلك ظلت الأنثى المحور الأكبر في هذا الأدب، إن لم نقل إنها المحور الأوحد. والمسألة الكبرى في هذا الصراع هي الموقف. ما موقف هذين الطرفين ومن أجل أي شيء يدور الصراع بينهما؟ هل من أجل السمو أم السيطرة؟ هذه هي المسألة الأساسية. فإن كان من أجل خلق علاقات مثالية سامية بين الطرفين فإن هذا الصراع هو صراع تكامل، وصراع مطلوب، إنه منافسة من أجل الترقي والسمو على الغرائز المدمرة. ولكن إذا كان يدور من أجل «حقوق» لهذا الطرف أو ذاك دون اعتبار للسمو الذي يجب أن ينتج عن الصراع، فإنه سيظل صراعا بعيدا عن التكامل. إن الصراع من أجل السيطرة لن يجلب إلا المزيد من الصراعات المشوهة التي تزيد العلاقات البشرية تعقيدا.

هل سينتهي هذا الصراع؟ لا يمكن أن ينتهي إلا بانتهاء أحد الطرفين أو كليهما. إنه صراع أبدي، ولكن المسألة هي التي طرحناها: كيف يجب أن

تدار دفة الصراع؟ هل نصارع من أجل ذاتنا ونفسنا، أم من أجل السمو الذي ينهض بالطرفين، وبالعلاقة الإنسانية عموما؟ وما لم يكن السمو وراء الصراع، فإن من العبث الحصول على نتيجة ترقى بطرفي المخلوق البائس الذي يسمى الإنسان. إن الأغلبية العظمى للأدب والفن تسعى إلى خلق السمو في موضوعات الصراع التي لا حصر لها. دائما في الأدب نصل إلى النتيجة المعروفة سلفا، وهي تصحيح العلاقة غير السليمة، وتحويلها إلى علاقة تعمل من أجل السمو. فالصراع في الأدب هو الصراع المطلوب في الواقع، هو الصراع المنقذ إن صح التعبير. ولو نظرنا في أي أثر أدبي، للاحظنا أنه يبدأ بعرض العلاقة المغلوطة، وبعد قليل أو كثير من المنعطفات يصل الأثر إلى العلاقة السليمة الصحيحة التي لا تكون لصالح طرف واحد، ما دامت «دعوة إلى السمو». وهذا هو القانون الأبدي للأدب السامي الراقي، الذي لا يريد لهذا الصراع أن يؤدي إلى نتائج كارثية. وقد استغل الأدب كثيرا هذا الصراع الذي تفنن الأدباء في عرض ألوانه، في كل الأنواع الأدبية.

التحول الكبير: من هرمس إلى ترمينوس

الانتقال من علاقات الأمومة إلى علاقات الأبوة استغرق فترة طويلة من الزمن. وليس ثمة اتفاق بين الباحثين حول علاقات الأمومة. علاقات الأبوة باتت واضحة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. أما قبل ذلك فاستنتجوه مما كتبه الرجل عن بقايا العهود السابقة. وهو ليس بالشيء القليل. وبما أن المجتمعات، وبالأخص القديـــمة، لا تتطور تطورا متوازيا – ولا متوازنا – فمن الطبيعي أن يختلف الدارسون باختلاف المجتمع، الـــميدان العملي للدراسة. فمـــجتمعات جنوب شرق آسيا ذات مسارات من التطور تختلف عن مسارات المجتمعات أواسط إفريقيا. ولا يمكن تعميم ما وجده العلماء في مجتمع السكان الأصليين في أستراليا، فحتى في هذه الـــقارة الجديدة لاحظوا تفاوتا في التطور بين منطقة ومنطقة وبين إقليم وإقليم. لكن الشخصيات الأسطورية تعكس أبرز التطورات التي مرت بها المجتمعات القديمة. ومن

أبرز الشخصيات التي تفصح عن تحول كبير في العلاقات الاجتماعية شخصية هرمس Hermes.

تستحق شخـصية هرمس أوسع دراسة فهو أهم شخصية عالمية فيها دلالات التحول الكبير الذي حصل في المجتمعات العالمية، وبالأخص في حوض البحر المتوسط. وقد برزت التطورات في شخصيات كثيرة غير هرمس، ولكنها لم تجمع معظم خطوط سير هذه التطورات على النحو الذي نجده عند هرمس. إن هرمس هو الوحيد الذي يجمع في شخصيته كل الخيوط التي صارت فيما بعد لوحة متكاملة. وبما أننا لسنا بصدد دراسة موسعة عن هرمس فإننا نكتفي بأهم النقاط التي نستفيد منها في هذا المسار:

١ – المخلوق الدائب الحركة. هو ابن مايا وهي ابنة العملاق أطلس، من زيوس. ولكنه لم يثبت في مكان محدد فحتى عندما ولد في كهف من كهوف سيليني في أركاديا، لم يمكث في حضن أمه إلا بضع ثوان، فقد راح يطوف بحثا عن «شيء ما» حتى عثر على درع سلحفاة أجوف، فصنع منه قيثارة، ولكنه لم يهتد إلى الأوتار المناسبة. وهنا فكر في سرقة قطيع أخيه أبولو، فهرع إلى القطيع وسرقه في مساء اليوم الذي ولد فيه. ولكنها سرقة ماهرة وماكرة تدل على ما سيصبح عليه فيما بعد، إذ جعل القطيع ينتعل أخفافا بشرية معكوسة، أي المقدمة بعكس اتجاه سير القـطيع. وعندما عاد أبولو من مغامرة غرامية كعادة آلهة الإغريق، لم يجد قطيعه ولا وجد أي أثر يدل عليه. وجد آثار قوم يتجهون نحو البحر، فسار معها ثم سار بعكسها، فلم يجد فيها ما يدل على أثر ظلف واحد من أظلاف قطيعه. وطفق يسأل عبثا. ولكنه سمع صوتا مخمليا لقيثارة تصدح، وهي درع السلحفاة بعد أن اخترع لها هرمس أوتارا من أمعاء البقرة التي قدمها قربانا لزيوس، وهي من بقرات قطيع أبولو الذي سرقه. وبعد أن استرجع القـطيع أراد أن يحصل على القيثارة، وهنا تبدو عبقرية هرمس التجارية، فقد بادله على الصولجان الذهبي السحري الذي عرف باسم كادوسيوس caduceus. وقد

اشتهر أيضا ببردته اليونانية الأرجوانية وقبعة الإخفاء والخفين المجنحين. وكلها أدوات لها دلالتها التطورية والاجتماعية، كما سوف نرى.

٢ – قبل أن يسمع أحد بهرمس كان سكان المناطق البحرية الآسيوية واليونانية، يعبدون آلهة يقال لها الكابيري cabeiri لا يوجد فيها سوى إلهين من الذكور، والباقي كلهن إناث. كيف دخل بانثيون هذه الربات، وكيف صار الأشهر، وكيف محا ذكر البانثيون الكابيري برمته وظل وحده؟ ... لا أحد يعرف. يزعمون أنه المكر والدهاء. ويزعمون أنه السحر والخيمياء. ويزعمون أنه أراح الربات مما يعملنه بأن قام بدلا منهن بكل أعمالهن. والغريب أن عبادة الكابيزي كانت واسعة الانتشار قبل أن يعرف أحد هرمس. وهي من العبادات السرية التي ظهرت منها الأسرار الإليوسية والديونيسية والأورفية... كيف تأتى لشخصية مثل هرمس أن يزيح كل هذه الكوكبة التي لا حصر لها من الربات ويحل مكانهن؟

هناك ناحية لا بد أن نشير إليها، وهي أن هيفستوس (فولكان، عند الرومان) أراد أن يخدم بناته اللواتي يشكلن بانثيون الكابيري باختراع رجل آلي يقوم بكل المهام الصعبة، فجن جنون زيوس وهدد بالصاعقة إن لم يقلع فولكان عن هذه الفكرة الجهنمية التي تجعل المرأة تستغني عن الرجل في الأعمال التي تحتاج جهدا كبيرا. وحذره بأن هذا خطر على البشرية، وحطم كل ما ابتكره من رابوتات تأتمر بأمر بناته (الربات الكابيريات) بعد أن عرّفها على أصواتهن. بعد هذه الحادثة تغيرت الأمور بظـــهور هرمس في البانثيون الكابيري، فقد عزفن عن صنع الأسلحة في كير أبيهن، وصرن يعزفن ويرقصن ويغنين. ويقال إن ربات البرناس منهن، بعد أن استولى هرمس على وظائفهن ولم يدع لهن سوى الفنون التسعة.

٣ – أشرنا إلى الصولجان السحري الذي صار مع هرمس. ولكن هناك حادثة معينة جعلت هذا الصولجان سحريا، أو صار بعدها سحريا. فقد

شاهد هرمس أفعوانا وأفعى يتشاجران، وراقبهما ثم فصل بالصولجان بينهما، وحول بلسانه الساحر وكلامه المدهش هذين «الزوجين» من متخاصمين إلى متحابين. وإكراما لهذه «الشهامة» الهرمسية، أبى الأفعوان وزوجته أن يغادرا الصولجان فظلا متآلفين ملتفين عليه بعد أن تحولا إلى ذهب براق. فالأعاجيب والمعجزات لا تتحقق إلا في تآلف الزوج والزوجة، أو الذكر والأنثى. الخصام دمار للطرفين. إن الكادوسيوس صاحب المعجزات يحمل سبب تحقق هذه المعجزات بالأفعوان والأفعى الملتفين عليه ويشكلان في أعلاها ما يشبه التاج، وما زال نموذج الصولجان ذي الأفعوانين سائدا في إكليروس معظم الطوائف المسيحية، وعلى الأخص في إكليروس الطوائف الشرقية. وما زال العريس حتى اليوم يقدم إسوارة من أفعوانين ملتفين رمزا للوئام. إنها بقايا من التقاليد التي ابتكرها هرمس. وسوف نرى فيما بعد دلالة هذا الرمز الهرمسي الذي ما زال مستخدما حتى اليوم.

لم يكن الصولجان وحده دليلا على الانسجام أو التآلف أو المصالحة بين الذكر والأنثى، بل نـــجد هرمس ينجب من أفروديت، ربة الجمال، ابنا يسمى باسم الزوجين دلالة على أن ملكية الأولاد باتت مشتركة بين الرجل والمرأة، بعد أن كانت حكرا على المرأة. وقد أطلقا على هذا المولود اسم هرمافروديتوس، الذي بعد أن كبر وقـــعت سالماسيس، وهي حورية نـــهر، في حبه فعزف عنها، فصلت للآلهة أن يمتزجا معا. وصادف مرة أن أراد السباحة في النهر، وما إن نزل فيه حتى امتزج الجسدان في تناغم يجمع بين الجنسين. وما زلنا حتى اليوم نستخدم كلمة hermaphrodite على من توازن العنصران فيه. واشتهر هرمافروديتوس بأنه أعظم شاعر غنائي، تفرد بوصف الانسجام الكامل بين المتحابين. ولكنه كان أعمى. ونظن أن العمى أُضيف إلى شخصيته بعد ظهور هوميروس وإلياذته الأخاذة، فقد كان هذا الشاعر أعمى، فانسحب العمى على الشاعر الغنائي القديم أيضا.

وهناك وظائف أخرى للصولجان، يهمنا منه قدرته على تحويل المعادن إلى ذهب. فقد كان الذهب حكرا على الأنثى من دون الذكر. إنها سيدة المعبد والربة الكبرى. لها وحدها تقدم النذر والأحجار الكريمة. وكلمة ذهب تكاد تكون خاصة بالاستخدام النسائي. ولكننا نلاحظ أن هذه المادة المعشوقة من قبل المرأة تصبح بيد الرجل. فقد صار الراعي أبولو يستخدم صولجانا من ذهب. وبعد التفاف الأفعوانين عليه صار قادرا على تحويل المعادن إلى ذهب. ولهذا دلالة كبيرة جدا، إذ أن مفتاحا من أهم مفاتيح المرأة صار بيد الرجل. فهو القادر على صنع الذهب، وبذلك يمسك بأداة من أهم الأدوات التي كانت خاصة بالمرأة، ويغدو متحكما بها. "لقد غدا الصولجان من العلامات المميزة للذكر، بعد أن انتزعه من المرأة. بل إن كل أدوات هرمس صارت من علائم الأباطرة والملوك: الصولجان والبردة والقبعة التي تحولت إلى تاج.

٤ – إلى جانب الصولجان كان يملك شيئين آخرين هامين وهما القبعة petasus والخفين المجنحين talaria . أما القبعة فكانت ذات جناحين على محيطها، ودرج نموذجها وشاع عند الصيادين. وقد اشتهر الأمريكان في القارة الجديدة بهذه القبعة، وتفننوا في صناعة الجناحين فوق الصدغين. والغرض من القبعة إخفاء مستخدمها عند الحاجة. واشتهرت «طاقية الإخفاء» في الأدبين الشرقي والغربي. واستخدمتها هوليود في كثير من أفلامها، كما أكثر الأدباء من استخدام هذه الحيلة الفنية كبديل لحيلة الآلة السحرية التي استخدمها الإغريق عندما أنزلوا الإله في آلة، ليحل مشكلة مستعصية. لكن الخفين المجنحين لم يشع استخدامهما في الأدب والسينما، وظلا من معالم هرمس الخاصة.

كل الأدوات التي استخدمها هرمس كانت لصالح الانسجام بين الجنسين في بداية عهده. ولكنها صارت تستخدم فيما بعد لأشياء أخرى لا تخدم هذا الغرض الذي قبل به الطرفان، ولكن هذه الحالة من التوازن لم تكن

لتتفق والتطورات الجارية على موازين القوى في الواقع العملي. هناك قوة جديدة في طريقها إلى الظهور، ولا بد من أن تكون هناك فترة توازن.

٥ – يمكن القول إن هرمس ولد لــصا، لسبب بسيط وهو أن الملكية الشخصية كانت قد تضخمت وقتئذ وهي في طريق التحول أكثر فأكثر باتجاه الملكية الخاصة ، المدنية والرسمية. فالسرقة هي «المأثرة» الثانية التي قام بها. إن كل صفات اللصوصية التي كانت في هرمس انتقلت بالوراثة إلى ابنه أوتوليكوس Autolycus الذي اشتهر بسرقات كبرى تكاد تقرب من حدود السحر والخيال، مع أنه لم يكن يستخدم أدوات الإخفاء والتحليق والهرب. وجه ذكاءه منذ طفولته إلى السرقة. إنه أشهر لص في الأدب القديم والحديث. ومنذ ذلك الوقت ارتبطت السرقة بالرجل. وبين لصوص اليوم المشهورين لا يوجد اسم امرأة واحدة. معظم اللصوص من الذكور. يبدو أنها وراثة هرمسية ذكورية. ولا عجب في ذلك، لأن الملكية الخاصة ظـــهرت بعد استخدام الحصان في الـــحرب، والاستيلاء على ممتلكات الغير، أي بعد بسط السيادة الذكورية بمدة ليست طويلة جدا.

كانت السرقة في العهد الأمومي بعيدة عن المصالح الخاصة. فإينانا تسرق القوانين من أجل شعبها، وليس من أجل مصلحتها الخاصة. وقد تغيرت الظروف كثيرا فيما بعد: فالسارق من أجل نفسه يسمى لصا والمستولي عــلى ملكية جماعة يسمى عظيما. من يستول على سلة ثمار تطلق عليه صفات سيئة من أمثال مجرم ولص ومعتد ومـــجترح المحرمات (بعد أن صارت الملكية مقدسة) أما الإمبراطور الذي يستولي على ديار شعب فيطلقون عليه صفات أخرى، فهو القوي الجبار العظيم المجيد الكريم المغيث الـــ... الخ. كانت هناك قيم جديدة في طريقها إلى الترسيخ عن طريق قوانين جديد... كان هناك تمهيد لولادة رب ذكر يحمل هذه الصفات

وبدورها تصبح الصفات المقدسة للحاكم. وعندها لا يكون ثمة فرق بين الحاكم والرب، كما لم يكن ثـمة من قبل فرق بـين الربة الأم والمرأة الحاكمة، التي كانت تجسدها، أي تجسد الأرض والإنتاج والإنبات.

تاريخ هذه النوع من السرقة لم يكن له وجود إلا عقب ظهور الملكية الخاصة، المدنية والرسمية، أي عـقب ظـهور الحصان المحارب، الذي صنع الإمبراطوريات والعظمة التي تغنى بـها هواة القومية منذ السومريين وحتى هتلر.

الوظائف التي اكتسبها هرمس

لم نأت إلا على تفصيل القليل من السيرة الذاتية لهرمس. أما الآن فسوف نجمل بقية الوظائف التي استطاع الحصول عليها والتي صارت من مكتسباته.

- فهو قائد الأرواح وهاديها إلى العالم الآخر. ونلاحظ أن السيطرة امتدت إلى العالم السفلي بعد أن كانت في الشرق حكرا على المرأة (إرشكيجال).

- وهو رب الأحلام، المسيطر عليها. وقد يختلق أحلاما وهمية تخدع الحالم وتوجهه إلى السبيل الذي يريد هرمس منه أن يسلكه. ولم تظهر الأحلام المخادعة إلا بظهوره.

- وهو رب النفاق والكذب والخديعة، يختلق أشياء لا أساس لها يخدع بها السامع أو الرائي، من أجل تحقيق مآربه أو مآرب الآلهة الذين يكلفونه بها.

- وهو رب القطيع والرعيان، بعد أن دخل القطيع في الملكية الخاصة ولم يعد ملكا للمجموعة.

- وهو رب الطرقات والأعتاب، يشرف على كل شاردة وواردة.

- وفي الوقت نفسه هو رب اللصوص والنصابين والقراصنة والسفن، لأنه أيضا رب الثروة التي يهبها من يشاء ويحجبها عمن يشاء دون حساب أو قاعدة. وهو حامي هذه «المهن» التي انتشرت في الطرق اليونانية وفي البحار، القريبة والبعيدة.

- وهو حامي المسافرين، من أجل أن يكون هناك حركة تنقل لتنشيط الاقتصاد، الذي صار اقتصادا فرديا، بعد أن كان اقتصادا جماعيا.

- وهو رب الحظ والعثور على الكنوز. وهذا جزء من عمله كرب ثروة.

- وهو رب التجارة والتجار ورب المواثيق والعقود التي كانت تبدأ باسمه.

- وهو رب الوفرة المنزلية، في أيام الحصاد، وفي غير أيام الحصاد.

- وهو رب الفن، نظير أبولو. بل إن أبولو نفسه كان تلميذه، علمه على القيثارة kithara بعد أن اخترعها من درع سلحفاة أجوف. وهو معلم أورفيوس وبان وحوريات الغاب. وهو الذي أرشد أورفيوس إلى اللحن الذي يجب أن ينشده حتى يتجنب الأرغونيون الألحان الآسرة المميتة للسيرينات...

- وهو رب الفصاحة والبلاغة. ويبدو أن هذه الميزة اكتسبها بعد أن ظهرت الطبقة التجارية التي تحتاج إلى البلاغة لترويج بضاعتها، يوم لم تكن الدعاية التجارية تملك سوى الإعلان الصوتي الكلامي فقط.

- رب الرياضة والرياضيين، يمتاز بجسم قوي متناسق جميل.

- رب العلم والمخترعات العلمية التي تعمل لزيادة الإنتاج.

- رب الخيمياء والسحر وتحويل المعادن إلى ذهب.

- رسول الآلهة. ولكن يلاحظ أنه رسول الآلهة الذكور، أكثر مما هو رسول الربات الإناث. وكانت هيرا، زوجة زيوس تكن له حقدا شديدا.

كانوا يطلقون عليه أوصافا كثيرة منها العبقري والماهر والماكر والمخادع والصادق والأمين والكذاب والغشاش... في أي ناحية تعمل تجد نفسك أمام هرمس. وربما كانت هذه الوظائف هي التي جعلته يرتقي إلى «هرمس المثلث العظمة» الذي ظهر في الإسكندرية وشاعت عبادته في حوض البحر المتوسط. ولكنه عند ذلك لم يعد ربا للأشياء السلبية، ولا حتى للأشياء الدنيوية. لقد غدا ربا مثاليا يلجأ إليه المفكرون والفلاسفة والمتصوفون. ويرون فيه رب المعرفة التي يهبها من يشاء. إن المعرفة هبة من عنده، وليست تحصيلا فرديا... الخ

بعد هذا العرض السريع للوظائف التي استولى عليها هرمس (الرجل) نتساءل: ماذا بقي للمرأة من وظائف؟... بقيت وظائف الفتنة والإغراء والاهتمام بالحدائق والورود فظهرت الربة فلورا الرومانية لتعنى بالورد والريحان وكل نبت عطر. واقتصرت الوظائف القديمة على الحقل والموقد والحمل والولادة و والإغراء والحب والشقاق... الخ.

نلاحظ شيئين في هذه الوظائف المكتسبة، أو المنتزعة التي أخذها هرمس من المرأة: أولا إنها وظائف فعالة وهامة ومسيطرة على الحياة اليومية، وثانيا إنها محتكرة من قبل شخص هرمس، ومثل هذا الاحتكار لم يكن له وجود في القديم بهذه الكثرة الهائلة. كانت هناك مجموعة وظائف تختص بها هذه الربة أو تلك. ولكن لا توجد كل هذه الوظائف بيد واحدة. ولكن الأهم من كل هذا هو ما أشرنا إليه من ارتباط معظم هذه الوظائف بالملكية الخاصة، التي أخذت تظهر أكثر فأكثر وتتحول إلى ملكية ضخمة. إن هرمس هو الإله الوحيد الذي كان القربان يراق له كل مساء قبل النوم. صار عند الناس الأعظم والأخطر.

التوازن بين الطرفين

نلاحظ أن هرمس يمثل التوازن أو التوزيع المتوازن بين سلطة المرأة وسلطة الرجل. وما هرمافروديتوس سوى رمز لهذا التوازن. إن ملكية الأولاد باتت من حق الرجل بالتساوي مع المرأة، ولم تعد حكرا على الأم كما كانت من قبل.

هذه الازدواجية نلاحظها في البانثيونات الميثولوجية في المرحلة التي ظهر فيها هرمس. ففي السماء هناك زيوس ولكن هناك هيرا أيضا، التي قد تكون أوامرها أنفذ من أوامره في بعض الأحيان، أو إنها في الحقيقة هي التي تنفذ، ولا ينقضها زيوس إلا بحيلة من حيله، وبالاستعانة بهرمس. وفي العالم السفلي كان يسيطر اثنان أيضا هاديس وبرسيفوني. وفي مملكة البحر والمياه العذبة يتربع الرب الجبار بوسيدون مع زوجته العملاقة التي كانت ربة البحر الأصلية. وقد اشترك الاثنان في حكم هذه المملكة وأنجبا سلالة من الجبابرة... ويعتبر بعض الإغريق أن بوسيدون هو الذي أدخل الحصان إلى اليونان، وقدسوه لهذا السبب.

المهم أن كل شيء كان مشتركا بين الرجل والمرأة. لكن ظاهرة هرمس تدل على أن التنفيذ العملي لمعظم الوظائف – والتي فيها الكثير من التناقض كما عند هرمس – إنما كانت من نصيب الرجل. ولا يوجد تفسير لذلك سوى بسط الهيمنة والاستيلاء على مركز القرار. وإلا فما معنى أن يكون هرمس ربا للشرفاء والمواثيق وربا للصوص والكنوز؟ وما معنى أن يحمي التجار والتجارة ومفارق الطرق وفي الوقت نفسه يحمي المدلجين وقطاع الطرق البرية والبحرية؟

استخدام الوظائف

ليست المسألة كثرة الوظائف ولا تناقضها، بل استخدامها: لصالح من؟ وقد كان هرمس متوازنا في وظائفه أول الأمر. لكن هذا لم يستمر إلا في

المرحلة التي ظلت المرأة فيها متماسكة إلى حد ما، قبل أن تستسلم وتسلّم السلطة بشكل شبه كامل.

الملاحظ أن هرمس لم يخدم في وظائفه هذه خدمة فعالة وجدية إلا الرجال من أمثال تسيوس وهرقل وأورفيوس وبرسيوس وأوديسيوس... لم يساعد المرأة إلا نادرا. فقد ساعد أوليس ضد سيرسي فأعطاه أعشابا تمنع سحر هذه المرأة الجميلة. وساعده عندما احتجزته كاليبسو في جزيرتها... كل مساعدات هرمس تقريبا كانت للرجال. إنه منقذ تسيوس من الجحيم ومرشد برسيوس إلى قتل الغورغونة ميدوزا... دائما مع الرجل في قتل المرأة أو الخلاص من سحرها وتأثيرها.

هذا الشخص الجميل ظهر في أواخر عهده ملتحيا وبهيئة تدب الخوف. وكانت الممارسات ضد المرأة من قبله قد كثرت، فاستغل الأدب هذه الناحية وظهرت عن الرجل «صاحب اللحية الذي يقتل النساء» قصص في كثير من أقطار العالم. كان التحول قد تم ولا بد من أن يظهر ذلك في الأدب. وفي العصور الوسطى ظهرت قصص انتشرت انتشارا كبيرا عن «اللحية الزرقاء» ربما كان شارلز بيرول Perrault (١٦٢٨-١٧٠٣) الأشهر والنموذج الأكمل. وقد اعتمد في قصصه على أحداث واقعية وخاصة تلك التي وقعت مع الفارس جيل دي ري في العصور الوسطى. وبحسب هذه القصة تفتح الزوجة السابعة باب غرفة حرم عليها زوجها فتحها فتعثر على جثث الزوجات الست السابقات. وتتعدد أشكال الرواية إلا أن فتح غرفة الجرائم أو صندوق الجرائم أو قبو الجرائم أو قلعة الجرائم هو من اختصاص المرأة. صارت المرأة مصدرا لكل هذه الأشياء التي تجلب البؤس للإنسان: باندورا تفتح الصندوق فتخرج الخطايا، وسايكي تفتح علبة الجمال التي وضعت فيها بروسربين أسرار الكون، فإذا هذه الأسرار فجائع، وهناك ما

يقابل هذا في السنسكريتية والأساطير الإفريقية (وخاصة عند الزولو) وفي الأدب الروسي. إن «حواء» مسؤولة دائما: من أكل التفاحة المحرمة حتى فتح الصندوق المغلق. إن المزايا السلبية لهرمس هي التي انتشرت واستغلت. وهذا شيء طبيعي لأن الأمور صارت تسير باتجاه جديد ليس لصالح المرأة.

هناك وظيفة لم نذكرها من بين الوظائف التي اشتهر بها هرمس. وهي وظيفة ترسيم الحدود. فعندما دخل بانثيون بنات هفستيوس (فولكان) كان عبارة عن كومة حجارة توضع على تخوم الأرض التي تعود ملكيتها للدولة. ومعنى كلمة هرمس «الصخرة» أو «الحجارة المتراكمة». وبعد دخول الملكية الخاصة، بدأت ربات الكابيري بالتراجع، ولم يبق لهن من عمل إلا مساعدة أبيهن، والقيام بالترفيه والرقص وتجميل الحدائق. إن تقسيما جديدا للعمل راح يتم ببطء، أول الأمر، ثم أخذ يتسارع، كأنه ينصاع لحتمية مقدرة.

هكذا كانت بداية هرمس في بانثيون الكابيري. ولكن فيما بعد، أي بعد انتشار الملكية الخاصة الكبيرة، المدنية والرسمية، صارت هذه الوظيفة مقدسة وعينوا عيدا لهرمس، هرمس الحجارة التي تحدد الملكية، في الرابع من كل شهر. وصنعت له التماثيل الضخمة، وكانت أول الأمر على شكل عمود. فيما بعد صاروا يتركون نتوءا ضخما يمثل قضيب الذكورة يخرج منتصبا من وسط العمود، مشرعا مثل سيف حربي، شامخا مثل إمبراطور، معلنا انتصاره وفارضا مجده وسيطرته. وفي أعلى العمود وجه هرمس. ثم صار رأس هرمس يزين كل عمود في البناء تقريبا. صار جميلا عندما صار مقدسا. وشيدت له المـــعابد في كل مكان من اليونان تقريبا. وهذا تقليد متأخر في الفن.

كان من الطبيعي أن يلاحظ الرومان، الذين بالغوا في احترام الملكية الخاصة، احتراما يعادل احترامهم لملكية الإمبراطورية، هذا الجانب في هرمس، الذي نقلوه إلى البانثيون الروماني تحت اسم ميركوري، وهو يقوم

بمعظم وظائف هرمس تقريبا ما عدا ترسيم حدود الملكية والطرقات. هذه الوظيفة أسندوها لإله جديد سموه ترمينوس، الذي يعني «التحديد الدقيق». وصار ترمينوس مقدسا بصورة لا مثيل لها، فهو رب الحدود، حدود كل شيء على الأرض وفي المواثيق. وما تزال اللغات الأوروبية تحتفظ بكل ألوان هذه الوظيفة أو هذا الإله في لفظة term . إنها مختصر لاسم الإله ترمينوس، وتحمل كل معاني ووظيفته.

إن انتقال هرمس من كومة حجارة إلى عمود عار ثم إلى عمود بوجه، ثم إلى عمود بقضيب يخرج من الوسط، ثم إلى زينة للمنازل، ثـــم إلى احــتفال شهري له... يدل على مدى الفرح الغامر الذي تدخله وظائف هرمس في نــفوس الرجال. وتحول إحدى وظائف هرمس إلى إله مقدس ومحترم إلى أبعد حدود الاحترام، هو ترمينوس، الذي لم يحبه الرسامون كثيرا، ولا استفاد منه الأدباء مثلما استفادوا من هرمس وأدواته السحرية العجيبة. وما زالت الدول حتى اليوم تستخدم الحجارة للدلالة على حدود المساحة المملوكة. إن أحجار المساحة تقوم اليوم بالوظيفة الخطيرة التي أسندها الرومان للإله ترمينوس. وقد قدست هذه الوظيفة إلى أبعد درجات التقديس، وكانوا يعتقدون أن أي إخلال بمواثيق ترمينوس يعني اضطرابا خطيرا، يعني الفوضى، يعنى ثورة المحرومين الذين لا يملكون، يعني ثورة النساء اللواتي انتزعت منهن معظم حقوقهن. ولم يكن ترمينوس إله لصوص كما كان هرمس (ميركوري الروماني) بل كان إله الحفظ والصيانة والحراسة لملكية الأفراد والدولة. وقد حظي بإكرام مثل إكرام هرمس، بل اختلطت احتفالاته باحتفالات الإله الأكبر جوبيتر. وكان يقام له عيد خاص في الثالث والعشرين من فبراير (شباط) من كل عام. إن موازين القوى التي ظهرت في الواقع انعكست في الميثولوجيا، التي لا توجد وثيقة تضاهيها في تصوير الحقائق.

التحول الأكبر: من ترمينوس إلى ميثرا

كانت مرحلة هرمس، وعلى الأخص في بدايتها، مرحلة الهرمافروديتية، إن صح التعبير. فقد ساد شيء من المساواة بين الرجل والمرأة. وكانت الألعاب الرياضية مشتركة بين الذكور والإناث. كانت الصبايا، كما تقول مارلين ستون في كتابها«يوم كان الرب أنثى»، يتدربن عراة مع الشبان في النوادي الرياضية التي تقوم بالاستعداد للمباريات الأولمبية، أو غيرها من المباريات التي كانت تقام في أي احتفال لأي إله. وكانت المرأة تشارك الرجل في اتخاذ القرارات، كما حصل في التصويت على تسمية إحدى المدن ففازت أثينا التي أهدت الإغريق نبتة الزيتون، بينما لم ينجح بوسيدون، الذي أهداهم الحصان، وسميت المدينة باسم أثينا. كما كان الرجل يسهم في كل الأعمال المنزلية تقريبا. لكن بدأت المرأة تتخلف بسبب الأعمال الجديدة التي ظهرت في أعقاب ظهور الحصان الحربي. إن ظهور مثل هذه الأعمال عادت بربح وفير وصار معظم الإغريق الساحليين قراصنة تقريبا، بينما كثر قطاع الطرق في المناطق الداخلية، طبعا تحت رعاية رب القرصنة والسفن واللصوصية: هرمس.

كل هذه الأعمال المربحة جدا، والتي تعتبر حربا فردية، إن جاز هذا التعبير، أسهمت في تخلف المرأة. لم يذكر التاريخ كلمة عن إسهام المرأة في عمل من هذه الأعمال، إلا مؤخرا في سينما هوليود، حيث صارت أفلام عن «قرصانة البحار الزرق» و«اللصة الخفية» و«القاتلة الصامتة»... تظهر وتحظى بشعبية كبيرة. أما الوقائع فلا تدل أن المرأة ساهمت، قليلا أو كثيرا، في هذه الأعمال التي «رفعت» من مكانة الرجل المادية. إنها أعمال أعقبت ظهور الحرب والاقتتال بين مختلف الدول / المدن. ولما ظهرت الإمبراطوريات، ازدادت هذه الأعمال قسوة وانتشارا. وبقيت مستمرة حتى القرن العشرين تقريبا.

إن انتشار هذه الأعمال جعل مكانة المرأة تتخلف تخلفا فاضحا. ولكنها من جهة ثانية جعلت الآلهة ذاتها تخضع لمراجعة جديدة، فقد ضج الناس من اضطراب الأمن ومن الأوضاع المزرية في داخل المجتمع. وقد انتهى الأمر إلى تحويل هرمس إلى «هرمس مثلث العظمات» الذي اختص بالصوفيين والدراويش، وتحويل ترمينوس إلى «ختم» في دوائر الدولة، وحجر في حدود الأرض. كان لا بد من ظهور إله جديد يقف إلى جانب الرجل المغامر في البر والبحر، ويحمي مصالح الناس في علاقاتهم المادية والمعنوية. لا بد من تطوير ترمينوس بعد أن شاخ وهرم. وكان هذا الإله الجديد ميثرا.

والحقيقة أنه ليس جديدا، بل ربما كان أقدم من الإله الذكوري يهوه نفسه. فظهوره يعود إلى ١٤٠٠ ق م. وعرقه هندو- إيراني مثل يهوه، عرف في ديانات الهند القديمة، ولكن شهرته بدأت في القرن الرابع قبل الميلاد، وبلغت الأوج في القرون الميلادية الأولى، فوصلت عبادته إلى أقصى الغرب في إسبانيا وبريطانيا الكبرى وألمانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومصر والشرقين الأوسط والأدنى... إنه إله شرقي غزا الغرب بسرعة هائلة، حتى أن بعض الأباطرة اعتنقوا الميثرية جهارة، مع أنها ديانة سرية للغاية، من أمثال كوماندوس وجوليان. وفي عام ٣٠٧ ميلادية بنى ديوكلتيان على نهر الدانوب معبدا ضخما لميثرا «حامي الإمبراطور» وشاعت عبادته بين الجنود الرومان، ففي كل ثغر وكل نقطة عسكرية كانت بعض الطقوس تقام من أجله. قيل ولد وفي يده مشعل النور على ضفة نهر مقدس تحت شجرة مباركة، متسلحا بسكين حادة. قرنوه بأناهيد Anahita الربة العظيمة للمياه المخصبة، مياه الري ومياه الأمطار، وربة الإنبات والعطاء، وهي تشاركه أصله الهندو- أوروبي، ولكن مع الأيام خفت ذكرها وعلا صيته كرب مقتدر يحارب الظلام. وسمي رب النور أو رب الشمس وقد وحّده الإغريق برب الشمس هيليوس Helius وكذلك فعل الرومان. والميثرية لا تختلف عن المسيحية إلا قليلا: فهي تتشدد في الأخلاق

تشددا كبيرا، وتجعل يوم الأحد (يوم الشمس) يوما مقدسا، وتبارك العشاء المشترك حيث يكون أساسه الخمرة والخبز، وتدعو إلى التفاني والتضحية من أجل الآخرين، وتمارس المعمودية كما نراها عند المسيحيين وبعض الفرق الدينية في العالم، ويقع عيد ميلاد ميثرا في الخامس والعشرين من شهر كانون أول (وقد جعله المسيحيون عيدا لميلاد المسيح)... لكن الأباطرة الرومان لم يعتنقوها من أجل هذا.

معنى كلمة ميثرا بالسنسكريتية، كما وردت في الفيدا «الميثاق» أو احترام العهد أو الوفاء بالوعد أو عدم نقض الثقة، أوما شابه ذلك... ومن هنا كان يتوعد المخلين بالمواثيق والعهود بالموت الشنيع. وهؤلاء من بين جميع البشر يعذبون ويموتون موتا لتدنيسهم الحياة البشرية التي يجب أن تقوم على الصدق والصراحة وتنفيذ كامل العهود والمواثيق. والمغفرة تكون لكثير من الخطايا، ولكنها لا تكون لمن نكث عهدا أو أخلف وعدا أو أنكر ميثاقا أو خان حلفا... إن أشد العقوبات مخصصة لمثل هؤلاء الخطاة أو الجناة. ومثل سائر العقائد السرانية كان أنصارها يتمسكون بالنظام تمسكا شديدا.

لقد ابتلع هذا الإله سلفه الروماني ترمينوس وحل محله. ومع أن الميثرية ديانة أسرار، إلا أنها لم تكن مثل ديانة باخوس أو ديميتر، بل تختلف كل الاختلاف عن الأسرار الإليوسية والأورفية من حيث الطقوس. إن أهم ما في الميثرية أنها حرمت على المرأة حضور الصلاة وإقامة الشعائر والاشتراك في الاحتفالات السرية، مع أن كل طقس أو شعيرة أو صلاة إنما من أجل الأم الكبرى ، أي الطبيعة. وهذا شيء يحدث لأول مرة في تاريخ الأديان فقبل ١٤٠٠ ق م، لم تكن هذه الظاهرة موجودة. وربما كان للميثرية تأثير كبير في نظرة الأديان اللاحقة إلى المرأة. ولو نظرنا إلى الديانة الباخوسية لوجدنا أن أنصار باخوس من النساء في الأغلب، ولذلك كان يطلق على موكبه "موكب الباخيات" وقد سمى يوربيدس إحدى مسرحياته باسمهن. وكان الموكب صاخبا كله رقص وغبطة وخمر وغناء. ومعنى هذا أن

الميثرية مالت إلى التصوف وحاربت الفرح من طرب ورقص وغناء وغير ذلك مما كانت الأديان الأخرى تمارسه في طقوسها.يبدو أن أسلوب هرمس في تعاون المرأة والرجل لم يعد يقنع هؤلاء الشرقيين، فقاموا بعزلها. ومن هنا نفسر ظهور الحجاب المبكر في فارس قبل دخولها الإسلام بأكثر من ١٥٠٠ سنة، كأول بلاد في العالم تفرض فرضا على المرأة زيا من تصميم رجل.

كانت المرأة الرومانية تتمتع بحرية كبيرة، أكثر بكثير من المرأة الشرقية، ولكن الرومان أحبوا الميثرية نشدانا للالتزام الأخلاقي بعد أن تحللت عرى الروابط الاجتماعية. إلا أن ذلك لم يحل دون تأثير الميثرية فيما يخص المرأة، حتى منذ أيام اليونان. فلم يعد يسمح لها بالتصويت في الجمعية العامة، ولم يعد مباحا أن تتعرى وهي تمارس الرياضة، كما حظر عليها الاختلاط بالشبان، وحرمت من الأعمال الحرة، وصارت مطالبة بتربية الأولاد في المنزل الذي لا يحق لها أن تغادره إلا بمعرفة الزوج. وفي الحمامات الرومانية أخذوا يفصلون بين الرجال والنساء، بتخصيص أيام الأسبوع لأحد الجنسين، ولكن ذلك لم ينجح كل النجاح. وأخذ النقاب، أو غطاء الرأس، الذي أوصى به بولس، يظهر قبل أن يظهر بولس نفسه. إن أهم ما شد روما إلى الميثرية هو "ميثرا" نفسه. كانت روما بحاجة إلى "الميثاق الصادق" بعد أن رأت شيئا من الانفلات في كل شيء تقريبا، ولذلك شجعت جنودها على اعتناق هذه الديانة، لاعتقادها أنها تسترد بها شيئا من تماسك العسكر. وما جاء بعد الميثرية كان مشابها لها أو قريبا منها، وإن لم يكن في مثل هذا التشدد. إن الميثرية دين تجاري، أي في خدمة التجارة، أرادت أن تشيع الثقة والأمانة والإخلاص في المعاملة وعدم الغش في الوزن والكيل... كانت التجارة قد أصبحت عالمية تقريبا. وفي هذا العالم المليء بالصفقات والتحايلات والغدر... لا مكان للمرأة. وبما أنه لا مكان لها في هذا العالم المليء بالقوة والاقتدار، فقد صار ينظر إليها مثلما ينظر إلى

السلعة أو المتاع، وصارت تباع وتشرى. إن الحرب هي البداية الكبرى لتخلف المرأة. فإذا أضفنا التجارة تبين أنها ضعيفة عاجزة عن مجاراة الرجل في السرقة والقرصنة والقتل والتجارة. إن الميثرية أظهرت في العقيدة ما كان يمارس على أرض الواقع في كثير من البلدان.

عالم يتغير وقضايا لم تحل

تاريخ طويل من الصراع بين الرجل والمرأة. والعالم اليوم يتغير تغيرا كبيرا، ومع ذلك فإن القضايا الكبرى المتنازع عليها لم تحل، أو بتعبير آخر لم يجر الاتفاق على صيغة مشتركة في العلاقة بين الذكر والأنثى. أزمان وأزمان مرت وبذل الطرفان جهودا كبيرة لحل القضايا الأساسية فلم تحل، بل مرت فترات ازدادت تعقيدا. إن ميزان القوى مال لصالح الرجل منذ أن ظهرت الحرب والملكية الخاصة والتجارة. وفي رأينا أن المشكلة تزداد تعقيدا، فالبشرية اليوم تميل إلى التفكير في كل شيء تفكيرا ماديا. ولم يكن هذا التفكير بعيدا عنها من قبل. إن كل أديان الأمومة وعلاقات البشر في ذلك المجتمع والعواطف والحنان والمحبة والتضحية لم تستطع أن توقف التطورات التي أعقبت ظهور الحصان المحارب الذي أوجد الملكية الخاصة والإمبراطوريات المخيفة. لقد عصف الحصان بكل المثل والقيم التي كانت موجودة واختلت العلاقات الجديدة وتغيرت لــصالح الرجل، فالأولاد صاروا ملــكا له، والجنس صار تحت إمرته، والمرأة تحولت إلى متاع، واستمر الصراع ولكن من أجل السيطرة وبسط السلطة وليس من أجل السمو. إن نظرة إلى الماضي تبين أن كل هذا الصراع لم يرتق بمعنويات الإنسان، رجلا كان أم امرأة، بل عمل على تشويش الحياة والعلاقات بين الجنسين، وانعكس ذلك عــلى العلاقات الاجتماعية كلها. إن الإنسان الذي يستخدم اليوم الكهرباء ليس بالضرورة هو الإنسان الراقي الذي يسعى إلى السمو، بينما الإنسان القديم الذي يستخدم الحطب نارا هو الإنسان المتخلف في علاقته الاجتماعية. باختصار لم يرافق التطورَ المادي الهائل تطورٌ في صيغة

العلاقة الإنسانية المعنوية التي تنتج السمو. ولهذا ظلت القضايا الأساسية عالقة. ومن أبرز هذه القضايا: الجنس والزواج والأولاد والموقف من الطبيعة. هناك قضايا كثيرة، لكن القضايا التي أشرنا إليها هي الأهم والأخطر.

الجنس: الصخرة التي لم تتغير

إن حذف الجنس يعني حذف الأدب والفن وكل المعنويات الأخرى... إن الجنس علاقة محركة لكل المجتمع، أو بالأحرى العلاقة «الطبيعية» التي تعتبر محورا أساسيا في الحياة الاجتماعية الإنسانية. إن الحاجة إلى الجنس كالحاجة إلى الغذاء والدواء. والجنس المنظم عند الحيوانات على نحو عفوي لا يخلق «قضايا مستعصية» وحكم فرويد بأن البشرية ستظل تتخبط ما لم تجد قاعدة للإشباع الجنسي كالإشباع الغذائي، لا يصدق طبعا على الحيوان. وننظر اليوم إلى الجنس فلا نجده «أرقى» مما كان قبل آلاف السنين. كما أن البشرية لم تستطع أن تحل هذه المشكلة الخطيرة. ولا يبدو أنها قادرة أن تجد لها حلا، بعد كل هذه المحرمات التي راكمتها الأديان. وقد مال بعض الموسوعيين في القرن الثامن عشر إلى الإباحة الجنسية (انظر ديدرو في «ملحق رحلة بوغنفيل» والحوار بين أور والكاهن في كتاب صادر عن وزارة الثقافة في دمشق «ابن شقيق رامو» ترجمة عبود كاسوحة) وقوبلت هذه الدعوة برفض قاطع من الكنيسة وكل الأديان الكبرى في العالم. ونلاحظ اليوم أن الحركة النسوية الحديثة تسعى إلى حل هذه القضية عن طريق حرية المرأة. فالرجل يتمتع بحرية أكثر من المرأة التي ما تزال الجانب الأضعف في المعادلة. وكثير من عضوات هذه الحركة يجدن في «الحرية الكاملة» للمرأة ما يكفي لحل مسألة الجنس. وبعض المعاديات للرجل يبحن ممارسة المرأة الجنس مع مثيلاتها، كما يبيح بعض الرجال الممارسة المثلية. وتفخر دعاة المثلية الأنثوية بأن هذه المثلية «نظيفة» وليست كمثلية الذكر التي جرت

الدمار على البشرية، فبعد تفشي الإيدز عالميا (١٣ مليون طفل في نهاية عام ٢٠٠٠ ولدوا مصابين بالإيدز) تحول إلى مشكلة بشرية يشكك الكثيرون في قدرة الطب على حلها. لقد فتح الإيدز معركة بين الرجل والمرأة لتبادل التهم. إن مسألة الحرية الكاملة للمرأة لا تحل المشكلة، بل ربما تعقدها أكثر فأكثر. فكيف تــكون فتاة حرة وهي محدودة التفكير معدومة الثقافة. وهذه النسبة من الأمية الثقافية ليست بالنسبة القليلة أبدا بين النساء – ولا بين الرجال – فالعالم يميل إلى تكثير الغباء، وإلقاء عبء كــبير على التنظيمات الاجتماعية، التي لا تكاد تحل مشكلة المعيشة الأولية. وبالمقابل فإن حرية الرجل الكاملة لا تحل المشكلة ولا تخفف منها. إن نسبة المستسلمين للغرائز الجنسية من الجنسين يعادل الثلثين. فالحرية في هذا المجال هي حرية غير مسؤولة أبدا، حرية البراري وليست حرية المجتمعات التي تحتاج إلى ميثاق أو عقد أو نظام أو قانون، يبيح من الحرية بمقدار ما يفرض من المسؤولية. وتتذرع المرأة بأن جنسانية الرجل عدوانية، تجتاحه كل يوم بل كل ساعة، بينما جنسانية المرأة لا تكاد تتجاوز ثلاثة أيام في الشهر. واختلاف حالات النزو يجعل من الرجل معتديا على المرأة. ولكن إذا أضفنا إلى ذلك أن الرجل أقدر ماديا، يمكنه استغلال مكانة المرأة المادية المتدنية نسبيا لصالحه، عرفنا مدى الغبن الذي تشعر به المرأة في أوضاعها الحالية. ومن هنا تشعر المرأة أن الجنس سلاح بيدها يمكنها استخدامه لاستعباد الرجل أو لفرض استحقاقاتها الآنية على الأقل. مع أن المشكلة أعقد من ذلك بكثير.

يقال إن المجتمعات المتطورة منحت الحرية إلى أقصى مدى، حتى أن بعض الدول سمحت بدخول الجنسانيين المثليين ميدان الخدمة العسكرية، وسمحت للمرأة بأن تكون حرة بجسدها إلى أقصى مدى، شريطة ألا تخل بالقوانين العامة. ولكن الحركة النسوية الحديثة نشأت تماما في هذه البلدان التي نالت فيها المرأة، كما نال الرجل، أقصى ما يمكن من الحرية الجنسية.

ولو أن هذه الحرية تحل المشكلة لما سمعنا احتجاج معظم الحركات النسوية على الأوضاع القائمة والتي يقلن إنها «مزرية» بحق المرأة. وفي التسعينات من القرن الماضي خرجت مظاهرات احتجاجية على حرية الإعلام الجنسي.

إن المسألة الجنسية مسألة عويصة جدا بعد وراثة عشرات الأنظمة وتجارب العلاقة الجنسية منذ العهود القديمة وحتى اليوم. وهذه المسألة لا يمكن أن تحل في ظل أوضاع الأمية الثقافية السائدة في كل أصقاع العالم. والمقصود بالثقافة تلك التي تجعل الحب للآخر لا للذات، وتجعل العطاء يسبق الأخذ... بمعنى آخر إن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى ثقافة أدبية تدعو إلى المنافسة في السمو والترقي. ولا يتم هذا إلا بثورة ثقافية تحد من الغباء الثقافي الذي يحول دون التسابق إلى السمو. ونكرر الآن، كما سنكرر فيما بعد، بأنه من دون ثقافة سمو لا يمكن حل مشكلة الجنس، ولا حتى بقية مشكلات المجتمع. والزعم أن استقلال المرأة اقتصاديا يجعلها أقرب إلى حل مشكلاتها بذاتها دون الاعتماد على الرجل، لا يجانب الصواب ولكنه يحل المشكلة من طرف واحد، فقد تكون المرأة أكثر حرية وأكثر مسؤولية، ولكن حاجتها إلى الرجل هي حاجة نفسية مثلما هي حاجة جسدية. وعندما تضطرب الساحة النفسية فإن المشكلات تتعقد أكثر بكثير من مشكلات النواحي المادية. ولا نشك في أن المعتقدات المترسبة في النفوس من الديانات المختلفة ومن التجارب المتعددة تعمل على تعقيد المشكلات والقضايا الأساسية. ومع أن الجنس واحد عند كل بني البشر، إلا أن المعتقدات تلعب دورا كبيرا في هذه الناحية، ففي كثير من الديانات البولينيزية يعتبر العمل الجنسي مشكلة بحد ذاتها بسبب نظرتهم الدونية إلى المرأة، فالجنس عملٌ دنس، وممارسته تعتبر عملا خطيرا ويعتبر الطفل نجسا حتى سن البلوغ وطقوس التنسيب initiation التي تدخل العقائد المعقدة في قناعة المنتسب، في

الجنس وغير الجنس. ومنها الموقف الدوني من المرأة. إن مشكلة الجنس تظل بحاجة إلى معالجة، بعد هذا التاريخ الطويل، بحيث تتوازى الحرية مع المسؤولية، إن لم نقل إن المسؤولية يجب أن تكون أضعاف الحرية، في الأوضاع الراهنة. إن ثورة ثقافية يجب أن تقوم من أجل إطلاق المنافسة في حب الآخر، في ثقافة السمو.

الزواج والطلاق

إذا كان الجنس فترة عابرة، فإن الزواج هو القيد المفروض على الجنس من أجل استمراريته. في الزواج يكون هناك طرفان دائما، أو على الأقل يستمران مدة غير قصيرة. وهنا تبدأ مشكلة الأواني. فإن كانت مستطرقة فإن العلاقة الزوجية تخضع للتعديل وفق تخلي الطرف للطرف الآخر بحيث يحدث التوازن. ولكن الأواني غير المستطرقة تعني فشل الزواج. ماذا نقول في زواج طرفه الأول يحب الموسيقى والفنون والثاني يكرهها وينزعج منها؟ ماذا لو أن الطرف الأول تعشق اللون الأحمر بينما الثاني يصاب بالذعر كلما رآه؟ ماذا لو أن الطرف الأول متشائم والثاني متفائل؟ ماذا لو أن الطرف الأول يريد الإنجاب والثاني يرفضه؟ ماذا لو أن الطرف الأول يحب المرح والثاني يكرهه ويميل إلى الجد؟ هذه حالات متوافرة كثيرا إن لم نقل إنها شائعة في المؤسسة الزوجية. إننا نشير إلى قضايا تبدو بسيطة بينما هي في منتهى الخطورة في العلاقة الزوجية وقد عرضها الأدب ببراعة واستغلها فنيا مستحدثا أشكالا جديدة بديعة. وهنا يبدو الطلاق ضرورة ملحة لا بد أن توافق عليه كل المجتمعات. ولكن الطلاق مثل الدائرة المغلقة، إذ يجدد المشكلة فيجد الطرفان الجديدان نفسيهما في وضعين متقابلين لا متوازيين، ولا بد من «خضوع» أحدهما للآخر، حتى تصبح المعادلة مقبولة. والطرف الخاضع هو الطرف الأضعف اقتصاديا وثقافيا. وهذا ما يجعل الكثيرين من نساء ورجال يطالبون بإلغاء المؤسسة

الزوجية الفاشلة، السائدة في بشرية اليوم. إن مشكلات الجنس في رأيهم أخف خطرا وضررا من مشكلات الزواج.

ولكن هل هناك شكل للزواج؟

هناك أشكال كثيرة من الزواج الوحداني والتعددي، وإن كان الطلاق أو الانفصال واحدا. ومع أن زواج الذكر بالذكر، أو الأنثى بالأنثى، شكل لم تعرفه البشرية في تاريخها السابق، فإن الحكومات تغض النظر عنه ما دام لا يؤذي المجتمع ولا يعرقل القوانين العامة. وكذلك الزواج التعددي، ففي الولايات المتحدة الأمريكية تزوج أحدهم بعشر زوجات (كما تنشر موسوعة الإنكارتا Encarta لعام ٢٠٠٢) يقطنّ منزلا واحدا في ولاية نيفادا، معظمهن عاملات منتجات أو موظفات في إحدى الدوائر الرسمية. يبدو أن مؤسسة الزواج التقليدية الشائعة قد شاخت، وتقوم البشرية اليوم بالبحث عن أشكال جديدة تحل محل هذه المؤسسة، فالزواج الوحداني لم يعد مرضيا لما فيه من مشكلات تطال الطرفين، وإن كان مقدسا تحت شعار حماية الأطفال والأسرة من الضياع والتشتت.

ولكن هل هناك شكل أفضل من الشكل الوحداني؟ لا نعتقد أن أحدا يرشح شكلا بنوعه، فهناك أشكال متعددة، وإن كان بعضهم يعلن حماسته لزواج المساكنة. ولكن حتى زواج المساكنة بات بحاجة إلى قوانين ناظمة، في حال وجود أطفال ناجمين عن هذا الزواج. والمساكنة مثلها مثل أي زواج آخر، الوحداني أو غير الوحداني، تكون الغلبة دائما للطرف الأقوى، ويقع الطرف الأضعف في الخسران.

إن الزواج لا يعالج ولا يناقش خارج النظام الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والمعتقدات المتعددة في المجتمع الواحد. ثم إن الزواج محكوم بأشياء نفسية يعاني منها الطرفان، ومنها أن الاعتياد اليومي يجلب الملل الزوجي. إن الألفة تثير مشكلات نفسية عديدة، فهي تخفف من الشوق

الجنسي، وتحيل ما كان جميلا جمالا استثنائيا إلى شيء عادي لا جاذبية فيه. وليس زواج المساكنة بعيدا عن هذا الملل الزوجي، الذي قد يظهر على طرف دون طرف، أو يكون الدافع الكامن وراء افتعال مشكلات أخرى لخلاص هذا الطرف من ذاك. ولا يشك أحد في أن الظروف القائمة في المجتمع، من اقتصادية واجتماعية وأخلاقية ومعنوية تلعب دورا كبيرا في خلق المشكلات الناجمة من الزواج، أي زواج، أو في حلها.

إن دعاة العودة إلى الطبيعة، أي إلى المجتمعات القديمة التي ما كانت تفرض أي قيد على الجنس أو الزواج، والتي عبر عنها ديدرو في أثره الذي أشرنا إليه، أشبه بالعودة إلى يوتوبيا متخيلة لا واقعية فيها. إن الظروف البسيطة، حيث عدد السكان محدود، والحصول على مقومات الحياة مضمون للجميع، وحيث لا تكون هناك «حاجات مذلة» فيما يتعلق بالمعيشة والضرورات المادية، لا يمكن أن تعود في الوقت الحاضر. وكل حديث عن هذا ضرب من الخيال. ربما يعود الزواج القديم، ولكن بصورة جديدة تأخذ في اعتبارها هذا العصر الصاخب وهذا الاتجاه المتزايد نحو العولمة، التي سيكون لها دور كبير في تحديد الأشكال القادمة، فالعولمة لا تولي كبير اهتمام لما كان المجتمع يهتم به، فهي لا يهمها التقيد بالزواج المسيحي أو المدني، ولا يهمها أن تشقى المرأة في زواجها أو لا تشقى... ولا يهمها تزوجت المرأة عشرة أم تزوج الرجل عشرا... بل إنها تقوم على قيمة وحيدة هي الاقتصاد. وثقافة العولمة هي ثقافة اقتصادها المادي. هل تخلق مسؤولية بمقدار ما تخلق حرية، أو تحررا من الأعباء المادية؟

إن الانفجار السكاني مشكلة من أخطر المشكلات فهي تهدد كل شيء، وعلى الأخص في آسيا وإفريقيا. إنه سيزيد من نسبة الغباء البشري، والأفراد الذين يصعب تطبيعهم على ثقافة السمو والترقي. إن عدد العباقرة هو واحد بالمليون. فمقابل كل مليون نسمة هناك عبقري واحد. ولا يحتل الوسط مكانة

كبيرة في هذا المليون، بل يغلب أن تكون نسبة الغباء البشري ما يقرب من الثلثين. فهل هناك خطة للعولمة في إشاعة ثقافة المسؤولية المادية والمعنوية؟

إن الحركات النسوية الحديثة نفسها لا تعرف شكل الزواج الذي تريد، أو الذي يناسب المرأة أكثر من الشكل الحالي. ولكن معظمها يرى أن تحطيم العلاقات القائمة سيخلق نوعا من الزواج أرقى مما هو عليه، وربما كان إلغاء الزواج المتعارف عليه هو أول خطوة في طريق اكتشاف الشكل المناسب، إن أمكن الوصول إلى شكل مناسب. فثمة تناقض في استخدام الحرية لحل مشكلة تقوم على الواجبات والتضحيات والالتزام. وعندما يأتي الطلاق كنوع من الحرية للخلاص من سجن الزوجية، يتعالى الصراخ بأن على الطلاق أن يكون منصفا وأن توضع قوانين تقيده.

إن اختلاف الأمزجة بين الطرفين وحده يحمل أشياء وأشياء تحبط الوفاق الزوجي، فكيف إذا أضفنا إليها القضايا الاجتماعية والهموم الكبرى؟

عندما اخترعت الميثولوجيا اليونانية «هرمافروديتوس» لم تفعل ذلك عبثا. إن الإغريق يرون التناقض في الكائن البشري نفسه قبل أن يروه في الظروف الخارجية. وما لم يتم التكامل في الأمزجة بين الطرفين على غرار هرمافروديتوس، فإن كل الحلول تبدو عابثة. إن الإغريق ما كانوا يلعبون عندما ابتكروا شخصية هرمافروديتوس، بل كانوا يضعون الحل المثالي، أو قل الخيالي المفترض، والذي ربما لا يستطيع العلم أو الأنظمة الاجتماعية أن تخلق الظروف المناسبة لتحقيقه. إن اليوتوبيا الحقيقية تبدأ بالانسجام. والانسجام لا يكون إلا في النفس البشرية، فإن استطاع الطرفان تحقيق ذلك، فإن اليوتوبيا قد تتحقق. أما الحرية فإن فيها من الوهم ما يجعلها أشبه بكذب الأطفال الذي يقنعهم وحدهم. إن الحرية هي أشبه بالجو الضبابي الذي نلجأ إليه عندما لا يكون ثمة حل مناسب متوافر. إنها الكلمة السحرية التي لا

تعالج الواقع ولكنها تغطيه فترضي النزعة التي في النفوس المتشوقة لإحداث تغيير ما.

ماذا لو افترضنا العكس؟ أي لو افترضنا أن المؤسسة الزوجية تقوم على القيود الصارمة والالتزام بالاستحقاقات الدائمة اللصيقة حتى بالحياة اليومية؟... ولكن ماذا لو نفذ طرف هذا الالتزام، وكان الطرف الآخر عبثيا لا يبالي بقيود ولا بالتزام؟ هل كل النفوس مهيأة للتضحية في سبيل تربية جيل جديد يقوم على نظرة مسؤولة ويعتاد على التنافس في ميدان السمو والرفعة والارتقاء فوق نداء الغرائز؟

على أي حال ما نراه زواجا «الممارسة الشرعية للجنس»يقابله ممارسة غير شرعية لدى المتزوجين أنفسهم، ربما كانت نسبته مضاعفة. وقد عكس الأدب كل هذه العلاقات المتشابكة بين الطرفين. إن مشكلة الزواج تظل مشكلة معلقة لم تقدم حركة من الحركات النسوية الحديثة حلا واقعيا مقنعا لها.

ملكية الأولاد وتربيتهم

الأولاد ثمرة الجنس، شرعيا كان أم غير شرعي. وهم مشكلة تضاف إلى مشكلات المرأة والرجل معا. جرى الصراع بين الرجل والمرأة في التاريخ القديم حول ملكية الأولاد. يبدو أن دورهم في الحياة الاجتماعية لم يكن مرهقا، بل كان منتجا، بحيث لا يشكلون عبئا حقيقيا على ميزانية الأسرة. إن هذا الصراع ما يزال قائما حتى اليوم. ففي كثير من المجتمعات يرتفع صوت المرأة مطالبة باستعادة حقها في ملكية ما انتزع منها منذ آلاف السنين. إنها لا تتصور كيف يسجلون الابن باسم أبيه. ولا ترى عدلا في إلحاق الولد بأبيه وانتزاعه منها، هي التي حملته فترة طويلة وحضنته فترة أطول...! فالأولاد أيضا من المشكلات المستعصية والقضايا الأساسية التي يسعى البشر إلى وضع القوانين الأسرية والأنظمة التربوية للحصول على

جيل قادر على حل مشكلاته، ومواجهة الظروف الجديدة، أو التي يتصورونها أنها جديدة بالنسبة إليه. إن الآباء دائما يفكرون عن الأبناء ويحددون لهم خط مسار مسبق.

إن الأولاد يشكلون مشكلة عامة لا تقتصر على الأبوين، أو على المرأة. إنهم يشكلون الطاقة البشرية التي يجب أن تعتني بها الدولة لاستخدامها في التنمية المادية والمعنوية. ولكنهم من جهة أخرى دائما يكونون مصدر خوف لأنهم مشروع تمرد مستقبلي، أو حتى ثورة على الأوضاع إن كانت في غير هواهم.

نقصد من ذلك أن مسألة الأولاد ليست مسألة خاصة بالمرأة أو الرجل أو المرأة والرجل. إن الدولة اليوم تقوم بما كانت تقوم به القبيلة من إعداد الأولاد لعملية التنسيب، أي تلقينهم ما يجب أن يتبعوه من أجل «البلوغ» المجدي للقبيلة. وقد كان الأولاد قديما أقرب إلى التجانس من أولاد هذه الأيام. وعندما نقول الأولاد فإننا نقصد الصفات العامة المشتركة، وإلا فإن التنويعات التي تبرز في مشكلات الأولاد لا حصر لها.

إن مشكلة الأولاد مشكلة اجتماعية، ولا نظن أن ما تطالب به الحركات النسوية المعاصرة من جعل الولد تابعا للأم لا للأب، يمكن أن يكون حلا. إن مشكلة الأولاد قضية مفتوحة وتبعيته للأم أو للأب في هذا العصر المعقد لا ينهي المشكلة. إن المرأة نفسها، بل إن الإنسان عموما في هذا العصر يواجه تحديات خطيرة في الميدانين: المادي والفكري. والأزمات التي مرت والتي سوف تـــمر، والتي لم يعرفها العالم القديم، باتت أزمات مخيفة وخطيرة. وقد تنصرم عشرة أعوام ولا يستعيد المجتمع المأزوم عافيته. ولا نظن أن الأولاد أو الأمهات أو الآباء يمكن أن يحلوا قضاياهم بعيدا عن الظروف العامة، والتي باتت مثل سيف ديموقليس، تهدد الإنسان في كل عام. لقد انتزع الرجل من المرأة ملكية الأولاد، واليوم ينتزع المجتمع منها قدرتها على إدارة شؤون المنزل والأسرة. إن المنزل مرتبط وعلى نحو مباشر في هذه الأيام بما يجري خارجه، فالأزمة كالريح تدخل كل المنازل، قد تدمر بعضها وقد تبقي

على بعضها، ولكن لا يوجد منزل ينجو وتكون لديه قدرة العمل خارج نطاق الريح أو «العلاقة العامة» إن صح التعبير. إن أي أزمة «حديثة» تطيح بكثير مما ينظمه البشر.

الموقف من الطبيعة

استخف الإنسان بالطبيعة في العصور الحديثة. لم يكن موقفه هكذا في الأزمنة القديمة. كان ينظر إليها نظرة قدسية وتأليه. كان كل همه أن يجعل قوانينه منسجمة مع الطـــبيعة. وكانت الطبيعة تنتج من دون قسر. وكان الإنتاج يكفي تلك المجموعات البشرية هنا وهناك. وليس عن عبث أن يختار المستوطنون الأوائل ضفاف الأنهار والأراضي الخصبة. الإنسان اليوم يتخذ موقفا آخر. إنه موقف يعلو على الطبيعة. وقد كانت الطـــبيعة تشخص في الفكر القديم بـــ «الأم الكبرى» أو «الأم الأرض» فقد كان تقديس المرأة مرافقا لتقديس الطـــبيعة. لم يعتبروا الذكر مـــنتجا مثل الأم والطبيعة، أو «الأم الطبيعة». والملاحظ أن المرأة كانت تتدنى أوضاعها كلما خفت قدسية الطبيعة، وكلما سطا الرجل وسيطر على مظاهر الطبيعة. وقد جاءت الأديان الذكورية (طبعا بعد استخدام الحصان في الـــحرب وتأسيس الإمبراطوريات والممالك والدول القوية) لتعلن سيادة الإنسان على الطبيعة وتسلطه على كل ما فيها من حيوان ونبات وجماد ومياه وهواء. وتكون سيادته على الطبيعة بمـــقدار عبوديته لله. ولم تكن هذه الإباحة في صالح المرأة، فكل تسلط على الأولى كان يعني المزيد من العبودية للأخرى. وربما كان الصيام من أهم الظواهر الاجتماعية التي تدل على هذا العدوان على الأمين الكبريين: الطبيعة والمرأة.

كان الصيام في القديم صوما للطبيعة الأم أو الأم الطبيعة. والغرض من الصيام الحفاظ على توازن البيئة. وحتى يتحقق هذا الغرض كان الصيام الكبير يتحدد في الربيع، أي في الأشهر التي تجدد الطبيعة نفسها وتسد النقص الذي أصابها من جراء استنزاف الإنسان لثرواتها. وفي هذه الأشهر

يمنع تناول اللحوم والبيض وكل منتجات الحيوانات الآهلة. أما الحيوانات البرية فقد كان يحرم صيدها تحريما تاما، كما يحرم صيد الماء، نهريا وبحريا. حتى السباحة محرمة أيضا، وكذلك قطع الأخشاب من الغابات أو اقتلاع النباتات أو حتى قطف الزهور... في هذا الصوم يرفع الإنسان يده عن الطبيعة نهائيا... في كل شيء ولا استثناء. وبعد انصرام الصيام تكون البيئة التي يسكنها الناس قد استعادت توازنها تماما، فتعوض الغابات ما فقدت، وتغسل الأنهار أحواضها وضفافها مما علق بها من قاذورات الإنسان وعبثه، وتعود الطيور والحيوانات والأسماك والنباتات والزهور والورود... إلى سابق عهدها، وتتجدد الغابات وتعوض ما احتطبه أو اقتطعه منها الإنسان، وتتخمر التربة في هذه الفترة وتخرج نبتها. وقد تشدد العرب في هذه الأشهر وسموها الأشهر الحرام، فلا حرب ولا صيد ولا اعتداء على أي مملكة من ممالك النبات والحيوان.

كان الصيام يسمى بأسماء الربات الأم، ولم يكن يسمى بأسماء المــلوك أو القديسين أو أي مخلوق واقعي أو خيالي. الإنبات خاص بالطبيعة أي بالأم. وبعد فترة الصيام وتفقيس البيض واكتمال التوازن البيئي تقام احتفالات ومهرجانات ضخمة جدا تكريما للأم / الطبيعة التي استعادت عافيتها بعد التدمير الذي أصابها. وبعد ذلك صار يسمى بأسماء الآلهة الذكور إلى جانب الإناث: ديونيسيوس وديمتر وأورفيوس وأثينا وميثرا... ولكن مع الزمن وقيام الأديان الذكورية السماوية، صار الإنسان سيدا على الطبيعة... وعلى المرأة. واليوم تجد الحركة النسوية الحديثة نفسها أمام معضلة لا تحل. كيف يمكن أن يتغير الموقف من الطبيعة؟ إن من يجتث غابة الأمازون بلا احترام ولا توقير ولا قدسية هيهات أن يعف عن اضطهاد المرأة، التي لم تعد لها أي علاقة في نظره مع الطبيعة. وقد كان فرنسيس بيكون صريحا عندما قال بأن على الطبيعة أن تنصاع لنا ولعلمنا كانصياع المرأة العبدة. عليها أن تنفذ أوامرنا، لأنها قوانين العلم.

إن من لا يرى جمالا في غابة أو واد أو جبل أو مرج... فيندفع معتديا عليها، لا يمكنه أن يرى الجمال والدعة والعطاء والتضحية في المرأة. إنه ينظر إليها كما ينظر إلى الطبيعة. لقد حقق النصر وبسط السيادة. فعلى الطبيعة والمرأة وكل ما هو أضعف منه أن ينصاع لأمره. فالموقف لا يتجزأ. لقد تغير كل شيء: الصيام الذي بات سخيفا لا علاقـة له بالطبيعة، والاحتفالات المـكرسة للذكور وحدهم تـقريبا، بل صرنا نسمع بمهرجانات لشركات اقتصادية واحتفالات لمؤسسات لا علاقة لها بالطبيعية، بل هي التي تلوث الطبيعة... إن الجريمة التي ارتكبتها الأديان الذكورية لا مثيل لها، فقد قلبت المعادلة وجعلت السيد مسودا، مما جعل الإنسان ينفلت ويطغى على الطبيعة بلا رحمة... وبلا تقدير بأن نهايتها نهايته، تماما مثلما أن نهاية المرأة هي نهايته. لقد ابتكر الإنسان (أي الرجل) لنفسه كرامة جديدة تقوم على حيازة الطبيعة وكل ما هو أضعف منه من بشر أو غير بشر... وكانت المرأة الضحية الأولى، وتلاحقت الأمور وشيدت القلاع والجيوش وبدأ عصر الدمار الذي دشنه الرجل، ناسيا النتائج المترتبة على هذه الأعمال.

لا يمكن للـحركة النسوية أن تحل قضية من قضاياها ما لم يتغير موقف الإنسان من الطبيعة. والموقف من الطبيعة واحد من اثنين: استخدام كرامة أو استخدام عبودية. إن كرامة الإنسان من الطبيعة، وعبوديتها هي عبوديته. وقد قطعت البشرية شوطا بعيدا في هذا المضمار بعد ظهور الأديان الذكورية التي لم تحسب حسابا للطبيعة أو المرأة، فهل في مقدورها أن تغير هذا الموقف ويعود إليها حب الطبيعة والإحساس بسموها وعظمتها؟ إننا في عصر الإجهاز على الطبيعة، فحتى حيتان المحيطات آخذة في الانقراض، إن لم تكن قد انقرضت فعلا. إن عشرات الألوف من أنواع الحيوانات والنباتات قد اختفت من على وجه الأرض، والغابات تلفظ آخر الأنفاس، وحتى الفضاء صار ملوثا. ترى ألم تسأل الحركة النسائية نفسها كيف تطالب من اقترف

هذه الجرائم الشنيعة بالكف عن اضطهادها؟ وإذا لم تحل هذه المشكلة الكونية، فكيف يمكن أن تحل أي قضية أخرى، مهما كانت صغيرة؟ إن الموقف الحالي من الطبيعة يهددها ويهدد المعتدي عليها.

هناك أمل جديد بدأ يظهر على أيدي الأحزاب الخضر والمؤسسات العالمية الثقافية الواعية، مما جعل الحكومات، أو بعض الحكومات تنصاع في مسألة التلوث. إن الموقف من الطبيعة هو مقياس السمو والنظرة الإنسانية الحقيقية... وعندها لا نظن أن قضية المرأة تطرح كما تطرح الآن: تكون ليليت قد استراحت قليلا في إحدى محطات الطريق.

خاتمة: سنوات الصقيع

ترى هل يظهر مخلوق جديد على غرار هرمافروديتوس؟ وحتى في حال ظهر مثل هذا المخلوق الذكري الأنثوي في آن، المستغني عن الآخرين، لا يبدو أنه سيكون مرتاحا، حتى وهو في هذا التكوين وهذه الحالة، فالتاريخ الطويل العريض يظهر مدى تهافت هذا المخلوق. فكيف يمضي هرمافروديتوس سنوات الصقيع في أواخر عمره؟

إن زيادة عمر الحياة في العصر الحديث، جعل كتلة المسنين تزداد بسرعة. فماذا تفعل امرأة – أو رجل – بعد هذه الرحلة المتعبة، جميلة كانت أم غير جميلة، عندما تقعد في المنزل، ليس في رأسها مشروع عشق، ولا مغامرة حب، ولا البحث عن فرصة عمل، وهي تدرك أنها باتت غير مرغوبة في الندوات والمجتمعات الأصغر سنا منها. وبين الحين والحين تسمع بعض التعليقات المؤلمة، مثل: ما لهذه العجوز لا تموت؟ لماذا تخرج؟ ألا ترى نفسها؟ وتشعر في أعماقها بدبيب الصقيع يحتل كثيرا من البقع التي كانت تظن أنها محصنة في جسدها حتى لو لجأت إلى الذكريات لتقتل شيئا من الوقت. إنها تشعر بالمأساة أكثر فأكثر، فهي تتذكر الطفولة بتفاصيلها ولكنها تنسى أين وضعت عكازتها منذ نصف دقيقة فقط. قد تكابر حينا،

ولكنها في النهاية ستعترف أن الصقيع بدأ يلتهمها ببطء وهدوء. وتظهر فيها أعراض أمراض ولا أمراض. إنها أمراض الوهم، تخلقها لنفسها بنفسها تريد أن تتسلى وتقضي على العزلة والصمت، تريد أن تكون شيئا، أي تريد أن يكون لها وجود، هي التي أمضت شبابها في العمل المثمر. وتصفن أحيانا في أصابعها وترى العروق تتلوى خطوطها مثل البرازخ والخلجان والجزر الموزعة توزيعا فوضويا. وعندما تتناول كأسا بيد مرتجفة تعترف أن سنوات الصقيع قد فعلت فعلها.

لنفرض أن كل القضايا السابقة حلت إثر انتصار الحركات النسوية، فما العمل مع سنوات الصقيع، حـين لا يملك سجين هذه السنوات سوى ذكريات الماضي البـعيد، التي هي ثقل نفسي قبل أن تكون ثقلا مرضيا؟ هل هناك من علاج؟ بل هل هناك من يهتم حتى لو كان من المقربين؟ كان محقا توماس هاردي عندما قال إن الشيخوخة مؤلمة حتى لو استعانت بذكريات الشباب.

ملحق

الملحمة الأمازونية وفالكيرات الصقيع

الشيء بالشيء يذكر

تستدعي الحركة النسوية المعاصرة femisim ذكرى ملحمة الأمازونات القديمة ولا فارق بين الحركتين سوى الزمن وطريقة النضال. ففي حين عمدت الأمازونات قديما إلى النبال والسيوف والجياد حفاظا على حقوقهن، عمدت «النسوية» في هذا العصر إلى الفلسفة والتنظيم الاجتماعي والأدب لاسترداد الحقوق التي تزعم أن الرجل انتزعها من المرأة.

وإذا كانت الأمازونات ثرن تلك الثورة الكبرى بسبب التقسيم غير العادل للعمل بين الذكر والأنثى، فإن مثل هذا التقسيم آخذ في التقارب أو التلاشي في العصر الحديث، حيث اقتحمت المرأة كل ميادين العمل من التطريز إلى الحرب، وإن ظلت تصرخ بأن لا عدالة في تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. والحقيقة أن هذه الحجة ما تزال تتصدر الدعاوى المقامة بين الطرفين.

ربما يقال إن الحرب الأمازونية قامت بسبب ملكية الأولاد، الذين كانوا تابعين للأم، فانتزعهم الأب وجعلهم ملحقين به. ومثل هذا السبب لم يعد قائما في هذه الأيام، إلا في بعض البلدان، فقد حلّت مسألة انتماء الابن ببساطة وسهولة. اليوم لا مشكلة في هذا الانتماء، إلا في بعض البلدان الخاضعة لقمع أيديولوجي معين.

أشياء كثيرة تغيرت. ولكن الجوهر الأساسي للحركة النسوية المعاصرة لا يختلف عن الملحمة الأمازونية القديمة التي استمرت مئات ومئات السنين، وأدت إلى قيام أدب كامل من هوميروس وحتى أناتول فرانس. ولكن هذه «السيرة» لم تعد تطرح في القرن الحادي والعشرين الجديد مثلما كانت تطرح من قبل. فالحركة النسوية نفسها لا تذكر ولا تشير إلى هذه الملحمة الدموية في أدبياتها، إلا نادرا. لقد عمدت إلى استخدام الفلسفة الحديثة في المساواة والحقوق الطبيعية، دون أن تتخطى في نظرتها القرن السادس عشر، حيث – بحجة القضاء على السحر – أجهزت محاكم التفتيش على عشرات وعشرات الآلاف من النساء. ويعود الفضل للحركة النسوية في إدانة المجتمع البشري لما حدث في القرن السادس عشر وما بعد، واعتباره خرقا لأبسط حقوق الإنسان. ولكن لم نسمع شيئا من هذه الحركة عن المجتمع الأمازوني وميزاته وكيف كانت المرأة تدير الشؤون الكبرى التي يزعم الرجل اليوم أن المرأة غير قادرة على إدارتها.

التشكيك بالملحمة الأمازونية

تعرضت المجتمعات الأمازونية لكثير من التشكيك حتى بوجودها وانتشارها في كثير من أصقاع العالم القديم. فالموسوعة البريطانية Britannica في آخر إصداراتها الإلكترونية عام ٢٠٠٢ ترى أن هذا الجنس من النساء المحاربات خلقته الميثولجيا اليونانية التي كانت ناشطة جدا، ولم يكن له أساس وطيد على أرض الواقع. فقد ظن الإغريق أن منطقة البحر الأسود هي الموطن الأصلي للأمازونات. فلما اتسعت الجغرافيا الإغريقية لم يجدوا في هذه المنطقة أثرا للأمازونات، فراحوا يختلقون، بخيالهم الخصب، السبب/الأسباب لمغادرة الأمازونات إلى مناطق أخرى. وكثرت الأحاديث عن حروب دارت بين الأمازونات وأبطال الإغريق، كتلك التي دارت بين هرقل وجيش من الأمازونات، أو بين تسيوس

والأمازونات، اللواتي استولين على أتيكا وهددن أثينا. وتكال المدائح لتسيوس لتمكنه من دحرهنه، وإنقاذ المدينة من الدمار.

المكتشفات الحديثة

في القرن التاسع عشر قدم كاهن فقير لابنه شـــليمان فريدريش كتابا في التاريخ القديم، فاحتفظت مخيلة الولد الصغير الذي كان في السابعة من عـــمره، بصورة زاهية لمدينة طروادة التي دمرها الإغريق. وظلت هذه الصورة في الذاكرة إلى أن كبر وأزمع أن يكتشف طروادة القديمة، فجهز مجموعة من الرجال وقام بتحرياته التي أسفرت عن كتاب في عام ١٨٦٤ «إيثاكا وبلبونيز وطروادة» أحدث ضجة في أوروبا. وفي عام ١٨٧٤ ثنى بكتاب «بقايا طروادة» ثم في عام ١٨٧٥ أصدر كتابا أكثر دقة من سابقه بعنوان «طروادة وخرائبها» ولم يكتف بالكشف عن طروادة بل تابع عمله في إيطاليا وكشف عن كثير مـــما تحدثت عنه الآداب الإغريقية القديمة، وبخاصة «الإلياذة». ومن هذه الخرائب قصر أغاممنون وكليتمنسترا وأسهب في الحديث عن ذلك في كتاب ظهر عام ١٨٧٨ بـــعنوان «مسينا». وقد أعـــجب الناس بمكتشفاته وأقروا بها كحقائق مثبتة بالمعاينة، ومنهم رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الزمن وليم غلادستون.

بعد قرن وثلث القرن، وفي أواخر القرن العشرين، قام لفيف من الأركيولوجيين الروس والأمريكان بمتابعة ما كان بدأه شليمان. فإذا كانت طروادة وأثينا ومسينا وقصر بريام وقصر كليتمنسترا... قد وجدت حقا، فلماذا لا يكون ثمة وجود للأمازونات اللواتي ذكرهن هومر في إلياذته؟ وذهبوا إلى منطقة البحر الأسود وباشروا أعمالهم التي أسفرت عن نتائج مشابهة لنتائج شليمان. وأعلنت النتائج في ٢٥ شباط (فبراير) من عام ١٩٩٧ فتبين أن القبور في سكيثيا (آسيا الوسطى) هي قبور الأمازونات، فقد عثروا على الهياكل العظمية النسائية وبجانبها الخنجر والسيف والقوس والنبال

والنطاق (زنار عريض خاص بالأمازونات لتسهيل حركة الجذع) والسكاكين الصغيرة التي كانت الأمازونات يرمين بها من بعيد الأعداء والوحوش.

وما كتبه الإغريق كان حقيقيا. فقد أظهرت التنقيبات أن الأمازونات لم يكنّ على علاقة سيئة مع السكيثيين. كانت هناك علاقات ودية حميمية. فقد تعاملن مع الرجال بكل لطف وأناقة، إلى درجة أن محاربي سكيثيا رفضوا التورط في أي حرب ضد الأمازونات. وتبين أن الإسكيثيين طلبوا من الأمازونات أن يأتين معهم كزوجات، فرفـضن مكتفين بالعلاقات الطيبة التي يفرضها الجوار. وقد ثبت أن الفنون الكبرى عندهن هي تصويب النبال ورمي الرماح وركوب الخيل... وغيرها من عدة الحفاظ على الذات في تلك الأيام.

والأغرب أن هؤلاء الـمنقبين عثروا على قبور مشـابهة في أكثر من منطقة قرب البحر الأسود. ولكنها كانت قليلة العدد. أي كلما ابتعدنا عن هذه المنطقة قلت الدلائل والآثار.. ويقول جانين دافيس- كيمبال Davis-Kimball أحد قادة حمـلة التنقيب الضخمة، بأن هناك قبائل سورميشية أخذت بالتزايد مما جعل النساء يهرعن إلى الخيل والقوس والنبال دفاعا عن حيواناتهن ومراعيهن وقبائلهن. وهذا يدل أنهن لم يكن في مـجتمعات منعزلة منفصلة عدوانية، يترصدن الرجال للقضاء عليهم. والفرق كبير جدا بين مجتمع نسائي صرف ومجتمع تديره المرأة وتتعهد حتى بالشؤون الخارجية. إن المكتشفات دلت على المجتمع الأمومي، ولم يظهر دليل على مجتمع نسائي صرف.

هومر والأمازونات

يعود الفضل في المكتشفات الحديثة إلى الأديب الملحمي هوميروس الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. فمن إلياذته اهتدى شليمان إلى المواقع الحقيقية لتاريخ يرجع إلى أكثر من خمسة عشر قرنا قبل الميلاد.

وقد أتى هوميروس على ذكر الأمازونات وحدد موطنهن في الكتاب الثالث من ملحمته. فقد كان بريام ملك طروادة يقف على سور طروادة وينظر إلى أبطال الإغريق تحته، وإلى جانبه هيلين، زوجة ابنه، وسبب كل هذه الحرب الطاحنة. راح يسألها عن الأبطال واحدا بعد الآخر. فسألها عن أغاممنون، شقيق زوجها السابق منيلاوس، فوصفته له فعلق قائلا: «أرى أن الآخيين يخضعون له بحشودهم الضخمة. عندما كنت في فريجيا رأيت الفرسان عندما هاجمتهم الأمازونات، نظيرات الرجال، ولكنهن لم يكن من الكثرة كما كان الآخيون».

وعندما يسرد هومر علينا قصة بيلروفون في الفصل السادس وأعماله العظيمة يذكر في عمله الثالث أنه «قتل الأمازونات اللواتي كن نظيرات الرجال» ولما كانت رحلة بيلروفون نحو الشرق فإن موطن الأمازونات يقع شرق بلاد الإغريق، أي في حوض البحر الأسود. ولولا المكتشفات الحديثة التي بدأها شليمان، لكانت طروادة عبارة عن أسطورة، ولولا البعثة الروسية الأمريكية لكانت الأمازونات خرافة اختلقها اليونان.

فالأمازونات لسن عنصرا بشريا خاصا. إن كلمة أمازون تعني «فاقدة الثدي» فقد رووا عنهن أنهن كن يحرقن بالنار موضع الثدي الأيمن للفتاة الصغيرة، حتى لا يعيقها في استخدام أدوات القتال وبالأخص الرمي بالقوس والنبال. وبعض الروايات تذهب إلى أنهن كن يقطعن الثدي قطعا شديدا فتكاد عظام الصدر تبرز بعد الشفاء، حتى يوفرن لليد حرية الحركة.

رواية هيرودوت

في الفصل الرابع «ميلبوميني» قدم هيرودوت في تاريخه رواية تفصيلية. فمنه نعرف أن السكيثيين يسمون الأمازونات «قاتلات الرجال» oir-pata. ويخبرنا بالتفصيل عن معركة تيرمودون Thermodon التي انتصر فيها الإغريق وجعلوا ثلاث سفن تحتشد فيها الأمازونات الأسيرات. وفي طريق العودة قامت الأمازونات الأسيرات بانتفاضة وقتلن طاقم البحارة

حتى آخر رجل. ولما كن لا يعرفن كيف يتعاملن مع الدفة والمجداف فقد تركن السفن لمشيئة الريح تدفع بهن إلى حيث تشاء. وأخيرا وصلن إلى مكان يقال له كريمني Cremni أي الصخور. وهو مكان يقع في بلاد السكيثيين الأحرار. نزلن إلى الساحل ثم أخذن يتقدمن نحو المناطق الآهلة بالسكان. وأفلحن في ترويض أول قطيع من الخيول البرية، مما سهل عليهن التنقل.

وبعد فترة تجاور المعسكران. ولما اعتقد السكيثيون أنهم أمام جيش حقيقي شنوا عليهن هجوما وقتلوا بعضا منهن. وبعد تفحص جثث القتلى تبين لهم أنهن كلهن من النساء، فامتنعوا بعد ذلك عن قتل أي امرأة منهن. ولما أرادوا إصلاح الأمور بين المعسكرين، أرسلوا إليهن فتيانا شبانا يعسكرون بجوارهن، عسى أن يرغبن في الحصول على نسل قوي مثل هؤلاء. ولما حصل التلاقي اختلط المعسكران في معسكر واحد وعاش السكيثيون مع الأمازونات كزوجات لهم، وتعلم الرجال لغة النساء، كما تعلمت الأمازونات لغة هذه الأقوام الجديدة عليهن. ولكن بعد فترة لاحظن أن ثمة فروقات أصعب من أن تذلل أو تزول فطلبن منهم أن يتجاوروا ويتزاوروا، وأن يقسموا الأولاد قسمة الحق فيأخذن البنات ويعطينهم البنين. واتفق الطرفان على هذا كما اتفقا على مقاومة أي غزو أجنبي، وبالأخص الغزو الفارسي. بعض الروايات تقول بأنهن كن يحتفظن بالبنات ويئدن البنين أو يقتلنهم خنقا أو ذبحا أو إلقاء من جرف عال، أو في مسيل نهر عميق. ولكن الحفريات لم تدل على أي شيء من هذا الزعم.

بلوتارك والأمازونات اللطيفات

أتى بلوتارك على ذكر الأمازونات مرات عديدة، فذكرهن في سيرة لوكولوس وكذلك في سيرة تسيوس. وقد امتدحهن لما أبدينه من لطافة تجاه الغرباء الذين رسوا على شواطئهن ضيوفا، بل قدموا ملكتهم أنتيوبي (بعضهم يجعلها هيبوليتا) التي أنجبت له هيبوليتوس. وقمن بعقد معاهدة مع تسيوس. ولكنهن عدن وهاجمن مملكة أثينا وحاربن تسيوس لإخلاله

بالعقد المبرم. وعندما دارت المعركة وسقط الكثير من الأمازونات جرحى كانت الملكة أنتيوبي ترسلهن إلى بلاد الكالخيس للاستشفاء. ويقال إنها آخر معركة لهن فبعدها لم يذكرن كما كن يذكرن من قبل. ولم يقدم بلوتارك تفاصيل كثيرة عن الأمازونات ومجتمعهن.

ويذكرهن في سيرة بومبي. ويرى أنهن ساعدن الجيوش البربرية التي كان يحاربها، فكن ينحدرن من الجبال المحيطة بنهر تيرمودون، مما سبب لجيش بومبي إرباكا حقيقيا. وما ذكره عنهن بعد ذلك لا يختلف عن هذه المواصفات.

الأمازونات عند أريوستو

في ملحمة «أورلاندو غاضبا» Orlando Fiorioso يطالعنا أريوستو Ariosto برأي إيجابي عن الأمازونات فيقول إنهن كن من الحاكمات اللواتي يدرن شؤون قومهن، فلا يسمحن أن يحتل الذكر أي مركز هام من مراكز الإدارة الداخلية أو شؤون الحرب والقتال. ويشبّههن بالنحلات العاملات، جامعات الخير والبركة. ولكنه يقول إنهن كن يطردن الذكر أو يقتلنه. والأرجح أن أريوستو أخذ برأي سابق، من دون تمحيص لأسباب الطرد أو القتل. ولم يسأل نفسه إن كان ذلك يحدث لأبناء مجتمعهن أم للغرباء. والجمع بين صفات الخير والبركة من جهة والطرد والقتل من جهة ثانية هو جمع بين المتناقضات والمعتقد أن تشبيه أريوستو لهن بالنحلات العاملات هو ما جعله يكمل صورة النحل ويطبقها عليهن. فكما أن النحلات العاملات يجنين الشهد ويطردن الذكر أو يقتلنه، كذلك الأمازونات.

ومع ذلك لاتستبعد هذه التهمة. فالذكر لم يكن مفيدا في عملية الإنتاج، باستثناء ضرورة وجوده لحفظ النوع، فتقوم الأمازونات بالخلاص منه نفيا أو قتلا، من دون أن يعني أن جميع الذكور يخضعون لذلك. ففي بعض المجتمعات الذكورية كان يتم الخلاص من بعض الإناث، وعلى الأخص

حين تشتد الأزمات الاقتصادية، ويتكاثر عددهن أكثر من الحاجة، فيدفن أحياء (الوأد). وقد ظهرت هذه العملية واضحة في الجاهلية. ولذلك قد تكون الصورة التي نقلها أريوستو من عالم النحل إلى عالم الأمازونات على جانب من الصحة، إلى هذه الدرجة أو تلك. ولكن ليست كل المجتمعات الأمازونية بهذه العادة.

هوبز ونظرية العقد الاجتماعي

على الرغم من الاختلاف في العادات والتقاليد وأسلوب الحياة فقد عشن في جوار القوم من دون أن يظهرن عداء أو يوقعن أذية. وقد اعتمد توماس هوبز Hobbes على هذه الرواية التاريخية عندما صاغ نظرية العقد الاجتماعي في كتابه «اللوياثان» وهي النظرية التي اقتبسها جان جاك روسو واشتهرت على يديه. وتقوم نظرية هوبز على أن المهم في الحياة الاجتماعية هو العقد الذي يكون بين أفراد المجتمع. فالإنسان ذئب للإنسان، وليس أخا له، كما تدعي النظريات المثالية والخيالية. وحتى تتكامل الحياة، يجب تقسيم العمل وفق عقد اجتماعي. ويستشهد هوبز بالحالة الـتي عاشها السكيثيون مع الأمازونات. فقد أبرم الطرفان عقدا كانت الأمازونات بموجبه يحملن من الجوار ويعدن إليهم الفتيان ويحتفظن بالفتيات، ويتكاتفن ضد كل غزو خارجي أو اعتداء أجنبي. إن القوانين الوضعية – برأي هوبز – هي التي تحمي الإنسان وتحل معظم مشكلاته مع الآخر. يكون هذا العقد في المجتمع الواحد أو بين مجتمعين أو بين عدة مجتمعات. . . وقد جاءت الأيام تثبت صحة نـصيحته فقد قامت القوانين المدنية وحلت محل القوانين الإلهية السابقة. كما ظهرت «العقود» في المجتمع المحلي، ظهرت أيضا في المجتمعات الإقليمية (المحالفات والاتفاقات) والمجتمعات الدولية (عصبة الأمم وهيئة الأمم) ولكن ذلك لم يغير شيئا ولم يخفف من نوازع الإنسان العدائية، فظلت الحروب والنزاعات والـخروقات قائمة، ولم تصل المجتمعات المحلية والدولية إلى صياغة عقد يحترمه الجـميع، كالعقد بـين

السكيثيين والأمازونات. لقد اعتبر هوبز الأمازونات مثالا للمجتمع الذي يحترم العقود ويعيش بأمان مع الجوار. لقد احتاجت الأمازونات للإنجاب فتم الاتفاق مع الشبان واقتسم الطرفان الأولاد بالعدل عن طريق الاحتفاظ بالإناث وإعادة الذكور إلى آبائهم.

إن هوبز يعمم «عقد» الأمازونات على المجتمع، بل على كل المجتمعات وينصح بإقامة عقد يقسم فيه العمل بحيث يتكامل التعايش السلمي، ويحد من ذئبية الإنسان.

جون ستيوارت مل ينفي

في كتاب «تابعية النساء» The Subjection of Women يرى مل أن الأمازونات عبارة عن خرافة ولدت من الخيال الأسطوري وتناقلها الكتاب والمؤرخون. ويذهب إلى أن الصفات التي يضفيها الكتاب على الأمازونات هي ذاتها الصفات التي كانت تتمتع بها المرأة الإسبارطية، فقد كانت تصطاد وتقاتل وتقوم بأعمال الحقل والزراعة. وكانت مهارة المرأة الإسبارطية في ركوب الخيل مضرب الأمثال، فقد كانت تجيد كل أنواع الفروسية، الحربية والاستعراضية.

كان رأي مل عابرا في كتابه، فلم يتريث عند الروايات الكثيرة لتفنيدها أو تأييدها، بل اكتفى بالحكم العام على هذه الروايات. فهو لم يشرح لماذا ظهرت الأمازونات في المجتمع البدوي (السهوب الآسيوية، وبالتحديد جنوب أوكرانيا اليوم، وشمال إفريقيا وأطراف الجزية العربية ومالطا ومصر وليبيا والمغرب. بل هناك من يقول إن مجتمعات الفرات بكاملها كانت تحت سيطرة المرأة، كمارلين ستون في كتابها «يوم كان الرب أنثى») بينما لم يظهرن في مجتمعات المدن/الدول؟ ولم يثبت أن المرأة الإسبارطية قامت بحرب «نسائية» صرف. كانت تشارك في الحروب مثل المرأة الأفغانية والروسية... ولكنها لم تؤلف جيشا من النساء كما هي العادة الأمازونية.

كتاب وشعراء

لا أحد يستطيع متابعة ذكر الأمازونات لدى الكتاب والشعراء، فمنذ القديم وذكرى هذه الملحمة تتردد عند الكثيرين. فشكسبير مثلا يذكرها مرارا كما في «الملك جون» و«تيمون الأثيني» و«حلم ليلة منتصف صيف». بل إن أفلاطون في آخر كتبه «القوانين» جاء على ذكرهن عندما زعم أ، المرأة الحالية، أي المرأة في مجتمع الدولة / المدينة، لا تستطيع أن تقوم بالأعمال التي قامت بها المرأة الأمازونة.

أما شوسر فيشير إلى مهاجمتهن أثينا ويشيد كثيرا بالشجاعة التي أبدينها في قتال جيش الأثينيين في قصة «حكاية فارس»

الذين ذكروا الأمازونات كثيرون: اسخيلوس وكامبانيلا ودانتي وهسيود ويوربيدس وغوته وإدموند سبنسر. وهناك من أضفى عليهن صفات غاية في الرقة. ففي «حوليات» تاسيدوس نراهن يساعدن الرومان في بناء المعابد الضخمة، على غرار معابدهن. وكن يحملن القرابين إلى مذابح هذه المعابد، ومنهن تعلمت نساء الرومان هذه العادة.

أما مونتين في «المقالات» فيؤكد أن Thalestria ملكة الأمازونات ساعدت الإسكندر واقترحت عليه أن يتزوج شبان اليونان من فتيات الأمازونات فيجتمع الجمال مع القوة. طبعا المقصود بالجمال الإغريق والمقصود بالقوة الأمازونات وليس العكس.

معظم الآداب ذكرت وظلت تذكر الأمازونات. وما خولة بنت الأزور وسواها من الفارسات العربيات سوى نموذج مجتمع كانت فيه المرأة تقوم بأعمال الحرب والإدارة.

ولكن يبقى أمامنا كاتب واحد سوف نعتمد على كتابه فيما بعد وهو ديودوروس الصقلي Diodorus Siculus الذي طاف مصر وبلدان المغرب وكتب ما كتب عنها قبيل الميلاد بسنوات.

أمازونات الإغريق

اشتهرت أمازونات الإغريق بحيث غطت على شهرة بقية الأمازونات في الأصقاع الأخرى. ويرجع السبب إلى الإبداع الإغريقي، وقدرة هذا الشعب على التعامل الفني مع الواقع. فقد حولوا الواقعة إلى قصة والقصة إلى ليجندة والليجندة إلى أسطورة. كانوا حقا يلعبون، ولكنه لعب فـني كله روعة وجمال. وترجع شهرة الأمازونات الإغريقية إلى ثلاث قصص مثلجها الإغريق وهي بيلروفون وهرقل وتسيوس. أما علاقتهن بالـسكيثيين فقد أوردها هيرودوت عـلى أنها حقيقة مسلمة فلم يعمل عليها الإغريق. ولم ينشأ منها شيء ميثولوجي كالذي نجده عند هؤلاء الثلاثة من أبطال اليونان.

١- أغرب الميثولوجيات تـلك التي يرويها الإغريق عن بيلروفون. فقد طلب الملك منه محاربة الأمازونات اللواتي كن يهددن مملكته، ولم يـكن قادرا أن يضع حدا لهن. وكانت حربا غير متكافئة. فقد امتطى بيلروفون الحصان الطائر بيغاسوس Pegasus وصار يرميهن بالسهام فيرشقنه بالنبال التي لم تصل إليه، وهو يطير عاليا في السماء. وانتبهت الأمازونات إلى ذلك فرحن يحتمين بالصخر والدرع، ولكنه كان يطوف حولهن من كل الجهات ويرميهن بقوة، ولم يكن لهن طاقة، فولين هاربات وقد تكبدن خسارة فادحة، واستراح الملك منهن، ومن تهديدهن.

٢- يقوم هرقل في عمله التاسع من أعماله التطهرية بتنفيذ ما طلبه منه الملك، وهو أن يأتيه بنطاق ملكة الأمازونات هيباتيا. وهو نطاق نفيس كله من الذهب. ويرحل البطل مع فريق من المقاتلين ويصل إلى ديار الأمازونات. فرحبت به الملكة مع كل الحاشية، واستقبلته استقبالا لائقا. ويطلب هرقل النطاق من الملكة فتقدمه له بكل أريحية، وعندما يمد يده ليأخذه توسوس الربة «هيرا» العدوة اللدودة لهرقل، في صدر قائدة حرس الأمازونات بأن هرقل يهم بقتل هيباتيا، فيستنفرن ويهجمن، فيسرع هرقل بقتل هيباتيا وانتزاع نطاقها، والهرب بالسفن الثلاث مع جنوده.

٣- تذكر الروايات عدة أسباب لهجوم الأمازونات على أثينا، منها أن تسيوس ساعد هرقل في الحصول على النطاق الذهبي، فأردن استرداد هذا النطاق، لأنه أثر يعني لديهن الكثير. وقيل إن السبب هو استرداد ملكتهن التي تزوجها تسيوس. وقيل إن سبب الحرب أن تسيوس أخل بالمعاهدة التي وقعها معهن. وقد استمرت المعركة أربعة أشهر.والاشتباك الأول الذي شنه تسيوس ظل سبعة أيام متوالية، مما يدل أننا أمام ملحمة لا تقل تشويقا عن إلياذة هومر.

٤- على أن الشهرة الكبرى جاءت للأمازونات من مشاركتهن في الحرب الطروادية. فقد وقفن إلى جانب المدينة المحاصرة، بقيادة ملكتهن بنتيسيليا. وقد انضم إليهن الإثيوبيون بقيادة ممنون، وكذلك أبناء تسيوس بعد أن انتهت معركة أثينا بزمن طويل.

يكفي أن تلقى بنتيسيليا مصرعها على يد أخيل حتى تشتهر الأمازونات. فقد جاء أنه قتلها فلما اقترب ورأى جمالها ندم وراح يبكي. وجاء أيضا أن أحد جنوده هو الذي رماها وليس أخيل. إن هذا الموقف الدرامي وحده يوفر الشهرة الكبيرة للأمازونات.

إغريقيات منسيات

عندما كنا نذكر الأمازونات الإغريقيات كنا نقصد أولئك اللواتي تحدث عنهن الأدب الإغريقي. ولكن هناك أمازونات إغريقيات فعلا، كما أظهرت التنقيبات. ومثال ذلك جزيرة ليمنوس Lemnos فقد عرفت هذه الجزيرة تنظيما اجتماعيا نسويا بقيادة الملكة هيباتيا (يبدو أن هذا الاسم كان شائعا) ولم يكن هذا المجتمع معاديا للرجال ولم تذكر المصادر أنهن قمن بحملة حربية أو عدوان على أي مجتمع آخر.

وأظهرت التنقيبات أن هناك مدينة يقال لها بوليوخني Poliochni كانت محاطة بسور حجري يرتفع خمسة أمتار وفيها شقوق صممت للرماة، منها يقذفن النبال على المهاجمين.

كان مجتمع ليمنوس أكثر هدوءا، ربما بسبب ابتعاد الجزيرة عن الجوار. لكنه كان مجتمعا أموميا. لكن الأبحاث لم تذكر إن كانت الأمازونات في ليمنوس يقطعن أو يحرقن الثدي الأيمن. بيد أن مثل هذه الفروق لا تغير من سيرة الأمازونات الشيء الكثير. وليس من باب المصادفة أن يكون اسم عاصمة ليمنوس ميرينا Mirina على اسم أول ملكة للجزيرة ميرينا Myrina.

ولم تكن الأمازونات حكرا على هذه الجزيرة، فهناك كثير من الجزر اليونانية عرفت المجتمع الأمومي. ومنها جزيرة أفسس، فقد عثر المنقبون على تماثيل لا ثدي على يمينها وتحمل العدة التي اعتادت الأمازونات على حملها من نطاق عريض وكنانة سهام وسيف وعلى الكتف علق القوس. وقبل هذه الآثار ظهرت في كريت أيضا، وفي عدة جزر أخرى.

وبينما لا نعرف كيف تلاشت هذه المجتمعات الأمومية في هذه الجزر، فإن المنقبين أثبتوا أن أمازونات البحر الأسود تقهقرن ولذن بجزيرة يقال لها أريتياس Aretias ففي هذه الجزيرة عثروا على قلعة كاربو كالي Karpu Kale قرب نهر تيرمودون في المنطقة الجبلية الجنوبية. كانت قلعة مخربة بفعل بشري وليس بفعل التغيرات المناخية. ويظن أنها كانت الملجأ الأخير للأمازونات.

أمازونات ليبيا

ندين بهذه المعلومات لكاتب روماني في صقلية قام برحلة إلى شمال إفريقيا والشرق الأدنى، وهو ديودوروس الصقلي، الذي أشرنا إليه من قبل.

يذهب ديودوروس إلى أن الأمازونية ظاهرة قديمة في المجتمع الليبي. وربما يرجح أن تكون أمازونات ليبيا قد سبقن في الظهور أمازونات الإغريق. وهناك صورة على مزهرية إغريقية تبدو فيها أمازونة سمراء تركع أمام المذبح. وخلف المذبح تنتصب شجرة نخيل إفريقية، وهذا ما لم تعرفه بلاد اليونان. وقد دلت الأبحاث أنها أمازونة ليبية، كاهنة أو ملكة، ترفع القرابين للربة الليبية «نيت» المقاتلة المشهورة، المتمنطقة بعدة الحرب. وقد دخلت هذه الربة إلى مصر بالاسم ذاته تقريبا.

في الجنوب الغربي لليبيا توجد منطقة جبلية يقال لها فزان قدمت للباحثين وثائق حفرية قديمة جدا، منقوشة في الصخور، تدل على النساء المحاربات والمجتمع الأمومي. ومنذ تلك الأيام كان «الكاب» مستخدما. فقد كانت الأمازونات يضعنه. وربما كان الكاب اليوناني ذاته مأخوذا عن أمازونات ليبيا اللواتي اشتهرن بالشجاعة والإدارة والحنكة. أما السلاح فهو ذاته، من قوس ونشاب وسيف... فالتشابه كبير جدا بين الأمازونات الليبيات والليمنوسيات وأمازونات السهوب الأوروآسيوية. واليوم تبدو هذه المنطقة الليبية صحراء صخرية لا يسكنها أحد، بعد أن غابت عنها الأمازونات.

وأمازونات ليبيا نموذج لكل إفريقيا، فقد عثروا على آثار أمازونية في موقع يبعد ألف كيلومتر جنوب شاطئ البحر المتوسط في قلب القارة الإفريقية. وهذه الآثار لا تختلف عن آثار ليبيا ومصر وشمال إفريقيا.

أحفاد الأمازونات

البربر هم سكان المغرب الأصليون. هذه بلادهم منذ آلاف السنين. والآثار التي تدل على قيام مجتمع أمازوني كثيرة جدا، في النقوش والصور وطريقة بناء القلاع. فهناك قلعة في مراكش لا تختلف في طريقة بنائها وأبراجها وفجوات رمي السهام... وغير ذلك، عما نجده في رسوم المزهريات اليونانية المشيرة إلى المجتمع الأمومي.

إن وضع المرأة في المجتمع البربري، حتى في هذه الأيام، يدل على المجتمع الأمازوني. فالنساء البربريات متعلمات. وعن طريقهن انتقلت ألفباء كتابية خاصة يقال لها تفناغ Tifinag وهي تعتمد على الكتابة الليبية القديمة. ولم تنقل الأمازونات البربريات هذه الألفباء وحدها، بل نقلت التراث البربري من أدب وشعر. ولولا المرأة الأمازونية لضاعت الشخصية البربرية.

وهناك شعب بربري ظل صافي العرق حتى مدة قريبة يقال له «الطوارق» عاش في الصحراء الإفريقية. في بداية القرن العشرين فقط نجحت اللغة الفرنسية في إخضاع هذا الشعب الأبي. ومن يراجع تاريخ الطوارق يجد أن ملكتهم الشهيرة تين هينان Tin Hinan هي التي نقلت إلى أحفادها السمات التي نجدها فيهم اليوم، فقد كانت شموخة محاربة... وحنونة أيضا تعطف على المظلومين في الوقت ذاته. وكانت – كما يقال – تتمتع باقتدار كبير في الإدارة كما في الحرب والقلم. لا يوجد مجتمع أمومي يضاهي المجتمع البربري، فقد كثرت فيه الكاهنات والنبيات والآلهات والملكات وقائدات الجيوش. وكلهن كن متعلمات. وقد نقلن التراث البربري العظيم والغني جدا إلى أحفادهن. ويدين البربر اليوم بفولكلورهم الضخم لأمازوناتهم.

وعندما هاجم العرب في عام ٧٠٠ ميلادية بلاد البربر تصدت لهم قائدة بربرية يقال لها الكاهنة Kahina وربما كان هذا لقبا أطلقه عليها العرب من باب الدعاية المضادة نظرا لأن الكهانة باتت مرفوضة ومنبوذة في ذهنيتهم الجديدة. وربما كان اسمها الحقيقي. فقد جرت العادة أن تطلق صفة الوظيفة على المرأة. وقد تمكنت هذه القائدة من دحر العرب وردتهم بعد أن أظهرت مقاومة قل نظيرها في ذلك العالم. وهي في ذلك لا تختلف عن ملكة الأمازونات الإغريقيات بنتيسيليا. ولكن مع الأيام انخرط البربر في الجيوش العربية، طامعين بمكاسب الفتوحات، ولم تعد البربرية القديمة تظهر إلا في القبائل التي ظلت بعيدة عن هذه الظروف الجديدة.

إن تقاليد المجتمع الأمازوني البربري لا تختلف في جوهرها عن تقاليد الأمازونات في الأناضول وسومر ومصر وليبيا وليمنوس والقفقاس والبحر الأسود وأفسس وكريت... وبقية الأماكن.

ويتحدث البربر اليوم لغة يقال لها الأمازيغية Amazigh ولا تفسير لهذه الكلمة إلا بالقول إنها ذاتها الأمازونية. فكما نقول الإنكليزية لغة

الإنكليز والعربية لغة العرب والفرنسية لغة الفرنسيين... لا بد أن نقول إن الأمازونية هي لغة المجتمع الأمازوني. إن الأمازونية تعبير عن نمط مجتمعي عريق وليست ظاهرة عارضة. إن التطورات الجديدة وقيام الدولة/المدينة منذ الألف الثاني قبل الميلاد حدّت من تطور المجتمع القبلي وجعلته مجتمعا معزولا. ومع الأيام بدأ يفقد الصفات العريقة.

الأمازونات الأمريكيات

في عام ١٥٣٥ ابتدأ غزو الإكوادور والبيرو. ومن جملة القادة العسكريين الذين قاموا بالغزوات فرانسيسكو دي أوريلانا Orellana الإسباني المحب للمغامرة والاكتشاف. كان في جبال الإنديز (في الإكوادور) فرأى نهرا جميلا هو نهر نابو فسار معه حيث التقى مع نهر مارانون في البيرو وهناك عدة روافد التقت معا وشكلت منابع هذا النهر الضخم الذي لقبه بـ «النهر المحيط» واعتبره أعجوبة من أعاجيب الطبيعة. وبقي عدة سنوات حتى وصل إلى مصب نهر المارانون. وهناك غيّر اسم النهر وسماه نهر الأمازون. وقد شرح سبب هذه التسمية بأنه خاض المعارك الضارية ضد النساء الأمازونات. إنهن نساء محاربات لا يختلفن في شيء عن الأمازونات التي تحدث عنهن الأدب اليوناني. بدن متماسك وخصر رقيق قادر على الاستدارة السريعة بزوايا منفرجة، وسرعة في الهجوم ومهارة في تصويب النبال. إنهن مثل أمازونات الإغريق حتى في لباسهن الجلدي. ويزعم أنهن لم يفهمن مأربه كما لم يفهم لغة الإنذار التي وجهنها له فاعتلق الفريقان في معارك على ضفاف النهر المحيط. يبدو أنهن فهمن مأربه جيدا، كما فهم لغة إنذارهن. ولكن الغزو لا يعرف سوى لغة واحدة، لغة الإبادة الكاملة، والاستيلاء على أملاك الغير.

على طول ضفاف الأمازون (ثاني أطول الأنهار في العالم) رأى الأمازونات وحاربهن، فلم تختلف قبيلة منهن عن قبيلة أخرى. العادات والتقاليد وطريقة الإنذار وطريقة الحرب. وزعم أنه لم يستغرب ما رأى

إذ كان قد رأى ذلك من قبل منقوشا على المزهريات والآثار الإغريـــقية. كان يظن أنه يعيد قراءة الأدب الأمازوني القديم ولكن على نحو عمـــلي. والفرق بين قـــبيلة وقبيلة أمازونية أمريكية لا يكاد يذكر، بل إنه ينحصر في اللباس، لا من حيث الشكل، بل من حيث المساحة التي يغطيها من الجسد وكم يتيح من الحركة. أما اللون فكان واحدا هو لون الجلد المعرض للشمس والمصنوع بدقة. إنهن مثل الإغريقيات يرتدين الزي الذي اشتهرت به الربة أرتيميس (ديانا) ربة الغابات.

بـــعد أن عاد إلى إسبانيا ونال الجوائز الكثيرة والجزيلة دبّ فيه الحنين وعاد إلى النهر الذي يدين له بالتسمية... وبالقضاء على الأمازونات أيضا... ولكنه توفي في السنة الأولى لوصول حملته الثانية، فظلت بقايا من المـــجتمع الأمازوني لم تستطع أن تندمج في النمط الأوروبي فاتخذت صفحة الأمازون مسكنا بعد أن طردهن تجار الأخشاب من الغابات.

الموطن واللباس والثقافة

مع أنه لا يوجد موطن محدد للأمازونات كما كان يظن الإغريق، فإن مواقعهن محصورة في الأقاليم المعتدلة والحارة. وتعيش الأمازونات في الساحل أكثر مـــما تعيش في الداخل. ويتبين من اختيار المواقع أن هذه المجتمعات كانت تعتمد على الطبيعة وما تقدمه وليس على التصنيع والعمل. فكانت الكثافة السكانية قريبة من الأنهار وسواحل البحار.

وحتى الآن لم تدل المكتشفات والدراسات أن هناك مجتمعا أمازونيا في المناطق الباردة على غرار المجتمع الأمازوني. ولا يدل هذا على عدم مشاركة المرأة. فقد كانت تشارك الرجل ولكنها مشاركة وليست إدارة كامـــلة. ففي ألمانيا على سبيل المثال – كما تقول موسوعة أمريكانا – كانت النساء يذهبن إلى الحرب ولكن لتقديم المعونة وليس للاشتراك الفعلي، بينما كانت هناك فصائل في جيوش جنكيز خان تكاد تكون كلها من النـــساء. وحتى يضبط نظام الجيش النسائي كانت تضطر زوجة أحد القادة إلى ارتداء

الزي العسكري القتالي فتقوم بقيادة الكتائب وتشرف على أوضاعهن وعلاقاتهن.

وفي العصر الحديث عرفت بعض الدول مثل هذه الظاهرة كما في روسيا وكوريا والصين وفيتنام ولاوس. ففي الثورة الشيوعية تشكلت فصائل سميت «فصائل الموت» وزودن بسم السيانيد حتى لا يفشين الأسرار إذا وقعن في الأسر. ولكن الملاحظ أن هذه الفصائل كانت محدودة جدا من جهة، وكانت تحت قيادة الرجل من جهة ثانية.

ولو ذهبنا إلى داهومي لرأينا – منذ القرن السابع عشر وحتى التاسع عشر – جيوشا نسائية بكل معنى الكلمة، تقوم المرأة بدور القيادة والتخطيط ووضع الاستراتيجيا والتكتيك.

أما اللباس فهو متقارب. والأرجح أن يكون مستعارا من الربة أثينا والربة أرتيميس (ديانا). إلا أن ثمة فرقا بين أمازونات الإغريق وأمازونات البربر. فمع أن الجو يميل إلى الحرارة الشديدة في إفريقيا فإن الأمازونات هناك يكثرن من اللباس الحربي كأنهن يقين أنفسهن من حرارة الجو الشديدة. وقد ظهرت أمازونات الإغريق في المراحل المتأخرة بلباس فارسي أو قريب منه مما يدل على أن تأثير فارس بدأ يظهر في المجتمع الأمازوني في تلك الفترة.

أما أمازونات أمريكا فلا يختلفن عن الإغريقيات في شيء ولا حتى في طريقة الحرب، كما يقول أوريلانا. عند أمازونات البحر الأسود نجد جيش الأمازونات من النساء الصرف وكذلك في أمريكا. أما في إفريقيا فكان بعض الرجال يصحبن الأمازونات لتقديم الحاجات اللوجستية...

الثقافة هي ثقافة مجتمع بدوي قبلي تقوم فيه النساء بالصيد والحرب وإدارة شؤون القبيلة. أما الرجل فكان في كل المجتمعات الأمازونية جليس المنزل يقوم بتنظيفه. ومعظم الرجال كانوا عبيدا، أو لنقل كانوا خدما في المنازل، يقول الكاتب الإغريقي سترابو Strabo إن الأمازونات يعشن «في

الخارج» فحتى البيوت لا سقف لها. وحتى العلاقة مع الرجال كانت تتم في الــخلاء، في أي مكان. ويرى هيرودوت أن الأمازونة لا تقرب الرجل قبل أن تكون قتلت ثلاثة رجال أو سلخت لهم فروة الرأس. ولهذا أطلق عليهن لقبه المشهور «قاتلات الرجال».

كما كن أيضا «حاملات التراث والتقاليد» فيعرفن الكتابة والقراءة ويحفظن الشعر والأدب والقصص المتوارثة. ويذهب ديودورس الصقلي إلى أن أمازونات البربر كن عــلى قدر كــبير من الثقافة، بينما كانت الأمية متفشية في الرجال. وما اللغة الأمازيغية سوى لغة الأمازونات تحــمل للأجيال الحديثة أصداء مجتمع أمومي كان قائما وتراثا أدبيا بات اليوم يعرف بالفولكلور البربري، ومنه غناء «الراي».

كانت ثقافة الرجال في ظل هذه المجتمعات «منزلية» يجيدون إدارة المطبخ وتفصيل الثياب والإشراف على الحدائق. ويبدو أنهم لا يزالون حتى اليوم يتفوقون في هذه الأعمال على النساء. إن المطاعم والمطابخ الرسمية كلها بإدارة الرجال، كما أن مصممي الأزياء من الرجال في معظمهم.

أما الاهتمام بالــبنات والجور على البنين فنابع من حاجة المجتمع إلى مقاتلات عاملات نشيطات. فميدان القتال يحتاج إلى مئات المقاتلات، بينما لا يتسع المطبخ لأكثر من رجل واحد. كان الذكور عبئا ثقيلا عــلى هذه المجتمعات تسعى للتخلص منهم، كــما يتخلص البدن مما يزيد عن حاجته. وكان الرجال أنفسهم يشعرون أنهم يعيشون على هامش المجتمع.

الفالكيرات أمازونات الصقيع

المجتمع الأمازوني هو مــجتمع السهوب، مجتمع المناطق المعتدلة والحارة. ولا مثيل لهذا المجتمع في المناطق الباردة. ولــكن في البلاد الاسكندنافية أظهرت الميثولوجيا دورا كبيرا للمرأة المحاربة. يطلقون عليها «الفالكيرة» valkyrie. والفالكيرات هن بنات الإله أودن Auden، رب

البانثيون الاسكندنافي. ولا تظهر الفالكيرات إلا في ميدان القتال أو في قاعة الفالهالا. فتكاد مهمتهن الأولى تنحصر في القتال والحرب. وإلى جانب هذه المهمة تسند إليهن مهمة أخرى وهي نقل الأبطال القتلى إلى الفالهالا، وهي بالضبط «جنة الأبطال» ولكنها من جهة أخرى الجنة الوحيدة، فلا توجد جنة أخرى للجبناء أو العشاق... إن الأبطال القتلى ينقلون إلى هذه الجنة. وهذه المهمة تكاد تكون جزءا أساسيا من مهمتهن الكبرى في الحرب.

قد تكون الفالكيرات أقرب إلى الملائكة في الميثولوجيا المسيحية، سوى أن مهمتهن الحرب ولا شيء غير الحرب، فهن أقرب إلى الأجناد السماوية التي قادها ميخائيل في الميثولوجيا المسيحية وحارب بها ذلك الفريق المتمرد على الله، والذي صاروا يطلقون على أجناده اسم الشياطين أو الأبالسة. وقد سرد قصة هذا القتال سردا فنيا أخاذا الشاعر جون ملتون في ملحمته الشهيرة «الفردوس المفقود».

وبالفعل فإن فالكيرات الميثولوجيا الاسكندنافية يشبهن أجناد ميخائيل السماوية، فهن يدافعن عن الإله أودن، الذي يـمثل الحكمة والخير. وهن يعرفن أن كل من يقف إلى جانبهن، أي إلى جانب الحكمة والخير، هالك بلا ريب. فالأبطال يعلمون مسبقا أنهم يخوضون معركة خاسرة، وعلى يقين أن معسكر الشر والفساد سوف ينتصر، بل إن آلهة الفالهالا أنفسهم سوف يندحرون في المعركة الأخيرة. فالبشرية في هذه الميثولوجيا تصل إلى خاتمتها وتزول من الكون، بل ربما يزول الكون نفسه. وقيل إن ذلك تمهيد لقيام كون جديد.

هذا المـجتمع لا يقارِب المـجتمع الأمازوني إلا في أن الفالكيرات يمتهن الحرب ويعتنين بالأبطال الـصرعى. والمرجح أن هذا المجتمع أعـقب مجتمعا قبله كانت الفالـكيرات فيه مثل الأمازونات، أي كان المجتمع الاسكندنافي عبارة عن مجتمع أمومي أمازوني كامل المعالم، مثل أي مجتمع أمازوني.

صحيح أن الفالكيرات يتمتعن بحرية شبه مطلقة. ولكنهن يخضعن لسلطة رجل. إنهن يذعن لأوامر أودن. بل هن بناته. ورئيستهن يقال لها برنهيلد. وظيفتها مثل وظيفة ميخائيل عند المسيحيين، أي قيادة الأجناد المقاتلة في المعركة الفاصلة بين الخير والشر، سوى أن الخير ينتصر عند النصارى والشر ينتصر عند الإسكندنافيين (وهناك أسطورة تقول بأن المعركة الفاصلة التي ينتصر فيها الشر هي بداية لعصر جديد حيث تكون هناك سماء جديدة وشمس جديدة، وبشرية جديدة). وعلى الرغم من هذه الحرية الكبيرة تظل الفالكيرات أقل حرية واستقلالا من الأمازونات. ففي إحدى المرات خالفت برنهيلد أوامر أودن فغضب عليها وجعلها على جرف واد سحيق، وجعل حولها دائرة من نار. وبالطبع لا يمكن أن يكسر أوامر الإله إلا البطولة. البطولة الخارقة هي التي يحترمها أودن. ولذلك ظلت برنهيلد في دائرة النار إلى أن جاء بطل الأبطال سيغفريد وأنقذها. ولا أحد يجهل أعمال فاغنر الكبيرة في هذا الصدد.

من حيث الأساس تتمتع الأمازونة بحرية أكثر من الفالكيرة. أما الموقف من الرجال فيبدو أن موقف الفالكيرات يعكس لنا المرحلة الانتقالية التي تصالحت فيها المرأة مع الرجل. فقد كان الرجل كسولا خاملا يعمل على التنور أو في المطبخ، فتزدريه المرأة. ولكن عندما صار الأبطال يظهرون تقبلتهم المرأة، بل وقفت نفسها على خدمتهم، فهي التي تنقل صرعاهم في ميادين القتال وهي التي تقدم لهم الإرشادات في محاربة العدو. فمجتمع الفالكيرات يمثل مرحلة متقدمة على مجتمع الأمازونات، من حيث أنه يقر ببطولة الرجل ويقبل بها ويكرمها، بل يجعلها الفضيلة الوحيدة. وهكذا انتزع الرجل الكسول الاعتراف من الفالكيرات عندما نبذ الكسل وآمن بالبطولة ومارسها، فسمحن له بالمشاركة معهن في إدارة المجتمع، ثم تغلب عليهن.

لباس الفالـكيرات يختلف قليلا عن لباس الأمازونات، فهو أثـقل وأسمك، لتأمين الدفء في بلاد الصقيع والجليد. ولكنهن متشابهات فيما عدا ذلك. وتكاد فنون القتال تكون واحدة.

أما الثقافة فإنها متقاربة، فكلها تقوم على تقاليد البطولة. فالقيمة الأولى عند الفالكيرات والأمازونات هي البطولة وحدها. ومن هنا كانت الأناشيد والأشعار والآداب التي نقلتها المرأة إلى الأجيال التالية تدور كلها حول البطولة والأبـطال: تمجدهم في حروبهم وتبكيهم في مـصارعهم. ويبدو أن الرجل في المجتمعات الاسكندنافية حقق تقدما قبل الرجل في مجتمعات السهوب الأوروآسيوية بكثير وصارت المرأة تعترف به.

وبما أن التطور الاجتماعي لا يسير بخط متواز، فإن من الطبيعي أن نجد هذه الاختلافات والتباينات بين مجتمع ومجتمع. فمثلا تظهر أمازونات أمريكا الجنوبية في القرن السادس عشر كأنهن أمازونات البحر الأسود في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وبعض المجتمعات ظلت تكرم المرأة - كالمجتمعات الشمالية - بينما بعضها الآخر - كالمجتمعات الشرقية، وعلى الأخص بعد ظهور الأديان الذكورية - ينظر إلى المرأة نظرة دونية، بل يراها من جملة المنجسات التي يجب أن يـحذر كثيرا في تعامله معها. فكأن المرأة بعد أن صنعت الأبطال صارت أولى ضحاياهم في هذه المجتمعات.

زوال المجتمعات الأمازونية

إذا كان التطور غير متواز فكذلك زوال هذه المجتمعات. إننا لا نـعرف شيئا عن زوال معظمها، فنكتـفي بالقول إن «التطورات المتعاقبة» رجحـت كفة الرجل وأعادت تقسيم العمل من جديد فقضـت على المجتمعات الأمازونية، أحيانا بسرعة وأحيانا بعملية بطيئة جدا، عن طريق انتزاع الوظائف منهن.

وهذا حكم مطاط جدا. فالحقيقة أننا لا نعرف الكثير عن زوال هذه المجتمعات. فأمازونات البحر الأسود، كما تذهب الموسوعة البريطانية، اندمجن في المواكب الديونيسية، وإن أظهرت بعض الأمازونات عداء شديدا لديونيسيوس. وقد حصل ذلك في المرحلة الهيلينية بعد فتوحات الإسكندر. وكنا أشرنا من قبل كيف أن الأمازونات عرضن على الإسكندر أن يتزوجن من جنوده حتى يجتمع جمال الإغريق مع عزيمة نساء اسكيثيا.

إن بعض المجتمعات زالت بالحروب العرقية أو الدينية وبعضها زال باندماجه في حضارة المدينة / الدولة. إن معلوماتنا تظل ناقصة. كيف تلاشى المجتمع في ليمنوس أو أفسس؟ أو في ليبيا وبربر إفريقيا؟ هل بالحروب أم بالاندماج؟...

إن الغزو العربي للبربر لم يؤثر أول الأمر في مجتمعاتهم، ولكنهم فيما بعد اندمجوا وانسجموا مع العرب وكانوا من أعظم المحاربين، وعلى الأخص في فتح الأندلس، حيث تعاظمت الثروات التي جنوها من هذه الفتوحات الواسعة.

لم يكن زوال المجتمعات الأمازونية سهلا. كلف الكثير والكثير جدا. كان الأمازونات يخضن في أكثر الأحيان معارك خاسرة تجلب الدمار لمجتمعاتهن. إن الانتقال من المجتمع الأمومي (المترياركي) إلى المجتمع الأبوي (البطريركي) أدى إلى إزهاق ملايين الأنفس. إن المجزرة التي أوقعها الأوروبيون في أمريكا اللاتينية تجاوزت أربعين مليون قتيل. ومجتمع النساء، أو مجتمعات النساء، التي كانت مزدهرة على ضفاف الأمازون أبيدت إبادة شبه تامة. وأمازونات المغرب لم يبق منهن سوى اسم اللغة «الأمازيغية». كان الثمن غاليا، من دون أي مردود في الخير والسعادة.

ولم تقتصر ملاحقة المرأة على تعاظم مهمات الرجل الاجتماعية وحدها، بل راحت الأديان الذكورية تجلب لها المذلة والإهانة وتتعقبها في كل حركة من حركاتها. ففي القرن السادس عشر أحرقت محاكم التفتيش في أوروبا عشرات الملايين من النساء. وليس من سبب سوى أنهن يحتفظن ببعض التقاليد الأمازونية من أمثال الابتهال للقمر (رمز الربة أرتيميس «ديانا») أو الاغتسال بمياه المطر أو السباحة في الغدران في عيد الشمس، أو التطبب بالأعشاب (بدلا من الصلاة المسيحية «الشافية») وأمثال ذلك. فقد اعتبرن ساحرات كافرات بالديانة المسيحية التي مارست سيطرة قوية على نفوس المؤمنين حتى عصر قريب.

إن التاريخ لم يشهد قمعا كالذي جرى لهؤلاء الساحرات اللواتي كن يحرقن وحولهن «المؤمنون» يبتهجون لأنهم تخلصوا من الأرواح النجسة التي كانت تسكن فيهن.

أما «النسوية» feminism الأمازونية الحديثة، فلها سيرورتها الخاصة.

إحالات

مواقع الإنترنت

١ – للحصول على الصور والمكتشفات الأركيولوجية:

http://www.net4you.com

http://www.garnet.berkley.edu

٢ – للحصول على أماكن المجتمعات الأمازونية:

http://www.speakeasy.org

٣ – للحصول على القائمة الألفبائية للمحاربات الأمازونيات:

http://www.thirdstory.com

٤ – لمزيد من المعلومات:

http://www.plu.edu.

http://www.greece.com

أقراص ليزرية

١ – الموسوعة البريطانية	Britannica 2002
٢ – موسوعة كومبتون	Compton 2000
٣ – موسوعة إنكارتا	Encarta 2002
٤– المكتبة العالمية	World Library 4th edition

كتب

١ – الميثولوجيا، إديث هاملتون، ترجمة حنا عبود، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠.

٢ – موسوعة الأساطير، بولفينش، تحرير إدموند فولر، ترجمة حنا عبود، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٧.

٣ – يوم كان الرب أنثى، مارلين ستون، ترجمة حنا عبود، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٨.

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الصفحة

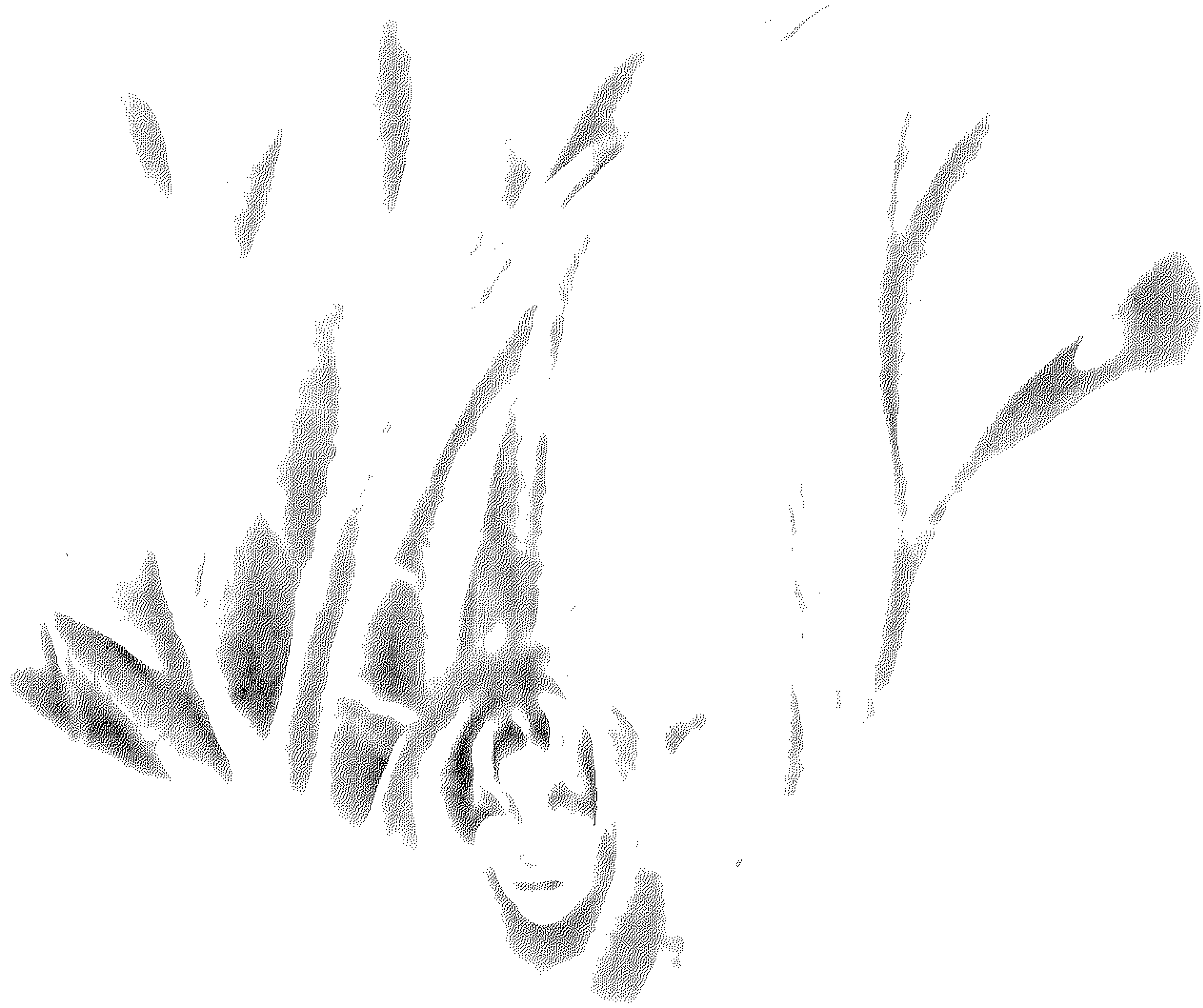
الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الطبعة الأولى / ٢٠٠٧

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





سعر النسخة داخل القطر ١٤٠ ل.س   في الأقطار العربية مايعادل ٢٨٠ ل.س
دمشق - ٢٠٠٧